سلسلة نحن واسرائيل
1

# كنّا في إسرائيل

## رحلات مصرية
## منذ 1956 وحتى 2008

إعداد وتقديم:
د. كمال عبد الملك     منى الكحلة

مدارك

سلسلة نحن وإسرائيل

# كنّا في إسرائيل

رحلات مصرية منذ 1956 وحتى 2008

الكتاب
كنا في إسرائيل سلسلة نحن وإسرائيل 1

إعداد وتقديم د. كمال عبد الملك ومنى الكحلة

التصنيف سياسة - أدب الرحلات

الناشر مدارك إبداع، نشر، ترجمة وتعريب
الطبعة الأولى، فبراير (شباط) 2011

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب ISBN 978-9953-566-37-5

الكتاب متوفر على الإنترنت
مكتبة نيل وفرات كوم
www nwf com

Madarek مدارك
Creating, Publishing, Translating & Arabizing إبداع، نشر، ترجمة وتعريب

Tel 0096I 1 282075 Fax 00961 1 282074
Gharios Center Forn Elchebbak Beirut - Lebanon
www mdrek com read@mdrek com

د. كمال عبد الملك

ومنى الكحلة

سلسلة نحن وإسرائيل

# كنّا في إسرائيل

رحلات مصرية منذ 1956 وحتى 2008

1

# المختارات

1 . كنت في إسرائيل، عزت إبراهيم (1957)
2 . هكذا رأيت إسرائيل، محمد مصطفى (1995)
3 . رحلة إلى إسرائيل، علي سالم (1996)
4 . في انتظار المخلص، رؤوف مسعد (2000)
5 . مهمتي في إسرائيل: مذكرات أول سفير مصري في تل أبيب، سعد مرتضى (2008)

# الفهرس

# المقدمة

«كنا في إسرائيل» هو الجزء الأول من سلسلة «نحن واسرائيل». نقدم فيه صورة إسرائيل في مرآة مصرية من خلال مختارات من أدب الرحلة في الخمسين سنة الماضية.

لقد تم نشر عشرات الكتب والمقالات حول تاريخ العلاقات المصرية - الإسرائيلية تناولت النواحي الدبلوماسية والسياسية والعسكرية. ولكن من المؤسف أننا لم نجد شيئاً مفصلاً يقدم صورة لإسرائيل، في أدب الرحلات في مصر في الخمسين سنة الماضية.

يعرض هذا الكتاب لأول مرة، مونتاج لآراء كتّاب مصريين زاروا إسرائيل، وهي مستقاة من كتب لمجموعة متنوعة من هؤلاء الكتّاب :

1 ـ كنت في إسرائيل، عزت إبراهيم (1957)
2 ـ هكذا رأيت إسرائيل، محمد مصطفى (1995)
3 ـ رحلة إلى إسرائيل، علي سالم (1996)
4 ـ في انتظار المخلص، رؤوف مسعد (2000)
5 ـ مهمتي في إسرائيل: مذكرات أول سفير مصري في تل أبيب، سعد مرتضى (2008)

صورة إسرائيل في هذه المختارات تتراوح بين إسرائيل بوصفها آخر ثابت لا يتغير وهونقيض للذات العربية مروراً بصورة إسرائيل بوصفها أنثى مغرية. ووصولاً إلى إسرائيل بوصفها كياناً يتسم بالكثير من العناصر الذميمة المرفوضة، إلى جانب عدد قليل من المزايا التي يجدر بالعرب محاكاتها ولو على مضض.

كمال عبدالملك ومنى الكحلة

دبي يناير 2011

# إبراهيم عزت، «كنت في إسرائيل»

سافر إبراهيم عزت إلى إسرائيل عام 1956 بعد أن بدا أنه نجح في إقناع سفارة إسرائيل في لندن بأنه صحفي من أمريكا الجنوبية وأن اسمه جورج إبراهيم حبيب، برازيلي من أصل عربي.

كان الكاتب الصحفي إبراهيم عزت مندوب روز اليوسف المتجول في خمسينات القرن الماضي، وقد نشر تحقيقاته على صفحات «روز اليوسف» و«صباح الخير»، مما أثار ضجة في مصر والعالم العربي.

مكث إبراهيم عزت 11 يوماً في إسرائيل وتقابل مع عشرات من رجال الحكم والسياسة . ونشر تحقيقاً عن هذه المقابلات على مدى عدة أسابيع، وعندما قيل وقتها إن هذا التحقيق الصحفي يعتبر خطوة للتقريب بين العرب وإسرائيل، كتب إحسان عبدالقدوس، رئيس تحرير «روز اليوسف» افتتاحية بعنوان (لا صلح مع إسرائيل) ونفي تماماً هذا الكلام والاستنتاج الذي روج له البعض. ظهرت هذه الافتتاحية في كتاب عزت إبراهيم والذي عنوانه، كنت في إسرائيل (بيروت، 1957 ) بمقدمة لإحسان عبدالقدوس.يقول إبراهيم عزت في بداية الكتاب: «كتابي هذا له قصة: فقد كتبت في مجلتي « روز اليوسف» صباح الخير» عدداً من المقالات عن رحلتي لإسرائيل، ثم أوقفت سلسلة المقالات وكثر التساؤل وقيل إن الحكومة المصرية قد تدخلت ومنعت نشر بقية المقالات وقيل إن سورية الحبيبة تدخلت وطالبت بمنع نشر بقية التحقيق الصحفي وكذلك لبنان الشقيق، وكل ما قيل في هذا الشأن غير صحيح، والصحيح هو أنني أردت أن أنشر باقي مشاهداتي في كتاب، كما أردت أن أحتفظ لقراء كتابي الأول بكثير من المعلومات الجديدة، وشجعني على هذا كثيرون، منهم

صديقي وزميلي وأستاذي إحسان عبدالقدوس رئيس تحرير «روز اليوسف» وصديقي وأستاذي محمد حسنين هيكل رئيس تحرير «آخر ساعة»... وفي بيروت وأثناء جلسة عائلية مع أخوة أعزاء جاء ذكر رحلتي إلى إسرائيل وانهالت الأسئلة، وكلها تهدف إلى معرفة ما يجري وراء الجدار المسلح في فلسطين، فتذكرت الكتاب وهذا نتيجة مناقشات في بيروت وتشجيع من القاهرة واشاعات في مختلف عواصم العالم العربي. والكتاب حاولت فيه أن يكون صورة صادقة واضحة عن إسرائيل ولكن لا أستطيع أن أنكر ما كتبته متأثراً بشعوري كمصري وكعربي على الرغم من إنني حاولت أن أكتب بعيداً عن التحيز حتى تعرف ما يجري في إسرائيل» (ص6 ـ 7).

ثم يقول إبراهيم عزت إنه في اليوم السابع لوجوده في إسرائيل ذهب لمقابلة موشي شاريت، وكان ما زال وزيراً للخارجية.حيث تحدث شاريت عن السلام بين مصر واسرائيل. وأضاف: إننا على استعداد لمقابلة الرئيس جمال عبدالناصر حتى ولو في القاهرة، وفي أي وقت يشاء لمناقشة ما يريد أن يناقشه. وكذلك التقى بجولدا مائير (رئيسة الوزراء بعد ذلك ووزيرة العمل أيامها) وقد لاحظ أن شقتها مفروشة على الطراز الشرقي، وطلبت مقابلة الرئيس جمال عبدالناصر، وأبدت استعدادها أن تسافر إلى القاهرة أو إلى أي مكان يريد. وأيضاً كما قابل إسحاق نافون الذي أصبح فيما بعد رئيساً لإسرائيل.

يقول إبراهيم عزت، قابلته على مائدة الغداء وقال لي إنه يعلم أنني سأقوم بزيارة بعض الدول العربية فهل أنا على استعداد لحمل رسالته. ثم فاجأني برسالة من بن جوريون التي أبدى فيها استعداده لمقابلة الرئيس جمال عبدالناصر في أي مكان وأي زمان لمناقشة ما قد يتراءى للزعيم المصري، وعندما تساءلت هل بن جوريون على استعداد لمقابلة الزعيم

المصري في القاهرة؟ قال لي: لماذا لا تسأله أنت شخصياً.

ثم يتحدث إبراهيم عزت عن الجنرال إيجال يادين الذي قال له: إنه كرجل عسكري وكعدو سابق يقدر تماماً رجال ثورة مصر الشباب فقد لمس بنفسه مدى جهل قادة الجيوش العربية أثناء حرب 1948. وفي الوقت نفسه كانت نفوس ضباطهم الشباب ملأى بالحيوية والنشاط. وإنه لمس إخلاص ووطنية الضباط الشبان عندما اجتمع في رودس لمناقشة اتفاقية الهدنة المصرية الإسرائيلية. وقال إنه يأسف أشد الأسف لعدم معرفته أو مقابلته للكولونيل عبدالناصر المصري، لأنه كرجل عسكري يقدره جداً ويقدر ثورته على فساد الملك السابق. وأنه لولا عدم معرفته بالزعيم الشاب المصري لطار فوراً إليه كرفيق سابق في ميدان القتال. وأخيراً تقابل إبراهيم عزت مع بن جوريون رئيس الوزراء الإسرائيلي الذي قال له: إذا ذهبت إلى مصر واستطعت أن تقابل الرئيس جمال عبدالناصر قل لسيادته إنني على ستعداد لمقابلته في أي وقت وفي أي مكان يحدده هو لمناقشة أي مسألة يحب أن يثيرها. سواء كانت هذه المسألة خاصة باللاجئين أو الحدود أو كانت مسألة اقتصادية أو سياسية أو عسكرية بدون وسيط وبدون إذاعة أي شيء عن هذا الاجتماع أو نتائجه. قل له إنني على استعداد لمقابلته ولو في القاهرة.

على الرغم من الأهمية التاريخية والسياسية لهذا الكتاب إلا أنه لم يلق الاهتمام الكافي من المؤرخين أو الدارسين المهتمين بالعلاقات المصرية الإسرائيلية.

**تموز (يوليو) 1957:**

# نحن اليهود..

كلمة سمعتها أثناء وجودي في إسرائيل، قالها ناحوم جولدمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية.

قال ناحوم جولدمان:

«لا يهمنا نحن اليهود أن نكون في جانب واحد من التيارات السياسية العالمية، ما دمنا نعيش في أنحاء العالم كيهود فقط لا يهمنا أن نكون رأسماليين أو شيوعيين أو اشتراكيين، لأننا لا نفكر إلا في أننا يهود. فالقضاء والقدر قد حتما علينا أن نعيش في الربع جهات من هذا العالم..

فإذا دعت روسيا دعوتها ضد أمريكا كان اليهود أسبق الناس إلى تعضيد الشيوعية..

واذا دعت أمريكا دعوتها ضد روسيا كان يهود أمريكا أسبق الأمريكيين إلى الدعوة ضد الشيوعية..

وهكذا سيبقى مركزنا كيهود سليماً إلى الأبد..

# هذا الكتاب..

منذ عام 1948، أنا.. وكثير من الزملاء الصحفيين في مصر وفي سائر البلاد العربية نحلم بدخول الجزء المحتل من فلسطين الذي أصبح إسرائيل..

وفي مايو سنة 1956 حققت هذا الحلم.. وكان نصراً صحفياً للصحافة المصرية والعربية.. ونشرت لي «روز اليوسف» و«صباح الخير» عدداً من المقالات أثارت ضجة عالمية.. كل صحف العالم وكل إذاعات العالم تتحدث عن الصحفي العربي إبراهيم عزت.. حتى مستر دالاس وزير خارجية الولايات المتحدة تكلم عن التحقيق الصحفي الذي قام الصحفي العربي..

وكتابي هذا له قصة..

فقد كتبت في مجلتي «روز اليوسف» و«صباح الخير» عدداً من المقالات عن رحلتي لإسرائيل.. ثم أوقفت سلسلة المقالات هذه...

وكثر التساؤل.. وقيل إن الحكومة المصرية قد تدخلت ومنعت نشر بقية المقالات.. وقيل إن سوريا الحبيبة احتجت وطالبت بمنع نشر بقية التحقيق الصحفي.. وكذلك لبنان الشقيق...

وكل ما قيل في هذا الشأن.. غير صحيح..

والصحيح هو أنني أردت أن أنشر باقي مشاهداتي في كتاب.. كما أردت أن أحتفظ لقراء كتابي الأول بكثير من المعلومات الجديدة.. وشجعني على هذا كثيرون.. منهم صديقي وزميلي وأستاذي إحسان عبدالقدوس رئيس تحرير «روز اليوسف»، وصديقي وأستاذي محمد حسنين هيكل رئيس تحرير «آخر ساعة»...

وفي يوليو الماضي.. بدأت فعلاً في كتابة الفصول الأولى للكتاب.. ولكن الأحداث منعتني من المضي في الكتابة.. لأن وقتي كصحفي ليس ملكي...

وأخيراً.. وبعد انسحاب المعتدين المخزي من مصر.. وبعد أن هدأت الأحوال السياسية بسبب فتح قناة السويس وقبول الدول بالمذكرة المصرية.. أتيح لي لأول مرة أن أحصل على إجازة أقضيها في لبنان..

وفي بيروت وأثناء جلسة عائلية مع أخوة أعزاء.. جاء ذكر رحلتي لإسرائيل.. وانهالت الأسئلة وكلها تهدف إلى معرفة ما يجري وراء الجدار المسلح في فلسطين.. فتذكرت الكتاب.

وهذا هو.. نتيجة مناقشات في بيروت.. وتشجيع من القاهرة.. واشاعات في مختلف عواصم الوطن العربي..

والكتاب.. حاولت فيه أن يكون صورة صادقة واضحة عن إسرائيل.. ولكن لا أستطيع أن أنكر أن ما كتبته متأثر بشعوري كمصري وكعربي على الرغم من إنني حاولت أن أكتب بعيداً عن التحيز.. حتى تعرف ما يجري في إسرائيل..

وكثير من الحقائق الواردة في هذا الكتاب حدثت فعلاً في إسرائيل.. فلست أؤمن بنظرية النعامة التي تخفي رأسها في الرمال.

ولهذا فقد كتبتها لنا جميعاً..

لكل العرب.. في كل بلاد العرب..

حتى نعرف عدونا وسبب جميع مشاكلنا..

إبراهيم عزت

روما.. يونيو 1957

# لا صلح مع إسرائيل

بقلم إحسان عبدالقدوس

إن التحقيق الصحفي الذي نشرته مجلتا «روز اليوسف» و«صباح الخير» عن إسرائيل أثار ضجة عالمية.. فقد تحدثت صحافة العالم وكل إذاعات العالم عنه.. فمجلة «لايف» أرسلت مصورها ليلتقط صورة إبراهيم عزت في مكتبه، ثم في بيته؛ وعرضت شراء حقوق نشر التحقيق الصحفي بـ25 ألف دولار، أو عشرة آلاف جنيه!!

وهذه الضجة لا تهم..

ولكن المهم أن إسرائيل أرادت أن تستغل هذا التحقيق لصالحها، فادعت أن وراءه اتجاهاً جديداً للتقرب بين العرب وإسرائيل.. ولكنها ليست إسرائيل وحدها، إنها الدعاية الخبيثة التي تشنها الدول الاستعمارية لتحطيم وحدة العرب.. تحطيمها بالدس والوقيعة.. وسلاحها دائماً الكذب، والتضليل، والخداع، والتفسير المغرض المضلل لكل كلمة تنشر، وكل كلمة تقال..

هذه الدول، تريد أن تغلف عقول العرب بغمامة سوداء، وتريد أن تغمض عيونهم عن الحقيقة الناصعة، وهي أن هناك استعماراً، وأن مصر تحارب هذا الاستعمار، وستحاربه دائماً في كل مكان..

وكل ما قيل عن أنّ نشر التحقيق الصحفي الخاص بإسرائيل يعتبر خطوة للتقرب بين العرب وإسرائيل.. هو كذب..

كذب معروف عن أقلام الدعاية الاستعمارية الماهرة!

إن إبراهيم عزت قام بمغامرة صحفية محضة لحساب «روز اليوسف» .. ولم يكن له هدف إلا خدمة القارىء العربي عن طريق صحافته..

الحقيقة هي إننا أرسلنا إبراهيم عزت إلى إسرائيل في مغامرة خطرة، ليلتقط صورة صادقة واضحة عن العدو.. صورة لا تشوّهها أقلام الدعاية!!

ونحن لا نستهين بالعدو، ولا نقلل من شأنه.. ولكننا نريد أن نعرفه جيداً، لنعرف كيف نحاربه جيداً.. كيف نستعد له بالعمل وبالقسوة على أنفسنا.. لا بالكلام والولائم...

إحسان

الفصل الأول

# بدء الرحلة..

تركت القاهرة في يناير عام 1956.. وكان الغرض من قيامي بهذه المرحلة هو كتابة عدد من المقالات من العواصم الأوروبية.. وكانت الرحلة رحلة دراسية أكثر منها صحفية.

وفي الطائرة التي أقلتني من روما إلى زيوريخ.. جلس إلى جواري شخص يبدو عليه أنه شرقي تبين لي بعد أن تبادلنا الحديث ـ وكان لا بد من هذا ـ أنه يهودي فلسطيني الأصل يحمل جواز سفر إسرائيلياً..

ومن اللحظة التي قال لي فيها إنه إسرائيلي.. نبتت فكرة دخول إسرائيل.. والخروج منها سالماً.. لأكتب عما يجري فيها..

وفي لندن.. درست الفكرة مدة طويلة..

وهناك وضعت الخطة التي نجحت.. فعشت داخل إسرائيل.. في تل أبيب وحيفا والقدس الإسرائيلية وبئر سبع.. وتنقلت من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب..

عشت داخل إسرائيل كصحفي برازيلي اسمه جورج إبراهيم حبيب.. من أصل عربي مسيحي.. لا أتكلم العربية وأجيد الانجليزية..

ومن سفارة إسرائيل في لندن حصلت على تأشيرة دخول إسرائيلية صالحة لمدة عام.. ولما كنت في طريقي إلى بلاد الشرق الأوسط فقد رأيت من المستحسن أن تكون التأشيرة منفصلة عن الجواز.. وكان هذا أمراً سهلاً.. لم يأخذ دقيقة من تفكير موظف القنصلية الإسرائيلية..

فطلب مني صورتين لصق أحدهما على ورقة بيضاء من أوراق السفارة وطبع عليها تأشيرة الدخول إلى إسرائيل.

وقال لي الموظف الإسرائيلي إنه يقوم بإعطاء مثل هذه التأشيرة المنفصلة عن الجواز لأكثر من مائة شخص في الأسبوع الواحد.

وكانت هذه الورقة هي كل ما أحمله وأنا أجوب إسرائيل شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً.

ولما كنت صحفياً أزور بلاد الشرق الأوسط لأول مرة فقد قررت مصلحة الاستعلامات الإسرائيلية أن تكون تحت خدمتي سيارة وسائق ومرافق رسمي من وزارة الخارجية يتكلم اللغة العربية.. وذلك عندما أعربت عن رغبتي في مقابلة وزيارة «الأقلية» العربية في إسرائيل..

من باريس ركبت الطائرة التي أقلتني إلى مطار اللد بتل أبيب.. وما كدت أطل برأسي خارج باب الطائرة حتى وجدت في انتظاري مدير المطار نفسه ومندوباً من وزارة الخارجية الإسرائيلية..

ورحبت بي هيئة الاستقبال بكلمات انجليزية قليلة.. وطلب مني مدير المطار أن أتوجه مباشرة إلى السيارة المخصصة لي والتي ستحملني إلى الفندق.. وقال إن حقائبي ستلحق بي مباشرة.. وكان هذا في الساعة الثامنة مساءً..

وصلت إلى الفندق حوالي الساعة التاسعة.. وفي طريقي إليه مررت بشوارع تل أبيب.. شوارع أنيقة ولكنها هادئة كأنها تشق مدينة هجرها أهلها..

وفي الفندق.. لم أجد حقائبي.. فأخذت حماماً ونزلت إلى مطعم الفندق حيث تناولت العشاء.. وصعدت إلى حجرتي مرة أخرى ورقمها 323 في الساعة الحادية عشرة فلم أجد حقائبي..

وجلست إلى سريري وأنا ببذلتي ورأسي يدور..

وفي الساعة الثانية عشرة بالضبط وصلت حقائبي.. وكان يبدو من هيئتها أنها فتشت تفتيشاً دقيقاً وأن الأيدي التي عبثت بها بذلت مجهوداً كبيراً لإعادة كل شيء إلى مكانه..

ثم اكتشفت أن آلة التصوير التي كانت في إحدى الحقائب قد اختفت.. فطلبت من استعلامات الفندق الاتصال بمدير المطار فقيل لي أن اتصل بالحجرة رقم 324.. أي الحجرة المجاورة لي في نفس الطابق..

وفوجئت عندما وجدت أن السائق المخصص لي يقيم في هذه الحجرة.. وقال تبريراً لذلك أنه سينزل في كل فندق وفي كل مكان أذهب إليه حتى يكون بالقرب مني إذا أردت أي شيء..

سألته عن اختفاء آلة التصوير فوعد أن يجدها ويحضرها في الصباح.. وغادرت إسرائيل ولم يفِ إيلي حدافي بالوعد.. إلا أنه أعارني آلة التصوير الخاصة به طوال وجودي هناك..

وفي صباح اليوم التالي بدأت زيارتي لإسرائيل.. وقبل بدء الزيارة قدم لي السيد الكساندر دوثان وقيل لي إنه عيِّن كمرافق ومرشد ومترجم لي طوال وجودي في إسرائيل..

وقد قال لي إن وظيفته الأصلية هي مدير مكتب «المعلومات العربية» بوزارة الخارجية الإسرائيلية.. ومن ضمن مهمته قراءة جميع الصحف والمجلات العربية والرد عليها في محطة الإذاعة..

وقال لي في معرض الحديث عن عمله إن الصحف المصرية تصل إلى إسرائيل وإليه في مكتبه صباح نفس يوم صدورها.. وقد طلبت مشاهدة الصحف المصرية ورأيت من بينها مجلة روز اليوسف وكان ذلك حوالي الساعة الحادية عشرة يوم صدورها..

والصحف المصرية والعربية تصل إلى القدس الإسرائيلية يومياً

عبر بوابة ماندلبوم في سيارات ديبلوماسية لعدة سفارات مختلفة وهذه السيارات تتمتع بالحصانة الديبلوماسية وكذلك سائقوها الذين يتناول كل منهم مرتباً ثابتاً من وزارة الخارجية الإسرائيلية.

ومن ضمن هذه السيارات سيارة السفير الفرنسي الخاصة وكان ذلك بالطبع قبل قطع العلاقات بين الأردن وفرنسا..

والمرافق الثاني لي كان السائق إيلي حدافي.. وهو شاب لم يتعد الخامسة والعشرين بعد.. وقد أقام معي في جميع الفنادق التي نمت فيها.. على الرغم من أنها جميلة فخمة تتعدى أجرة المبيت فيها مرتبة الذي ذكره لي..

وفي اليوم الأول لاحظت وجود مدفع رشاش بجواره يغطيه بسترته.. التي تعود أن يضعها بجانبه دائماً أثناء القيادة..

وقلت له في براءة: لماذا هذا المدفع يا إيلي؟

فأجاب إيلي في نفس البراءة: أن مهمتي هي قيادة سيارتك وحراستك أيضاً..

قلت له: حراستي ممن؟

فقال: من أشياء كثيرة.. من الفدائيين المصريين مثلاً..

قلت مبتسماً: شكراً..

ولم أزد حرفاً!.

ولكن لاحظت في اليوم التالي إنه استبدل المدفع الكبير مسدساً كبيراً كان يضعه دائماً بجواره.. في متناول يده؟!

وهكذا استمرت زيارتي لإسرائيل..

كل شيء يبدو طبيعياً كأني أزور أي بلد من بلاد العالم لا بلد يحتله العدو..

ولم يحدث ما يمكن أن يكشف عن شخصيتي إلا عندما قابلت صديقي الصحفي الانجليزي المشهور المستر جون سليد بيكر فقد قابلته في بهو فندق «دان» بتل أبيب ووقف ينظر إلي كمن شاهد عفريتاً..

وفي البار جلس بجواري وتحدث معي كفريب.. ثم دعاني إلى العشاء معه فقبلت.. ولم نأخذ معنا إيلي حدافي.. وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي لم يصر إيلي على حراستي!..

وفي المطعم قلت له عن القصة باختصار وطلبت منه عدم نشر خبر وجودي في إسرائيل.

وفعلاً لم يكتب حرفاً عن ذلك على الرغم من أن هذا كان يعد نصراً صحفياً له شخصياً.

وعندما وصلت إلى القاهرة بعد انتهاء هذه الزيارة وجدت سليد بيكر في انتظاري.. وكان يريد أن أروي له كل القصة..

قضيت في إسرائيل أحد عشر يوماً..

ثلاثة أيام في تل أبيب.. وثلاثة في حيفا.. ويومين في بئر سبع.. ويومين في القدس.. ثم ليلة أخرى في تل أبيب..

ووصلت جولتي إلى الحدود المصرية.. ووقفت على بعد أقل من مائة ياردة من حدود غزة عند النقطة التي تطلق عليها لجان الهدنة اسم «الكيلو 95».

وكنت أرى غزة على التل المواجه لي..

أرى شوارعها وجوامعها..

كنت قريباً جداً من مصر.. ورغم ذلك فقد كنت أشعر أني بعيد.. بعد القمر عن الأرض..

ولم أكن سعيداً وأنا أنظر إلى العلم المصري وهو يرفرف في الأفق

البعيد ـ وكانت هذه المرة الوحيدة في حياتي التي لم أشعر بالسعادة عندما أرى العلم الأخضر..

بل كنت أشعر كأني على وشك البكاء..

فهذه الأرض التي أقف عليها والتي أطل منها على وطني.. أرض يحتلها الأعداء.. ويشلون فوقها قدمي حتى لا أخطو خطوة واحدة.. إلى وطني!..

مائة ياردة من الحدود المصرية.. ورغم ذلك كان يجب أن أركب الطائرة إلى قبرص ومنها إلى مصر حتى أصل إلى الجزء المواجه لي عبر المائة ياردة فقط..

وفي الشمال وصلت إلى الحدود اللبنانية والسورية.. وزرت منطقة الحولة التي كانت تجري فيها الإصلاحات.. وزرت مشروع تحويل نهر الأردن..

وفي الشرق وصلت إلى الحدود الأردنية.. وشاهدت أهالي قلقيلية وهم يعملون في الأردن.. وأنا في الجانب الآخر..

وفي خلال إقامتي في إسرائيل قابلت كل رجالها.. ما عدا واحداً.. لم أرغب في مقابلته..

قابت بن جوريون، وموسى شاريت، وجولدا ماير وكان اسمها مايرسون في ذلك الوقت وكانت تشغل وظيفة وزيرة العمل.. وقابلت الجنرال بادين القائد العام للعصابات الإسرائيلية عام 1948 .. وقابلت.. وقابلت..

ولكنني زهدت في مقابلة الإرهابي مناحيم بيجن..

وبعد أن انتهت زيارتي.. ذهبت إلى المطار بصحبة مرافقي دوثان وبجانبي سائقي وحارسي المدني الذي لم يفارقني لحظة واحدة السيد إيلي حدافي.. وقد علمت فيما بعد أن إيلي حدافي ضابط مخابرات.. وأن

مهمته مرافقة جميع الصحفيين الأجانب.. وهو يعرف فلسطين شبراً شبراً.. ويعرف كيف يدعي الجهل ببعض الأماكن في بعض الأحيان!..

وفي المطار قيل لي إن الحقائب ستلحق بي.. ومرة أخرى تأخرت الحقائب.. بل إنني لم أرها إلا عنده وصلت قبرص.. ولكن لم يكن كل ما خرجت به من إسرائيل أضعه في حقائبي..

وفي مكتب شركة الطيران صرفت لي تذكرة إلى نيقوسيا بقبرص.. وطلب مني أتوجه إلى مكتب الشركة هناك.. وفي مكتب الشركة في قبرص طلب مني المدير تذكرتي وتولى تغييرها بإزالة كلمة «تل أبيب» منها ... فأصبحت التذكرة تحمل أسماء العواصم التالية:

باريس. القاهرة عن طريق نيقوسيا وبيروت.. وكأني لم أزر تل أبيب..

وقد علمت أن مهمة كل شركات الطيران في قبرص هو تعديل التذاكر ورفع كلمة «إسرائيل» منها حتى لا تقع الشركات والأشخاص المسافرون تحت طائلة الإجراءات التي تتخذها البلاد العربية..

الفصل الثاني

# حقائق من إسرائيل..

بعد أحد عشر يوماً.. جمعت معلومات كثيرة عن إسرائيل.. إن نشري لهذه المعلومات قد لا تعجب من يصدقون أن إسرائيل في طريقها إلى الموت.. بدون عون خارجي!..

وقبل أن أسرد التفاصيل، أفضل أن أعدد المظاهر العامة التي التقطتها هناك..

وسأراعي دائماً أن أقول الحق ولا شيء غير الحق، فإني أعتقد أن ليس من صالحنا أن نزوّر الحقائق، أو نقلل من شأنها..

إن الحقيقة كلما وضحت أمام أعيننا، استطعنا على ضوئها أن نحدد خطواتنا وأن نشحذ همتنا.. وإسرائيل نفسها كانت لا تنكر حقيقة قوة مصر وقوة الدول العربية.. إنها تبرز هذه الحقيقة، وترهبها وتجسمها في أعين الناس لتثير حميّتهم..

وهذه هي الحقائق:

* الحقيقة الأولى: إن إسرائيل تعمل 24 ساعة في اليوم لتدعيم اقتصادها. والعمال هناك يعملون أكثر من دوامهم وأحياناً كثيرة ضعف هذا الدوام.. وفي مناسبات كثيرة يتبرع العمال بأجرهم عن عملهم الإضافي..

وإسرائيل اليوم تضم مصانع كثيرة..

مصنع المطاط الذي ينتج من الإطارات ما يكفي إسرائيل وما يكفي

للتصدير إلى الخارج.. والخارج لإسرائيل هي غالباً تركيا..

ومصانع المواد الغذائية والنسيج والجلود والمناجم وأعمال الخشب وصقل الماس.. وهذه الصناعة الأخيرة كانت وقفاً على يهود هولندا ثم انتقلت كلها إلى إسرائيل..

ثم صناعة الورق والطباعة.. والصناعات الكيميائية التي أصبحت أهم صناعة في إسرائيل..

في مستعمرة جنة صمويل :

معظم أهالي إسرائيل يسكنون مستعمرات جماعية خارج المدن. ويطلقون عليها هناك «جي شمويل»، أي مصنع البرتقال.. يحول كل شيء في البرتقالة إلى شيء مفيد.. العصير يعبأ في زجاجات، أو تصنع منه «مربى» والقشر والبذور تستخرج منها مادة كيميائية لصناعة الأدوية والباقي أيّ – التفل- تضاف إليه مواد أخرى ليصبح غذاء للبقر.. كل هذا يتم أوتوماتيكياً..

وذبح البقر محرَّم في إسرائيل بقانون، ويستغل فقط في استدرار اللبن، وبقر إسرائيل مولد من البقر السوري والبقر الهولندي ويعطي نسبة عالية جداً من اللبن..

وفي حيفا، زرت معرض إسرائيل الصناعي.. وأمام كل صناعة علقت لوحة سجلت عليها الدول التي تستورد صناعات إسرائيل.. وعلى معظم اللوحات كنت اقرأ اسم «تركيا».. إنها العميل الأول لإسرائيل..

هذه الضخامة المتعمدة في صناعات إسرائيل، وهذا المجهود الصناعي الضخم، يشير إلى هدف واحد.. هو الاستعداد للسيطرة الاقتصادية على الشرق الأوسط.. ومعظم هذه المصانع مبنية بشكل يستوعب ثلاثة أضعاف عمالها.. لانتاج أكثر من عشرة أضعاف ما ينتج

الآن في إسرائيل.. وذلك يوم تعقد معاهدة الصلح بينها وبين البلاد العربية!!!

ويوم تستطيع إسرائيل أن تتنسم هواء البلاد العربية، ستغرق الأسواق العربية - في خلال 24 ساعة - بمنتجاتها، وبما يكفي للقضاء على أية صناعة عربية محلية..

ولا نستطيع أن نعتبر كل هذه الصناعات، صناعات إسرائيلية، إنها في حقيقتها صناعات أمريكية.. ورأس مالها أمريكي.. فكل مصنع من المصانع التي زرتها مهدىً من هيئة أمريكية، وهم لا ينكرون ذلك بل يعلقون اسم أصحاب الهدية على باب المصنع.. روتشيلد تشرشل وغيرهما.

* والحقيقة الثانية: هي أن إسرائيل تعيش على المعونة المالية والهبات والقروض التي تأتي إليها من المنظمات اليهودية العالمية.. وحتى المستشفيات والمدارس الكبرى المنشأة على أحدث طراز، معظمها مهدىً من هذه المنظمات..

وقد طالبت إسرائيل أثناء انعقاد المؤتمر الرابع والعشرين للمنظمة الصهيونية العالمية الذي انعقد في القدس في العام الماضي. وكنت أحد شهود عددٍ من جلساته - طالبت بزيادة المعونة التي ترسل إلى إسرائيل إلى مبالغ خيالية تبلغ مئات الملايين من الجنيهات الإسرائيلية.. والجنيه المصري يوازي ما يقرب من خمسة جنيهات إسرائيلية..

فإذا منعت هذه المعونة المالية الخارجية أو توقفت.. توقف نبض إسرائيل في الحال.. فإنها دولة لا تستطيع أن تعيش على إمكانياتها الداخلية على الرغم من محاولاتها الكثيرة لذلك..

* والحقيقة الثالثة: أن إسرائيل تعيش على أمل الصلح مع العرب.. وهذا الأمل هو هدف وحلم كل إسرائيلي.. من بن جوريون إلى إيلي حدافي..

وكل من قابلتهم في إسرائيل كان يردد دائماً هذا الأمل على اعتبار أنه حلم إسرائيل.. وجميعهم يعلمون أن تحقيق هذا الحلم قد يأخذ وقتاً طويلاً.. قد يمتد إلى عشر سنين أخرى. ولكنه ليس بالمستحيل.. لأنهم إذا فقدوا هذا الأمل فقدوا ما يسمونه بوطنهم القومي!..

وقد قال لي بن جوريون عندما علم أنني سأزور مصر.. قال لي بالحرف الواحد الذي أمليَ علي كلمة كلمة..

«إذا ذهبت إلى مصر واستطعت أن تقابل الرئيس جمال عبد الناصر، قل لسيادته إني على استعداد لمقابلته في أي وقت، وفي أي مكان يحدده هو: لمناقشة أي مسألة يجب أن يثيرها سواءً كانت هذه المسألة خاصة باللاجئين أو الحدود، أو كانت مسألة اقتصادية أو سياسية أو عسكرية، بدون وسيط وبدون إذاعة أي شيء عن هذا الاجتماع أو نتائجه..

قل له، إني على استعداد لمقابلته ولو في القاهرة.

ولكن هذا الإلحاح الذي يبديه بن جوريون وهذا الأمل الذي يداعب صدر رجل الشارع في إسرائيل لم يغمض عين إسرائيل عن الاستعداد للهجوم..

وقد خرج الشعب الإسرائيلي - طبقاً لأوامر الحكومة - يوم أول مايو - وهو أكبر عيد في إسرائيل لأنه يوم العمال - خرج الشعب ليحتفل بالعيد بطريقة استفزازية عجيبة.. فقد توجه جميع أفراده بلا استثناء إلى المستعمرات التي تقع على حدود مصر للعمل - تطوعاً - في حفر وإنشاء الخنادق..

وكان من بين الذين خرجوا إلى المستعمرات الثانية عدد كبير من الوزراء..

كما أني شاهدت أثناء جولتي في الجنوب وبالقرب من الحدود المصرية ومنطقة النقب تحركات عسكرية استمرت طوال الأيام التي قضيتها هناك.. وكانت «بئر سبع» ويطلقون عليها لقب عاصمة النقب مركز كل هذه الحشود..

والتقاليد في إسرائيل تقضي بأن تقف أي سيارة سواء أكانت سيارة رسمية أو خاصة لالتقاط أي عابر سبيل يشير إليها.. وكانت «سيارتي» تقف كثيراً لالتقاط عابر طريق لتوصله إلى جهة ما.. وكان المغاير دائماً يحمل على ذراعه مدفعاً رشاشاً أو بندقية..

وعندما زرت مستعمرة «كفار فيتكه» رأيت لوحة ضخمة معلقة في وسط المستعمرة، تمثل الأهرام المصرية وفوقها الطائرات النفاثة المصرية، وعليها العلم المصري وجنود مصريون من فرق لمظلات يهبطون إلى الأرض..

وسألت عن معنى هذه اللوحة فقيل لي إن المستعمرة تريد تجنيد بعض الشبان لفرقة المظلات الإسرائيلية وهذه اللوحة لإثارة حميتهم للتطوع!..

ومستعمرة «كفار فيتكه» هذه أقيمت فوق أرض عربية كانت تملكها عائلة سرسق العربية وباعتها لليهود بسعر «الدونم» 25 قرشاً.. والدونم هناك يساوي الآن خمسماية جنيه إسرائيلي!..

* والحقيقة الرابعة: عن العرب في إسرائيل.. ويطلقون عليهم اسم الأقلية العربية.. هي أن العرب في إسرائيل يعيشون في حالة سيئة جداً وتطبق عليهم وحدهم الأحكام العسكرية منذ عام 1948.. والحكومة الإسرائيلية تسيطر على أدق شؤونهم الخاصة. حتى أنهم أصدروا قانوناً

يحرم تعدد الزوجات بين المسلمين.. وتقول إسرائيل إن هذا إجراء تحتمه المدنية. ويقول العرب المسلمون إن المقصود بهذا القانون تخفيض نسبة التناسل بينهم، حتى يسهل على إسرائيل القضاء عليهم..

* والحقيقة الخامسة: هي أن إسرائيل تعتبر مصر هي خصمها الوحيد. ويعتقد الرسميون الإسرائيليون أن الصلح مع مصر يعني الصلح مع العرب.. كما أنهم يعتبرون إنها هي القوة الوحيدة التي تضع كل قواتها أمامها..

وفي حديث مع المستر موسى شاريت، وهو الرجل الثاني في إسرائيل بعد بن جوريون، قال لي: إن إسرائيل تعرف أن سلاح مصر الجوي أقوى خمسة وعشرين مرة من السلاح الجوي الإسرائيلي..

وقال لي مرافقي ألكسندر دوثان ليدلل على أن مصر وحدها هي القوة التي تحسب لها إسرائيل كل حساب، أن ثلاثة أرباع الجيش الإسرائيلي العامل يرابط بكل قوته وسلاحه على الحدود المصرية.

* والحقيقة السادسة: أن الفدائيين العرب أثاروا الرعب والفزع في إسرائيل.

وقد كونت إسرائيل فرقة خاصة لمقاومتهم.. معظم أفرادها من الدروز.. ومن قصاصي الأثر من بعض العرب الخونة هناك.

* والحقيقة السابعة: أن إسرائيل تقاوم الحصار الاقتصادي العربي.. بمحاولة الاعتماد على مواردها.. ونجاحها حتى الآن في ذلك سببه تضييق الخناق على شعبها وشد الحبال حول البطون..

* والحقيقة الثامنة: أن إسرائيل تحكم بواسطة المنظمة العمالية المسماة بالهستدروت.. وهي من أقوى الهيئات العمالية تنظيماً في العالم..

ويتبع هذه المنظمة العمالية جميع عمال إسرائيل سواء أكانوا زراعيين أم صناعيين كما يتبعها أهل الحرف في البلاد كالأطباء والممرضين والمدرسين والمهندسين وأساتذة الجامعات والعمال الذين يعملون في المحلات العامة..

وهذه المنظمة لعبة في يد بن جوريون الذي يتحكم فيها تماماً.. وبذلك يتحكم في إسرائيل كلها..

* والحقيقة التاسعة: أن الجميع في إسرائيل من بن جوريون إلى إيلي حدافي يعتبرون رجوع اللاجئين العرب إلى إسرائيل ضرباً من المحال..

وهم جميعاً يرون أنه يجب أن يستوطن هؤلاء اللاجئين في البلاد العربية نفسها.. في سوريا والعراق والأردن.. أو في شبه جزيرة سينا المصرية.

* والحقيقة العاشرة: أن مشروعات نهر الأردن الإسرائيلية لم تقف لحظة واحدة منذ قرار هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن.. وقد شاهدت بعيني النفق الذي كلفهم حوالي المليون جنيه وهو جزء من خطتهم لمشروعات النهر.. أهم جزء!.

وزرت منطقة الحولة المنزوعة السلاح.. ورأيت فيها إسرائيل تقوم بما يعارض قرارات الهدنة..

والمياه في إسرائيل هي حياتها.. إنهم يستغلون كل قطرة ماء ويزرعون بها الصحراء.. وقد رأيت الخزانات التي تجمع فيها الأمطار في مستعمرات النقب مبنية بحيث نواجه احتياجات الحرب فإذا دمر لخزان العلوي الذي يعلو سطح الأرض تسربت منه المياه أوتوماتيكياً إلى خزان آخر تحت سطح الأرض. والسبب في ذلك أن المدفعية المصرية أيام حرب 1948 كانت تركز ضربها على هذه الخزانات قبل أن تضرب

المستعمرات نفسها.

وهذا يبين مدى أهمية مشروعات تحويل نهر الأردن لإسرائيل.. إن أقل معنى لذلك هو تمكين إسرائيل من استيعاب خمسة ملايين يهودي من أنحاء العالم..

* أما الحقيقة الحادية عشرة: فهي أن إسرائيل نحاول أن تكون من أهم المناطق السياحية في الشرق الأوسط.. وقد بنت لهذا عدداً كبيراً من الفنادق الفخمة على امتداد ساحلها المطل على البحر الأبيض المتوسط.. وكثير من هذه الفنادق على جبل الكرمل في حيفا.. الذي ترتكز عليه إسرائيل في المضاربة السياحية ضد لبنان..

وللمضاربة ضد مصر انشأوا للسياحة وزارة تتبعها مباشرة جميع هذه الفنادق كما تنظم رحلات سياحية إلى جميع الأماكن الأثرية وكلها أو معظمها من آثار التاريخ اليهودي الذي يشرف عليها الجنرال بادين الذي قاد الجيش الإسرائيلي ضد العرب عام 1948.

ورغم الكآبة التي تجثم فوق تل أبيب فإن فيها مسارح وكباريهات ودور سينما فخمة جداً. ومعظمها كتب عليها كلمة مخصص للسياح.. أي ممنوع على الأهالي دخولها.

كما أن إسرائيل انشأت فرقة سمفونية تعد ثالث فرقة في العالم. وهي تقوم بالعزف حول العالم مرة في العام لجمع التبرعات لإسرائيل.. ولكنها تخصص شهرين كاملين للعزف في إسرائيل طوال أشهر السياحة هناك.

هذا عدد من الحقائق عن إسرائيل.. يجب أن يعرفها الجميع في البلاد العربية.. ليقدروا قوة العدو الدخيل في المنطقة.

## الفصل الثالث

# إسرائيل من الداخل

طوال وجودي في إسرائيل.. كنت أسمع أن إسرائيل هي البلد الديموقراطي الوحيد في الشرق الأوسط..

كلما قابلت زعيماً قال لي هذا الكلام.. وكلما قابلت سياسياً قال لي هذا الكلام..

إن في إسرائيل ثمانية عشر حزباً سياسياً.. فهل معنى هذا أنها بلد ديموقراطي؟.

أبداً..

إن مجرد وجود منظمة الهستدروت يلغي الديموقراطية.. إنها منظمة تبتلع في جوفها الأحزاب كلها. والبرلمان. والرجال.. وتحكم إسرائيل حكماً ديكتاتورياً عن طريق السيطرة على لقمة العيش!

وقد أراد مرافقي «الكسندر دوثان» أن يبرهن لي على أن إسرائيل بلد ديموقراطي. فقال إن المطران حكيم يصدر مجلته الشهرية باللغة العربية وهي تحمل اسم «الرابطة» ويدافع على صفحاتها عن العرب المقيمين في إسرائيل مهاجماً الحكومة الإسرائيلية..

وهذا كلام.. مجرد كلام.. فإن «الرابطة» لا يزيد توزيعها عن ألف نسخة في الشهر، ولا يقرأها إلا العرب وحدهم. وهي تطالب برفع الاضطهاد عن العرب، لا برد حقوقهم في وطنهم.

ولنتكلم عن أحزاب إسرائيل..

لقد أخذوني إلى «الكنيست» - برلمان إسرائيل - وهو يحتل مبنى كان المفروض أن يكون بنكاً، وتقرر أن يجتمع فيه البرلمان بصفة مؤقتة، إلى أن يعد له مبنى خاص..

وبجوار هذا المبنى، حديقة صغيرة أقيم فيها نصب كبير من الصلب يمثل شعار دولة إسرائيل.. الشمعدان ذا الفروع السبعة.. هذا النصب مهدي إلى إسرائيل من البرلمان الانجليزي رمزاً لصداقة الشعبين.. وقد نزلت إهداءه لجنة برلمانية كان يرأسها السير وينستون تشرشل بنفسه..

وطفت بالبناء.. بناء عادي لا شيء فيه.. بينما السكرتير الإداري للكنيست يشرح لي كيفية إدارة أعمال المجلس..

ويضم المجلس مائة وعشرين عضواً ينتخبون بالقائمة.. والكلام في المجلس باللغة العبرية ثم يترجم إلى العربية، ولكن عندما يحتدم النقاش يخرج الأعضاء عادة على النظام، ويتكلم كل منهم بلغته.. الانجليزية، أو الألمانية، أو الروسية أو «البيدية» لغة يهود أوروبا..

والأحزاب الممثلة في المجلس الحالي عددها ستة عشر حزباً من الثمانية عشر حزباً القائمة في إسرائيل... وأكبرها هو حزب «الماباي» الذي يرأسه بن جوريون، وهو الحزب الحاكم منذ عام 1948، أي منذ قيام دولة إسرائيل..

و«الماباي» اختصار لاسم: «حزب عمال أرض إسرائيل».. وجاء في مقدمة برنامج الحزب أنه: حزب صهيوني اشتراكي يهدف إلى جمع يعود العالم في دولة إسرائيل، وبناء الدولة على نظام اشتراكي يكفل الحرية الدينية والسياسية..

ومفروض أن مبادىء الحزب كلها مبادىء ديموقراطية... ولكن الواقع أن سيطرة بن جوريون على الحزب جعلت منه ديكتاتوراً، وبالتالي

مكنته من السيطرة على الهستدروت، ثم على إسرائيل كلها..

وحزب الماباي منقسم على نفسه داخلياً منذ مدة طويلة.. الأغلبية تتبع بن جوريون.. والأقلية تتبع شاريت والخلاف قائم حول السلطة.. أحدهما يريد أن يحتفظ بها والآخر يسعى إليها..

وآخر تطورات هذا الخلاف هو ما يدور حول نصب سكرتير الحزب.. شاريت يريد هذا المنصب لنفسه، على أن يظل محتفظاً بوزارة الخارجية، ولكن النظام الداخلي للحزب لا يخوّل لسكرتير الحزب الحق في أن يكون وزيراً..

وبن جوريون لا يريد شاريت سكرتيراً للحزب.. ويحاول أن يعين في هذا المنصب جولدا مايرسون، وهي - كما يصفونها هناك - ساعد بن جوريون الأيمن..

وما زالت المعركة مستمرة، وسلاحها نشر فضائح كل من الزعيمين..

وقد أثبت بن جوريون أنه فيلسوف ساخر، أو هو واثق من نفسه ومن قوته إلى حد أن يسخر من أعضاء الحزب كلهم ومن أعضاء البرلمان، ويقابلهم دائماً ببرود، ويرد عليهم في سخرية، وقد قال يوماً أنه يعرف ضعف النفس البشرية.. إنها نفس جبلت من طينة تقدس المادة وجمع المال!!..

وعندما قال له النائب «يوناكاسيه» أن ابنه «عاموس» يربح أموالاً بطرق غير مشروعة، ضحك بن جوريون وقال:

ما أخبث المادة.. إنها مغرية!!

وفضائح «عاموس بن جوريون» ترجع إلى أيام حرب فلسطين..

كان عاموس من كبار ضباط جيش الهاجانا وكان مسؤولاً عن الدفاع عن منطقة ناتانيا... وفي الوقت الذي قتل فيه عدد من أبناء زعماء

المنظمة الصهيونية أمثال يوسف شبرنساك رئيس الكنيست وإسحاق بن زفاي رئيس الدولة، واليعازر كايلان وزير المالية السابق، ودافيد ريمز وزير المواصلات السابق، وابن حاييم ويزمان مؤسس الدولة.. في هذا الوقت، والمعارك دائرة، نقل عاموس بن جوريون إلى منصب مدني.. منصب مدير البوليس في مركز «بتاح تكفا» بعيداً عن المعارك.. بعيداً جداً!!..

واستغل عاموس منصبه ليستولي على ما في القرى العربية من أموال ومتاع.. نهب كل ما في قرى فجه. وزتية. والخيرية. ورأس الروض. ومجدل الصادق. وغيرها من القرى الواقعة في حدود بتاح تكفا..

وهذه الأعمال.. أعمال النهب والسلب التي قام بها ضد العرب، جعلت منه بطلاً، وكانت سبباً في شهرته والإنعام عليه بالأوسمة، وترقيته ليصبح نائب القائد العام للشرطة..

ونقل إلى تل أبيب ويافا..

ولم تنقض مدة طويلة حتى أصبح عاموس. نائب مدير الشرطة. يملك أربعة بارات ومقاهٍ في يافا بالاشتراك مع ببخور شطريت وزير البوليس!!

وآخر فضيحة لعاموس هي أنه باع سيارات الجيش الإسرائيلي الجديدة على أنها قديمة. باعها إلى تاجر مغامر اسمه يركوني مقابل أن يتنازل له التاجر عن قصره الواقع في جبل الكرمل بحيفا..

وعاموس بن جوريون ابن رئيس وزراء إسرائيل، لا يزال يحمل الجنسية البريطانية. حتى اليوم..

وكل هذه المعلومات أنقلها لكم من صحف إسرائيل نفسها!

ولـ بن جوريون ابنة تقيم في رامات جان وتعمل في قيادة الجيش، وقد تزوجت أخيراً في احتفال كبير بلغت تكاليفه حوالي الخمسة عشر ألف

جنيه.. وأذاع راديو صوت إسرائيل تفاصيل حفلة عرسها بكاملها.. وكانت هذه هي المرة الأولى التي تُسخَّر فيها إذاعة الدولة لإذاعة حفلة زواج.

ويرتكز بن جوريون على اثنين:

إذا كان يأكل فهو تابع لاتحاد المستهلكين، وإذا لم يكن يأكل لحماً فهو تابع لاتحاد النباتيين، وهم كثرة في إسرائيل..

وإذا كان الإسرائيلي متديناً فهو تابع لجمعية «الدفاع عن السبت»، وإذا كان غير متدين فهو تابع لاتحاد الدفاع ضد الدين..

وقد شاهدت معركة قمعها البوليس، كان سببها أن المتدينين يطالبون بإغلاق معرض حيفا الصناعي يوم السبت، بينما يعارض غير المتدينين..

وهكذا.. كل شيء في إسرائيل له منظمة.. وإذا تصفحت دليل التليفون فإنك تجد 46 صفحة منه ملأى بأسماء هذه المنظمات التي يبلغ عددها حوالي 2500 منظمة!

وفي تل أبيب مكان يطلقون عليه «البرلمان» خصص لاجتماعات هذه المنظمات.. ويقع هذا «البرلمان» في الطرف الغربي من شارع «حانق روتشلد».. قطعة أرض واسعة يتجمهر فيها سكان تل أبيب ويافا يتناقشون في السياسة والاقتصاد والأسعار، وترتفع أصواتهم.. ثم فجأة تتحول المناقشات إلى قتال وتنقلب ساحة «البرلمان» إلى ساحة معارك بالأيدي والحجارة.. ويأتي البوليس ليفض المعركة.. لتبدأ من جديد في اليوم التالي..

وفي الصيف ينتقل مكان «البرلمان» أو هذه الاجتماعات إلى «حدائق لندن» على شاطىء البحر.. وهي حدائق تقع على صخور التل الذي أقيم فوقه فندق «دان هوتيل» الذي كنت أنزل فيه.

وكانت هذه الأرض التي أقيمت عليها الحديقة والفندق والميدان

المجاور واسمه ميدان «هربرت صمويل» ملكاً لشاب عربي اسمه عيسى دهمش، باعها لليهود بعد ليلة قمار..

وعيسى دهمش يعيش الآن في إسرائيل ومتزوج من فتاة إسرائيلية..

وعلى الرغم من أن إسرائيل منقسمة إلى كل هذه الدويلات، وهي دويلات مستقلة تماماً لها رعاياها ولها تقاليدها ولها مدارسها، بل ولها علمها ونشيدها الخاص.. فإن سكان إسرائيل كلهم متحدون في تعصبهم ضد البشرية كلها.. ضد الأديان كلها.. وضد الأجناس كلها.. وتجمعهم شهوة واحدة.. شهوة السيطرة على الدنيا..

والأمل الذي يقبع في قرارة نفس كل يهودي صهيوني هو دائماً أمل واحد.. ولكن الخلاف حول التنفيذ.. حول طريقة الوصول إلى تحقيق هذا الأمل..

وقد بدأ هذا الخلاف منذ وضع حاييم وايزمن في يده وعد بلفور..

ففي عام 1926 بدأ الخلاف وبدأ تاريخ الأحزاب.. أما قبل ذلك فقد كانت لليهود منظمة واحدة هي منظمة «الصهيونية العالمية».. وكانت لهم منظمة عسكرية واحدة هي منظمة «الهاجانا»..

في عام 1926 دب الخلاف في المنظمة الصهيونية العالمية وانقسمت إلى:

* منظمة وايزمن.

* منظمة جابوتنسكي، وهو زعيم عسكري متطرف..

ثم انقسمت منظمة الهاجانا إلى منظمة تحمل الاسم نفسه، وإلى منظمة «الأرجون».

وانقسمت منظمة الأرجون، وخرجت منها منظمة «الشيترن» أي «المحاربين الأحرار»..

وتعددت بعد ذلك أوجه الخلاف.. انقسموا إلى أحزاب، وكل حزب عاد وانقسم إلى أحزاب.. حتى الشيوعيون هناك انقسموا على بعضهم، فهناك أتباع تروتسكي، وأتباع تيتو، وأتباع بولجانين.. إلخ!!..

ومع أن اليهود يزعمون أن هتلر أباد ستة ملايين يهودي فإن بينهم من يقدس مبادئه وينادي بها.. بل إن حكومة إسرائيل طبقت هذه المبادىء على السكان العرب في عدة مناسبات تطبيقاً أعمى.

ونية إسرائيل العدوانية بدأت عندما وقف «جابوتنسكي» في قاعة المؤتمر الصهيوني عام 1926 يطالب باحتلال أرض إسرائيل على ضفتي الأردن وراح ينشد:

«إن للأردن ضفتين».

«هذه لنا وتلك لنا أيضاً».

وخاف المؤتمر من هذا الحماس الذي يكشف عن نية الصهيونيين فطردوا جابوتنسكي من المؤتمر..

وقد تكرر هذا الحادث عندما زرت القدس وأثناء حضوري المؤتمر الصهيوني الرابع والعشرين.. فقد وقف مناحيم بيجن الإرهابي يطالب بأرض إسرائيل على ضفتي الأردن، كما يطالب بإعلان الحرب على مصر. وانقلب المؤتمر إلى معركة كادت تتطور لولا رفع الجلسة.

ولم يطرد مناحيم بيجن من المؤتمر هذه المرة!..

وليس سراً أن معارك خفية كانت تدور بين منظمة الهاجانا ومنظمة الأرجون.. فموسى شاريت نفسه قاد حملة من رجال الجيش البريطاني ـ قبل حرب عام 1948 ـ لتطويق وكر كان يختبىء فيه أحد زعماء الأرجون..

وقام «الياهو جولدين» صهر شاريت بقيادة حملة من رجال البوليس والجيش لتطويق المنزل الذي كان يقيم فيه الدكتور شتيرن زعيم العصابة

المعروفة باسمه، وقتله من النافذة بمسدس بريطاني..

وعندما عارض زعماء الأرجون تعاون اليهود في فلسطين أمثال أبا إيبان وموشي ديان وغيرهم مع بريطانيا، قام «دافيد بن جوريون» بنفسه وطوّق المستعمرة التي كان يقيم فيها زعيم الأرجون «يعقوب ماريدور» واعتقله وسلمه إلى السلطات البريطانية التي نقلته إلى سجن القاهرة ثم إلى أريتريا.

ولم يتوقف هذا الصراع بين الأحزاب حتى بعد قيام دولة إسرائيل..

وقد روى لي الكنسدر دوثان قصة المعركة التي قتل فيها 150 يهودياً نتيجة لتطاحن منظمة الأرجون والهاجانا.. فقد وصلت إلى حيفا في يوليو عام 1948 باخرة تحمل سلاحاً باسم مناحيم بيجن زعيم الأرجون.. وطلبت منظمة المهاجانا التي أصبح اسمها الآن «الجيش الإسرائيلي» طلبت تسليم هذه الشحنة إليها. ولكن بيجن رفض.. وأمر بإغراق السلاح في عرض البحر. فحاولت الهاجانا منعه بالقوة ودارت بين المنظمتين معركة دموية انتهت بمقتل 150 يهودياً واندحار الأرجون والاستيلاء على شحنة السفينة «التالينا»..

وقد رأيت في القدس شباناً من اليهود لهم سوالف ألف ليلة ويلبسون دائماً قبعات.. وعندما سألت عنهم علمت أنهم يهود متدينون من طائفة «ناتوري كارتا» أي «حراس التوراة». وهم يحتلون معظم مدينة القدس الجديدة في حي ميشوريم.. وهم لا يعترفون بالصهيونية ولا بقيام دولة إسرائيل بل يؤمنون بأن قيام دولة على الديانة اليهودية والتعصب الديني كفر وزندقة.

وقد سرق بعض أتباع هذه الطائفة علم الدولة الموضوع على سيارة إسحاق بن زفي أثناء وجوده في إحدى دور السينما بالقدس.

والقدس.. على الرغم من إصرار حكومة إسرائيل على اعتبارها العاصمة إلا أنها في الواقع ليست العاصمة.. فالقدس مدينة هامدة ليس فيها حياة ولا نشاط ديبلوماسي أو اقتصادي، وكل وزارة من وزارات إسرائيل لها فرع رئيسي في تل أبيب العاصمة الفعلية وهذا النوع هو الذي يتولى جميع أعمال الوزارة فعلاً. أما مكاتب القدس فليس فيها إلا الوزراء الذين يقيمون في منازل كان أصحابها عرباً وهجروها.. بن جوريون نفسه يقيم في عمارة كانت دائرة الأوقاف العربية قد بنتها من صدقات المسلمين وتبرعاتهم..

## الفصل الرابع

# .. الأدب.. والفن هناك!..

أثناء وجودي في تل أبيب لاحظت أن السيارة كانت تمر دائماً في شارع رئيسي أكبر قليلاً من باقي شوارع تل أبيب.. وتقع فيه معظم المحلات ودور السينما..

أما اسمه فهو شارع بن يهودا.. الرجل الذي أحيا اللغة العبرية..

وبن يهودا هذا بدأ هو وزوجته منذ مدة طويلة الكلام والتفاهم باللغة العبرية عندما كانا يريدان التكلم أمام الضيوف بلغة لا يفهمونها.. وتطورت اللغة التي يستعملونها بإضافة بعض الكلمات العربية والتركية إليها حتى أصبحت هي اللغة التي يتكلمها يهود فلسطين..

وقد تبنت هذه اللغة الوكالة اليهودية.. وأعلنتها لغة رسمية للصهيونيين في العالم.

وعندما أصبحت إسرائيل دولة أصبحت لغة بن يهودا وزوجته التي كانا يتكلمان بها كلغة سرية. هي اللغة الرسمية للدولة القائمة على العنصرية..

ولم تجد إسرائيل وسيلة لتخليد بن يهودا إلا اطلاق اسمه على أكبر شوارع تل أبيب..

وقد أنشأت إسرائيل في سنة 1953 مجمعاً لغوياً يشبه المجمع اللغوي المصري تماماً.. وهو يضم 15 عضواً لهم حق الموافقة على إدخال بعض الكلمات الحديثة إلى اللغة العبرية كما أنهم يقومون حالياً بإنشاء قواعد نحوية للغة العبرية..

وجميع الكلمات الجديدة والقواعد النحوية التي يوافقون عليها تنشر في الجريدة الرسمية وتصبح رسمية على الجميع أن يعملوا بها..

وشارع بن يهودا يشبه شارع 26 يوليو في القاهرة، ولكنه يصغر عنه كثيراً.. ففيه معظم المحلات العامة كما تقع فيه معظم دور السينما أيضاً.. دور السينما تعرض أفلاماً أمريكية بعد دبلجتها إلى اللغة العبرية، وعملية الدوبلاج تتم في استديوهات الولايات المتحدة..

وقد لاحظت أمام إحدى هذه الدور في تل أبيب، ثم في القدس لافتة كبيرة مرسوم عليها صورة مارتين كارول نجمة السينما الفرنسية المعروفة.. وعندما سألت عن معنى الكلام قيل لي إنها ستحضر بنفسها حفلة افتتاح فيلمها الجديد عند عرضه في تل أبيب، ثم في القدس.

وقد علمت أن حضور الممثلين العالميين أول حفلات أفلامهم في إسرائيل أصبح أمراً عادياً بعد حضور عدد كبير منهم، فقد كان عدد هؤلاء النجوم حوالي العشرين في الأشهر الثلاثة الأولى من هذا العام.. أغلبهم من أمريكا وفرنسا!!..

وقد سألت عن عدد دور السينما في إسرائيل فقيل لي إنها مائة وخمسون داراً..

وسألت عن عدد دور السينما التي تعرض أفلاماً للعرب المقيمين هناك فقيل لي توجد دار واحدة تعرض بعض الأفلام الناطقة باللغة العربية.. وهذه الأفلام يجب أن تكون مصحوبة بالترجمة العبرية على نفس الشريط وتكون في هذه الحالة غير صالحة للتداول في البلاد العربية.. فيعاد تصديرها إلى بعض بلاد أمريكا الجنوبية التي يوجد فيها جاليات عربية..

وفي إحصاء رسمي للأفلام التي عرضت في العام الماضي اطلعت

عليه وجدت أن في رأس القائمة مائة وثمانين فيلماً أمريكياً تليها إيطاليا بواحد وأربعين فيلماً، ثم فرنسا بأربعة وثلاثينفيلماً فإنجلترا باثنين وثلاثين فيلماً فروسيا بثمانية أفلام فالمكسيك بأربعة ثم مصر «!!» بثلاثة أفلام.

والأفلام المصرية التي تعرض في إسرائيل معظمها أفلام غنائية وهي أفلام تباع نسخها إلى بعض المتعهدين في فرنسا وهناك يطبع منها سراً نسخ تباع إلى متعهدين في إسرائيل، الذين يقومون بطبع الترجمة العبرية عليها، وثمن نسخة الفيلم التي تباع إلى متعهدين في إسرائيل لا يزيد عن المائتي جنيه مصري..

والأفلام الثلاثة التي عرضت في إسرائيل في العام الماضي هي أفلام «الوردة البيضاء» تمثيل عبدالوهاب.. وفيلم «سلامة» لأم كلثوم وفيلم لفريد الأطرش نسيت اسمه ولكنه فيلم قديم على كل حال..

ونفس الشيء يصنعه راديو إسرائيل أو «صوت إسرائيل» فهو يسرق الأغاني الجديدة من مصر والبلاد العربية وذلك بتسجيلها عن طريق محطات الإذاعة العربية، ثم يذيعونها من محطتهم..

ولا يستطيع الفنانون العرب أن يأخذوا حق الأداء العلني عن طريق الجمعية الدولية للمؤلفين.. وإلا أصبحوا معترفين ومتعاملين مع إسرائيل.

وفي إسرائيل استديو سينمائي واحد، يقع بالقرب من تل أبيب على الطريق الموصل منها إلى حيفا.. وهذا الاستديو أقامه مخرج سينمائي أمريكي بمناسبة تصوير فيلم له في إسرائيل وقد قدمه بجميع آلاته ومعداته كهدية منه ومن شركته الكبيرة إلى إسرائيل.

وفي هذا الاستديو تم إخراج فيلمين طويلين و52 جريدة عام 1955. وهو الآن مخصص للجريدة السينمائية فقط.

ومعظم هذه الأفلام أفلام عن حرب عام 1948 و هي تذكير للإسرائيليين بما سيواجههم يوماً ما.

أثناء وجودي في حيفا دعيت إلى حفلة تقيمها البلدية في الماء بمناسبة حضور داني كاي. وهذه الحفلة مخصصة لأطفال حيفا والمناطق المجاورة.

وقبل الذهاب بأقل من عشر دقائق حضر مرافقي واعتذر لي عن عدم الذهاب، لشعوره بالصداع أولاً ولأنه يريد أن يأخذني إلى جبل الكرمل لرؤية حيفا في الليل منه، واستنشاق بعض الهواء الجاف هناك.

ولم أقبل هذه الحجج بسهولة لأني تعلمت طوال وجودي في إسرائيل أن وراء كل ابتسامة شيئاً، ووراء كل اعتذار شيئاً ووراء كل كلمة شيئاً...

وقد علمت في اليوم التالي أن الحفلة التي خصصتها مؤسسة اليونيسيف للأطفال، هي مؤسسة حماية الأطفال التابعة لهيئة الأمم . وهي المؤسسة التي أرسلت داني كاي كسفير لها للأطفال ـ أصبحت حفلة مخصصة لكبار الموظفين وزوجاتهم وأولادهم. أما الأطفال الذين حضر من أجلهم داني كاي فقد منعوا من دخول المكان المخصص لهم والذي احتله كبار الموظفين وعائلاتهم. كما علمت أن معظم الأطفال الذين حضروا ومنعوا من الدخول باع أهلهم التذاكر التي حصلوا عليها أو أخذوها لأنفسهم..

وقد اضطر داني كاي إلى مغادرة الحفلة لأن عدد الأطفال كان صغيراً جداً بالنسبة إلى الكبار..

وتكرر نفس الشيء في تل أبيب.. ثم في القدس..

وكانت هذه فضيحة ومثار تعليقات داني كاي نفسه..

وفي إسرائيل أربع فرق للتمثيل.. ثلاث منها فرق درام وواحدة

للأوبريت.. أي المسرحيات الغنائية الخفيفة..

ومعظم الفرق المحترفة تقوم بتمثيل مسرحيات مترجمة.. فقد قامت هذه الفرق بتمثيل ثلاث مسرحيات ألفها يهود وخمس مترجمة..

والمسرحيات المترجمة كانت لمؤلفين معظمهم أمريكيين كتمثيلية «محاكمة كاين» لهرمان ورك ومسرحية لآرثر ميللر وأخرى لروجر ماكدوجل.

كما قاموا بتمثيل مسرحية البطة البرية لأيسن والجنة الحية لتولستوي..

ولم أشاهد أياً من هذه المسرحيات لأني لا أفهم العبرية.. على الرغم من تطوع الكساندر دوثان بترجمة كل كلمة..

ولكني شاهدت مسرحية غنائية قامت بتمثيلها فرقة «دو ري مي» ولم أفهم شيئاً غير الموسيقى نفسها وهي موسيقى متأثرة بالموسيقى الأوروبية والأمريكية مع بعض التواشيح أو ما يشبه التواشيح الدينية عندنا..

وجميع المسارح موجودة في تل أبيب.. يذهب إليها كل من يرغب في مشاهدة مسرحية أو أوبريت..

وتقوم إسرائيل الآن بترجمة عدد كبير من الكتب إلى اللغة العبرية.. وقد شاهدت في واجهة إحدى المحلات عدداً كبيراً من الكتب العبرية مع لافتات عليها صور توفيق الحكيم وطه حسين ومحمود تيمور ويوسف السباعي وإحسان عبدالقدوس..

وقد علمت أن معظم الكتب المصرية الجديدة تقوم إسرائيل بترجمتها إلى اللغة العبرية...

والذي يشرف على هذه الترجمة اسمه البروفيسير جويتين مدير قسم اللغات الشرقية بالجامعة العبرية بالقدس... وهو. أي البروفيسير

جويتين ـ صديق شخصي لمعظم كتاب مصر والبلاد العربية القدامى..

وقد زرته في منزله في القدس.. يقع بالقرب من منزل بن جوريون.. وشاهدته في مكتبه المليء بالكتب العربية..

وسألني عن المؤلفين والكتاب العرب الذين أعرفهم فنفيت معرفتي بأي واحد منهم سوى طه حسين الذي قرأت عنه في «الريدرز دايجست»..

فضحك وقال إنه يستطيع أن يذكر عدداً كبيراً من الأسماء لا تقل عن خمسين.. معظمهم أصدقاء له.. منها محمود تيمور وتوفيق الحكيم والدكتور حسن إبراهيم حسن..

وقام من مكتبه ليريني بعض الكتب وعليها تواريخ قديمة قبل عام 1948 ـ وعليها إهداء مؤلفيها الكبار المصريين والعرب..

كما أراني مجموعة من الكتب والقصص المصرية التي صدرت حديثاً جداً..

وقد فاجأني قائلاً: إنه يعيش منذ ثلاثة أشهر في مصر..

وسألته وأنا أخفي دهشتي.. كيف؟..

فقال لي إنه يقوم بتأليف كتاب عن اللغة العربية على مر الأجيال.. وهو الأن يقرأ، ويكتب عن اللغة العربية في مصر في الأحقاب المختلفة..

كما قال لي إنه توقف عن تكملة تحقيق كتاب «أنساب الأشراف» عندما علم أن الجامعة العربية في القاهرة قد اختارت هذا الكتاب من ضمن الكتب التي يشرف على إصدارها الدكتور طه حسين..

وعندما علم البروفيسير جويتين بأنني سأقوم بزيارة بعض البلاد العربية طلب مني أن أقوم بالاتصال بكاتب عربي معروف واسأله أن يختار قائمة بالكتب والمطبوعات العربية.. وخاصة من مصر وإرسالها إليه حتى يقوم بإحضارها..

وقد سألته عن الطريقة التي يحضر بها هذه الكتب، فقال إنها في منتهى البساطة.. فهنالك أناس في إسرائيل يستطيعون التسلل من إسرائيل إلى إحدى البلاد العربية وهناك يستطيعون شراء أي مطبوعات. وبهذه الطريقة يحصل على معظم الجرائد والمجلات والكتب المصرية وباقي الكتب والمجلات العربية..

ويقوم هؤلاء الأشخاص برحلتهم يومياً.. وبطريقة مشروعة وقد رفض أن يذكر لي عما إذا كان هؤلاء الأشخاص يحملون جوازات إسرائيلية أم لا..

وقد سألت البروفيسير عن عدد طلابه في قسم اللغة العربية الذي يدرّس فيه فقال إنه ليس بالكثير ولا بالقليل.. ولكن معظم خريجيه يعيّنون فوراً في وزارة الخارجية الإسرائيلية.. مثل الكسندر دوثان مرافقي، وهو فخور جداً به لأن الكسندر يعتبر الحجة الأولى في الآثار الإسلامية في إسرائيل. وقد سافر إلى مصر عام 1946 خصيصاً ليرى بنفسه مقياس النيل عند الروضة وكان قد قدم بحثاً عنه..

## الفصل الخامس

# يهود مصر.. في إسرائيل!

عشت في إسرائيل أحد عشر يوماً.. عشت في المدن الإسرائيلية.. عشت في تل أبيب وحيفا وبئر سبع والقدس الإسرائيلية ويطلقون عليها دائماً اسم أورشليم..

وإسرائيل تحاول دائماً أن تجعل من كل هذه المدن. ما عدا القدس. نسخاً طبق الأصل من المدن الأمريكية.

فتل أبيب بعد اندماجها بيافا العربية. وأصبح اسمها تل أبيب يافو. أي تل أبيب الجميل. نموذج من مدن ولاية كاليفورنيا الأمريكية.. والفنادق الحديثة المبنية فيها صورة مصغرة للفنادق الكبيرة الأمريكية.

إن إسرائيل تريد أن تقنع نفسها وتقنع الناس. خصوصاً الأمريكان. إنها الولاية التاسعة والأربعون من الولايات الأمريكية المتحدة!..

أما القدس أو أورشليم فتحاول إسرائيل أن تبعثها في صورة المدينة الدينية التاريخية.. وقد أصدرت الحكومة الإسرائيلية قانوناً بمنع بناء المنازل هناك إلا المنازل المبنية بالصخر الأبيض المشهورة به المدينة.. حتى تحتفظ بطابعها..

في المدن.. عشت في أفخم فنادق إسرائيل.. فأقمت في فندق دان هوتيل.. أحدث وأفخم فنادق تل أبيب.. وبالتالي إسرائيل كلها.. كل حجرة في الفندق بها آلة تكييف هواء خاصة بها وحدها.. وحمام به أشعة فوق البنفسجية في كل حجرة.. وكل حجرة مزودة بآلة راديو.

قابلت داني كاي!!..

ما أقمت مرة أخرى أثناء مروري بتل أبيب بفندق «رامات أفيف».. وهو فندق يقع خارج تل أبيب على الطريق بينها وبين حيفا.. وهو مبني على طراز فنادق أمريكا المسماة «بالموتيل» أي فنادق الطريق ويقيم نزلاؤه في «بنجالو» أي أكواخ منفصلة الواحدة عن الأخرى تماماً. وتقع كلها حول حوض كبير للسباحة.. وكان يقيم معي في نفس الفندق الممثل الأمريكي داني كاي..

وفي حيفا نزلت في فندق «زبون» أحدث فنادق حيفا، ويطل على ميناء حيفا من ناحية وعلى جبال الكرمل من ناحية أخرى.. ونزل معي أيضاً داني كاي أثناء زيارته الخاطفة لحيفا..

والعجيب أنني كنت دائماً أسبق داني كاي بساعات قليلة طوال زيارتي لإسرائيل.. فقد كنت في بلدة الطيرة العربية قبل وصوله بساعات ثم حيفا ثم القدس ثم بئر سبع..

والفنادق الفاخرة لا يرتادها سكان إسرائيل أنفسهم.. إنها «واجهة» براقة فقط للتأثير على الأجانب الذين يزورون إسرائيل.. سواء كانوا صحفيين أو ساسة أو فنانين أو سائحين عاديين.. أو من مراقبي الهدنة!!..

وإسرائيل تعيش على أمل واحد.. هو الصلح مع العرب. فلا المساعدات الأمريكية ولا أي شيء سوف يضمن لها الحياة «الدائمة» إلا الصلح مع العرب. وهي تستعد لهذا اليوم! ومن استعداداتها اهتمامها بالسياحة، تريد بذلك أن تخنق مدناً سياحية أخرى مثل بيروت وسائر المدن اللبنانية!..

إنها أحوج إلى «استغفال» العرب منها إلى استغفال أمريكا!.. وما يتلف أعصابها الآن هو أن العرب لم يعودوا مغفلين!!

وفي بئر سبع تحاول إسرائيل الآن إنشاء مدينة حديثة تكون عاصمة للنقب. نزلت في هوستيل «هياس».. و«الهوستيل» معناه: فندق بدون خدمة.. أي يقوم كل مقيم فيه بخدمة نفسه. وفي كل حجرة يوجد مطبخ صغير بالكهرباء ليقوم النازل فيه بطبخ غذائه. وفي هذا الهوستيل يقيم معظم ضباط مراقبي هيئة الأمم المتحدة..

وقد أقيمت في هذا الهوستيل حفلة شاي لأعضاء المؤتمر الصهيوني الرابع والعشرين. أشرف على الخدمة فيها جنود وجنديات الجيش الإسرائيلي تحت رئاسة ضابطة برتبة ميجور.. وذلك بعد أن رفضت مديرة الهوستيل الألمانية أن تشرف على الخدمة لأن هذا يتعارض مع قوانين الهوستيل..

وفي القدس نزلت في فندق الملك دافيد وهو الفندق المحبب لجميع رجال الصحافة الأجانب. كما تناولت الغداء والعشاء في عدة فنادق أخرى. ومن هذه الفنادق.. فندق برزدنتال.. وهو أحدث فندق في القدس وينزل فيه زوار إسرائيل من اليهود المتدينين.

وقد حضرت هناك حفلة عشاء ليلة سبت ـ أي مساء يوم الجمعة ـ وهي الليلة المقدسة في إسرائيل.. وكان العشاء دينياً يطلق عليه اسم «كيشير» واسم العشاء نفسه «أروحات للشابات» أي العشاء الروحي ليوم السبت.

وأثناء العشاء وقف وكيل وزارة الشؤون الدينية ـ والشؤون الدينية لها وزارة هناك ـ فخطب باللغة الليبدية وهي لغة يهود أوروبا.. ثم بدأ الغناء الديني وأغاني اليهود الدينية تشبه التواشيح الدينية عندنا إلى حد بعيد..

ويجب على الجميع ـ أثناء تناولهم العشاء ـ أن يلبسوا الغطاء الديني للرأس وهو يشبه إلى حد بعيد الطاقية البلدية المصرية تماماً.

وزرت رامات جان.. وهي مستعمرة قديمة أصبحت مدينة صغيرة

كانت المكان المفضل للمرحومة أسمهان عندما كانت تمر بفلسطين قبل الحرب.

وأسعار الفنادق في إسرائيل مرتفعة جداً. ويكفي أن تعلم أنني دفعت 96 جنيهاً إسرائيلياً في يومين في فندق دان هوتيل.. والجنيه المصري حوالي الخمسة جنيهات إسرائيلة. أي أنني دفعت حوالي العشرين جنيهاً مصرياً.

وأما الـ10 بالمئة التي تدفع في كل حساب فلا يحصلها الجرسونات أنفسهم، وإنما تحصلها الحكومة لشراء السلاح..

وتكاليف الحياة عموماً في المدن الإسرائيلية مرتفعة جداً.. والإيجارات غالية جداً.. وذلك بسبب الأزمة الاقتصادية الناتجة عن مقاطعة الدول العربية لإسرائيل.. إن إسرائيل ـ اقتصادياً ـ بسبب المقاطعة.. كالإنسان الذي يجب أن يتنفس بقدر، وينتظر أن يفسد جو الحجرة المغلقة عليه في أي لحظة، ويختنق!.

وقد ذكرني ما نشر عن أنباء المظاهرات في منطقة حيفا الصناعية بما حدث ليلة وصولي إلى تلك المنطقة فقد شاهدت اشتباكاً بين البوليس وبين بعض الأهالي الذين عرفت فيما بعد أنم كانوا من العمال الذين وفرتهم المصانع الإسرائيلية.

والعجيب أنني سمعت ليلتها راديو القاهرة يذيع نبأ هذه المظاهرات وذكر أن عدد الجرحى كان ستة عشر..

وقد أخبرت مرافقي الكساندر دوثان بما قاله راديو القاهرة فسأل بدوره أبا حوش عمدة حيفا وهو متأكد من أن العمدة سينفي هذه الواقعة ولكن العمدة اعترف بما أذاعه راديو القاهرة وعدد الجرحى..

وإسرائيل ـ اقصد الحياة هناك ـ تقف تماماً ابتداء من الساعة

الواحدة والنصف يوم الجمعة إلى مساء يوم السبت.. فتقفل المحلات العامة والبنوك والوزارات المختلفة وتقف حركة السيارات العامة أيضاً.. وتبدو الشوارع خالية تماماً من الناس..

ثم تعود الحياة تدريجياً بحلول مساء السبت وأسبوع إسرائيل يبدأ يوم الأحد وليس يوم الاثنين..

وعشت يوماً في المستعمرة التعاونية في كفار فيتكين في منطقة أميك هيفر.. وهذه المستعمرة أسست منذ خمسة وعشرين عاماً على أرض كانت تملكها عائلة سرسق اللبنانية وباعتها إلى جمعية يهودية كندية سلمتها بالتالي إلى منظمة الكيرين كايميث، أي الصندوق الوطني، وهو صندوق، الفرض منه شراء الأراضي من العرب بواسطة الأموال التي يجمعها من يهود العالم.. وأرض هذه المستعمرة تملكها الحكومة والوكالة اليهودية وقد تأسس هذا الصندوق عام 1902 بالضبط.

# مستعمرة كفار فيتكين

وكان دليلي عندما زرت مدرسة هذه المستعمرة فتاة تتكلم الانجليزية بطلاقة.. وعندما سألتها أين تعلمت الانجليزية قالت لي إنها تعلمت في القاهرة في كلية بنات معروفة باسم الكلية الأمريكية للبنات وتخرجت من الجامعة الأمريكية في القاهرة أيضاً. وقالت إنها كانت من سكان منطقة في القاهرة يطلقون عليها اسم السكاكيني والظاهر.

وفي هذه المستعمرة قال لي يوخانا سيمون أشهر رسامي إسرائيل إنه ككل فرد في إسرائيل يعتبر الحرب مع العرب وخاصة مع مصر قضاء على كل ما يقيمونه ولذلك فإنهم لا يرغبون في الحرب..

أما عن مناحيم بيجن فقد قال الجميع إنه «غاوي كلام» فقط وليس له أهمية بتاتاً..

وهذه المستعمرة أقيمت من أموال البارون روتشلد الذي ساهم في إنشاء سبع وأربعين مستعمرة ومنشأة في تل أبيب وحيفا والقدس وصفد وطبريا.

وقد دفن في حديقة كبيرة تحمل اسمه وتطل على البحر في «رامات ناديف» أي «مكان الكريم» بالقرب من قرية زيخرون يعقوب.

وفي القدس دعيت إلى منزل أحد مستشاري رئيس الوزراء ووزير الخارجية.. وهناك قدم إليَّ مصري سابق اسمه إميل النجار وكان إلى مدة قصيرة يحمل جنسية مصرية وكان يعمل كمحام في محكمة الاستئناف العالي.

وفي شقته وجدت عدة لوحات مصرية منها لوحة رسمها له الأستاذ كامل التلمساني، واشتراها بخمسة جنيهات مصرية، واللوحة اسمها الأزرق.

واميل النجار كان عضواً في الوفد الإسرائيلي إلى هيئة الأمم المتحدة قبل أن يسحبوا منه جنسيته المصرية.. وما زال يملك جواز سفره المصري المؤشر عليه بتصريح من وزارة الداخلية المصرية بالسماح له بحضور المؤتمر لصهيوني في سويسرا كمراقب، وتاريخ التأشيرة عام 1947!!..

# علي سالم ورحلة إلى إسرائيل

## (1994)

كاتب ومسرحي مصري وُلد عام 1936م تشمل أعماله 15 كتاباً و27 مسرحية أغلبها روايات ومسرحيات كوميدية وهجائية. كما نشر تعليقات وآراء سياسية خاصة بشأن السياسة المصرية والعلاقات بين العالم العربي وإسرائيل.

في 1963 كتب مسرحيته الأولى، «الناس اللي في السماء الثامنة»، وفي مسرحية تروي حكاية كوكب يخضع لسيطرة ملك وطاقم من العلماء الذين يؤمنون بأن الحب مرض يجب علاجه بإزالة «غدد الحب» من أجسام الأطفال. وينظم الواقعون بالحب انقلاباً برئاسة وزير الطب لتلك المملكة.

ومن مسرحياته التي تتسم بالنقد السياسي اللاذع مسرحية «الرجل اللي ضحك على الملائكة» (1966). «أنت اللي قتلت الوحش . كوميديا أوديب» (1970). أما المسرحية التي اشتهر بها في أنحاء العالم العربي فهي «مدرسة المشاغبين» (1971) التي تروي حكاية معلمة للفلسفة تحاول تأديب صف من الطلبة المشاغبين.

أبرز علي سالم دعمه للمبادرة السلمية التي قام بها الرئيس المصري محمد أنور السادات في نوفمبر 1977 بشأن السلام بين العرب وإسرائيل. ولكنه لم يزر إسرائيل حتى سنة 1994 بعد التوقيع على اتفاقية أوسلو الأولى. سرد سالم أحداث رحلته ولقاءاته مع إسرائيليين في كتاب «رحلة إلى إسرائيل. وبعد صدوره في مصر تم ترجمة الكتاب إلى اللغتين العبرية والإنجليزية.

منذ زيارته إلى إسرائيل كان سالم من أشد المؤيدين للتطبيع مع إسرائيل ولم يتنازل عن موقفه هذا بالرغم من الإدانات التي نشرت ضده في الصحف والمجلات المصرية والتي انتهت بمحاولة لطرده من جمعية الأدباء المصرية وقد فشلت المحاولة لأسباب قضائية. ولكن الأجواء العدائية تجاه سالم ما زالت سائدة بين عدد من زملائه.

من أعماله:

* الناس اللي في السماء الثامنة (1963)
* ولا العفاريت الزرق (1965)
* الرجل اللي ضحك على الملائكة (1966)
* أغنية على الممر (1968)
* أنت اللي قتلت الوحش. كوميديا أوديب (1969)
* مدرسة المشاغبين (1971)
* البوفيه
* عفاريت مصر الجديدة
* أولادنا في لندن (1975)
* بكالوريوس في حكم الشعوب (1978)
* الكلاب وصلت المطار (1985)
* حكايتي مع إيفا (1993)
* رحلة إلى إسرائيل (1996)
* هل لديك أقوال أخرى؟ (1999)

# مصري قادم من مصر

الطريق من الفردان إلى العريش طويل وموحش. راديو السيارة لا يعمل. وحدي لا يصاحبني سوى اضطرابي ولا يؤنسني سوى صوت الموتور المزعج. أجزاء طويلة من الطريق وأنا وحدي، لا سيارة تتخطاني ولا أخرى تقابلني. الطبيعة جافة. لن يسعفني أحد إذا تعطلت هنا. لا أمل حتى في وجود قاطع طريق.

أنا مجهد. منذ الصباح وأنا أتحرك هنا وهناك لاستكمال ما ينقصني. غيرت زيت الموتور. ضبطت هواء الإطارات. القاهرة مزدحمة. ركنت السيارة وبها حقائبي في الجراج المواجهة لأتيليه الكتاب والفنانين بوسط المدينة وذهبت لشراء بدلة. أنا في حاجة أيضاً لعدة للسيارة. لا داعي. لن أستطيع استخدامها إذا تعطلت. على الأقل أشتري مثلثاً أحمر. أضعه على مقربة من السيارة لتنبيه الآخرين. لا داعي. قلبي يحدثني أن سيارتي لن تتعطل. لا بد أنها على وعي بظروفي الحرجة. كما أنني أثق بالأسطى عثمان الميكانيكي. الأب الروحي لسيارتي النيفا الخضراء. التي أعتبرها أقوى ما تبقى من الاتحاد السوفيتي. قام عثمان بعمل عمرة كاملة للموتور. طلبت منه أن يستبدل أي جزء فيها يشك بصلاحيته.

▪ عثمان.. أريدك أن تؤهل هذه السيارة لمشوار طويل..

- إلى أين أنت ذاهب؟

▪ إلى إسرائيل.

* * *

في نهاية عام 1993 وبعد إعلان اتفاقية أوسلو مباشرة بين الإسرائيليين والفلسطينيين أعلنت أنني أفكر في زيارة إسرائيل بسيارتي لتأليف كتاب يجيب على سؤالين: من هم هؤلاء القوم، وماذا يفعلون؟

ونشرت مقالاً في مجلة الشباب بعنوان: السلام الآن. كنت أرى أن الاتفاق بين الفلسطينيين والإسرائيليين يشكل لحظة نادرة في التاريخ، إنها لحظة اعتراف الأنا بالآخر، أنا موجود، وأنت أيضاً موجود، الحياة من حقي وهي أيضاً من حقك، هو طريق شاق طويل محطته النهائية، الحرية، وحقوق الإنسان الفرد، وهو بالطبع لن يكون مفروشاً بالورود ولكن بالنضال والصبر. غير أن الحديث عن السلام ليس كافياً لصنعه، لا بد أن نتقدم نحن لتجسيده بالفعل وليس بالكلمات.

أنا مجهد جداً وما زال الطريق إلى العريش طويلاً، خرجت من وسط القاهرة في الثالثة بعد الظهر وتمكنت من الوصول إلى أول طريق الإسماعيلية بعد ساعة كاملة، حصلت على تأشيرة الدخول إلى إسرائيل في دقائق من السفارة، سألني يعقوب سيتي الملحق الإعلامي: هل تريد أن تزور جهة معينة أو شخصيات معينة؟

- سيدي، سأسافر بسيارتي وفي جيبي نقودي، أريد أن أرى إسرائيل بعيني أنا.

على الأرجح هو يهودي من أصول مصرية فقد تكلم معي بالعامية المصرية، من الواضح أنه لم يتعلمها بل تربى عليها، عرفت فيما بعد أنه من أصول عراقية. غاب لدقائق ثم عاد ليقول: السفير في اجتماع الآن، أبلغناه أنك جئت للحصول على تأشيرة وهو يبلغك أنه يريد أن يراك لخمس دقائق بعد عودتك.

■ بكل سرور.

ـ كما اتصلت بمنفذ رفح.. هناك مبلغ ستدفعه تأميناً للسيارة.

■ كم؟

ـ عدة مئات من الدولارات.

في الغالب يعقوب فهم خطأ المبلغ المطلوب. اتضح أنه أقل من مائة دولار. لا أستطيع وصف القنصلية بالفخامة ولكن أول انطباع لي كان سرعة الإيقاع. لقد غاب عني يعقوب عشر دقائق فقط كانت كافية لإعداد التأشيرة وإرسال ورقة للسفير داخل الاجتماع وتلقى الرد عليها بالإضافة للاتصال تليفونياً بنقطة الحدود في رفح وإجراء مكالمة سريعة معهم.

الإجراء الوحيد المطلوب من الجانب المصري لخروج سيارة من الحدود المصرية هو الحصول على الاستمارة 126 من إدارة الجمارك. وهي استمارة تكتب بها كل تفاصيل السيارة. مع كتابة تعهد بأن تعود بالسيارة مرة أخرى أو تصبح مطالباً بدفع ثمنها للحكومة المصرية. وثمن سيارتي كما حددته الجمارك هو 17 ألف جنيه.

سيارتي. اشتريتها بِحُرّ مالي. ولقد حصّلت الحكومة المصرية الجمارك المفروضة عليها. هي سيارتي مثل بنطلوني وحذائي وساعتي. من حقي أن أذهب بها للجحيم وأن أفعل بها ما أشاء.

لا.. إنها جزء من الثروة القومية لمصر. هو إجراء متبقٍّ من الحكم الشمولي الذي يرى الأشياء والبشر جزءاً من الثروة القومية للحكومة. أقصد للدولة. أقصد للشعب. وهو في الغالب إجراء لضمان عودتك أنت ما زال معمولاً به منذ ذلك الوقت الذي كان ذهابك فيه إلى المطار وركوب طائرة يتطلب موافقة رئيس الوزراء.

في طريقي لجمرك السيارات بمدينة نصر تهت وأنا أقود سيارتي فلم أتنبه لمدخل الكوبري الصحيح. بدأت أدور في الشوارع في حالة غريبة من

السرحان. فشل عدة مرات في اتخاذ الطريق المؤدي لمدينة نصر. هنا بدأت أتنبه للمقاومة العنيفة التي يبديها اللاوعي عندي لمقاومة الرحلة. لا بد أن جهازيّ النفسي والعصبي ممتلئان بالخوف والكراهية. بالوعي أنا أريد الذهاب إلى هناك، وباللاوعي أنا رافض الذهاب. هو تراث ثقيل بطول العمر من الكراهية والعداوة.

هذا هو ما جعلني أتمسك بالسفر بالسيارة. إذا سافرت بالطائرة فسأجد نفسي هناك فجأة، وأنا أخشى هذه الفجائية. هناك ضابط من حرس الرئيس السادات توفى بهبوط حاد في القلب بعد وصوله إلى القدس في المبادرة، واتفقت كل وكالات الأنباء على إخفاء الخبر. أنا أعتقد أن الوعي عنده فشل في إقناع اللاوعي بالواقع الجديد، كانت الكراهية بداخله أكبر من أن يروّضها جهازه العصبي.

سألني مسؤول الجمارك: ما هي الجهة التي تعمل بها؟

- لا أعمل في أي جهة.. ولا أتبع أي هيئة.. أنا كاتب حر.

■ بالطبع أنت تكتب في جريدة أو مجلة.

- نعم.. في مجلة كاريكاتير.

■ خلاص دعهم يكتبوا تعهداً بأنهم يضمنون عودة السيارة.

انصرفت حزيناً من الجمارك، كيف أطلب من أصحاب المجلة أن يكتبوا تعهداً بضمان عودة سيارتي؟ هذه مغامرتي وحدي، أتحمل وحدي مسؤوليتي عنها.. ما هو الحل؟

لماذا تذهب لمسؤول كبير؟ أذهب للموظف الصغير المختص بالعملية، اتضح أنه لا يوجد مشكلة، المطلوب فقط هو أن أكتب هذا التعهد، حسناً هذا هو التعهد، ولكن لماذا قال لي المسؤول الكبير ذلك؟ لماذا طلب مني أن آتي بتعهد من جهة أو هيئة أو مؤسسة أو شركة؟

الواقع أنه من الصعب على القيادات الحكومية الاعتراف بأن هناك إنساناً فرداً، الحياة ليست مكونة من أفراد وحقوق أفراد. بل هي معان كلية، وزارات ومؤسسات وادارات وهيئات وموظفون هم في النهاية تروس صغيرة تدور في الماكينة الكبيرة، من الصعب عليهم تصور أن الحياة ليست كلها قطاعاً عاماً، وبذلك تنتفي مسؤولية الأفراد وتنعدم حريتهم بالإضافة طبعاً لعدم تعاطفه مع فكرة ذهابي لإسرائيل. هو مثلي ممتلىء بالكراهية ولكنه يتصور أنني في رحلة حب وليس في محاولة جادة للتخلص من هذه الكراهية، سألته عندما أحضر هذا التعهد من إدارة المجلة: ألن تطلبوا مني خطاب ضمان مالي من البنك؟

أجاب باقتضاب: هذا التعهد لا ينفي أي إجراء آخر مطلوب.

الإجابة غامضة، هو لم يجب بنعم أو لا.. هو فقط حاول أن يوحي لي بأن مشكلتي كبيرة ومعقدة.. الواقع أنه ليس مطلوباً مني سوى هذا التعهد فقط.

كان الطريق موحشاً وزادته الظلمة وحشة.. أنا مجهد وما زال الطريق إلى العريش طويلاً.

* * *

العريش تقترب، هناك محطة بنزين في أول المدينة، أعدت ملء السيارة بالوقود، ثم واصلت طريقي، العريش تكاد تكون خالية من الغرباء في ذلك الوقت من السنة، صالة واسعة مضاءة لأحد الفنادق، هو فندق سميراميس، دخلت الفندق، طلبت أسرتي في القاهرة، ردت عليَّ ابنتي الصغرى: منى.. أنا أكلمك من داخل مصر.

ـ من أين داخل مصر؟

▪ من العريش.. غداً صباحاً سأذهب إلى إسرائيل.

فصرخت: من غير ما تقول لنا؟

ـ أنا آسف.. هأنذا أقول لكم.. تأكدوا أنني بخير.. اطمئنوا عليّ.

فتمالكت أعصابها وقالت: طيب يا بابا.. تروح وتيجي بالسلامة.

المكالمة التليفونية زادت من اكتئابي وجعلتني أكثر توتراً. أعرف أنني أسبب لبناتي ولزوجتي قدراً كبيراً من الألم والخوف، ولكني كنت على وعي بأن مصارحتهن بقرار سفري كانت ستسفر عن صدام عصبي يجردني في أفضل الأحوال من التماسك النفسي اللازم للرحلة. من الصعب- إن لم يكن من المستحيل- أن نمضي إلى الأمام في هذه الحياة دون أن نُشعر من نحبهم بقدر من الألم.

تجولت في شوارع العريش بحثاً عن صيدلية. اشتريت أدوات حلاقة ومعجون أسنان وفرشاة. هل ينقصني شيء؟ نعم.. أقراص «نوفلو» المضادة للبرد. هي تريحني بل إنني أستخدمها أحياناً كمهدىء. أنا جائع. هناك مقهى ومطعم متلاصقان على الشارع. تناولت عشائي، فول وطعمية. هناك جهازان للتلفزيون، وضعا متجاورين يفصل بينهما عدة أمتار. أحدهما يعرض فيلماً أجنبياً. والآخر برامج التليفزيون. الصورة سيئة في الفيلم وأشد سوءاً في البرامج. والصوت مشوش مرتفع.. ضجيج.. ضجيج حقيقي. والناس على الرصيف يحدقون في الجهازين في صمت مستمتعين بالضجيج.

شعرت بالرغبة في دخول الحمام. أجِّل ذلك إلى أن تعود إلى الفندق. الفندق قريب.. لا.. لن أستطيع. لحسن الحظ وجدت دورة مياه صغيرة في المطعم. دفعت الحساب وركبت سيارتي وأخذت طريقي إلى الفندق

الذي يقع على بعد ثلاث دقائق أو أقل. مرة أخرى أشعر برغبة في دخول الحمام. أوقفت السيارة أمام الفندق واندفعت مسرعاً إلى غرفتي. يا إلهي. إنني أكاد أفقد القدرة على التحكم في نفسي. ماذا أصابني؟ هل أنا مريض بالسكر؟ إنني أشعر بالرغبة في دخول الحمام كل عدة دقائق. حتى الآن لم يخذلني عقلي ولم تخذلني سيارتي. هل سيخذلني جسمي؟ لا أعرف كيف نمت ولكني استيقظت عدة مرات لدخول الحمام.. ماذا سأفعل غداً في الجمرك؟

في حوالي الساعة الحادية عشرة من صباح الخميس 7 إبريل 1994 اتخذت طريقي من العريش إلى رفح. أشعر بالعطش. معي زجاجة مياه في السيارة. اكتشفت أنني بعد أن أشرب أشعر برغبة حادة في التبول.

الطريق من العريش لرفح طوله حوالي خمسين كيلو متراً. قسمت الطريق إلى عدة حمامات أقصد محطات. أمر طيب أن تختار المكان الذي يناسبك على الطريق وتحوله لحمام يستخدم لمرة واحدة ثم تواصل طريقك بارتياح.

ـ أنت تقترب من الحدود.. توقف عن الشرب.

■ ولكني أشعر بالعطش. حلقي جاف.

ـ لن يقتلك إحساسك بالعطش.. لا بد أن تبدو متماسكاً وطبيعياً في الجمرك..

فجأة وجدتني أصيح: اسمع.. تماسك. سامع؟ أنا أطلب منك أن تتماسك.

كنت أكلم جسمي. أنا أعرف أن هناك طاقة كامنة داخل الإنسان تظهر عندما يصرخ. هذا هو السر في الصرخات التي يطلقها مصارعو الكاراتيه وأبطال حمل الأثقال. لذلك بدأت أصرخ في جسمي بشراسة:

إخرس.. إعقل.. إمسك نفسك.. خليك راجل.. فاهم؟.. سامع؟.. أنا لن أسمح لك أن تعطلني.. فاهم.. هيه.. آه.. عا.. عو..

من الغريب أنني بدأت أشعر بعدها أنني أكثر تماسكاً ورباطة جأش.

ها هو ذا السلك الشائك المحيط بالجمرك عند رفح، توقفت عند البوابة..

- الباسبور من فضلك.

■ أتفضل..

- وحدك..؟

■ نعم..

في الساحة الكبيرة للجمرك، كانت هناك سيارات أتوبيس ضخمة، لقد أنزلت السياح في الجانب المصري، وستتولى أتوبيسات أخرى نقلهم إلى الجانب الإسرائيلي، أمام شباك الجوازات ملأت بطاقة المغادرة وأعطيت الجواز للضابط المختص.

- تفضل اقعد شوية..

في صالة الجمرك الداخلية الواسعة جلست على أحد المقاعد، شاب أسمر يرتدي قميصاً وبنطلوناً: أهلاً يا أستاذ علي.. ما تيجي تشرب عندي قهوة.

في مكتبه شربت زجاجة مياه غازية وتحدثت معه عن السبب في زيارتي لإسرائيل، أدار الحوار معي بشكل ودي ونبرة لا اتهام فيها أو شك وقد ابتعد بذاته عن الموضوع تماماً. أخذ يكتب بسرعة عناصر الحوار في ورقة أمامه، لم أشعر بالضيق، فأنا أقدر أن اليقظة الأمنية ستظل نشطة على الحدود المصرية الإسرائيلية لسنوات طويلة قادمة، ليس لأننا في حالة حرب معهم وليس لأن اتفاقيات السلام التي وقعناها معهم (كده

وكده) بمعنى أنها خطوة تكتيكية تمهيداً لتنفيذ استراتيجية نهائية وهي القضاء عليهم أو علينا، ولكن لأن احتمالات إفساد السلام واردة من عناصر عديدة على الجانبين.

كثيرون من موظفي الجوازات وجهوا لي نفس السؤال، ولكني أعتقد أن ذلك كان يدافع من الفضول وليس تأدية للواجب الأمني، غرابة الرحلة أيقظت فيهم المزيد من اليقظة والحذر. ضباط كثيرون خرجوا من مكاتبهم ليلقوا نظرة نظرة عليّ ثم عادوا إلى مكاتبهم، في النهاية ظهر أحد الجنود حاملاً بطاقة المغادرة الخاصة بي: أستاذ علي.. أنت رايح إسرائيل ليه؟

- عاوز أشوفها..

أشعرته إجابتي بالارتباك، صمت لحظات وهو يفكر في حيرة وقال: يعني سياحة؟

- نعم.

▪ أصلك كاتب كلمة زيارة في خانة السبب.. كان يجب أن تكتب سياحة..

- يعني زيارة، سياحة، ما تفرقش..

انتهت إجراءات الجوازات وأخذت جواز السفر الخاص بي مختوماً بختم الخروج، دخلت الجمارك، من الواضح أنني كنت الزبون الوحيد في جمرك السيارات منذ عدة شهور، المطلوب عمل صورة ضوئية من الاستمارة 126 بعد ختمها، الختم على ظهر الاستمارة. يجب أن يتم تصوير الاستمارة وجه وظهر.. آه.. أين سنجد ماكينة تصوير هنا؟ وإذا وجدناها فمن سيسمح لي بتصوير الاستمارة؟.. لا تقلق سنصورها لك..

جلست مع الموظف ندردش في مكتبه وهو يثبت بيانات السيارة في

دفتر. ظهر موظفان من الجمرك. طلبا مني أن أتوجه لمكتب الأستاذ حمدي مدير الجمرك، رحب بي الرجل ودعاني إلى فنجان قهوة ودار بيننا حديث طويل عن أصدقاء مشتركين في مجال المسرح. أرسل رجاله لتصوير الاستمارة ودفع الرسوم المطلوبة. حوالي 16 جنيهاً مصرياً.. انتهت إجراءات الجمارك.

. خلاص؟

▪ خلاص.

. مطلوب مني شيء آخر؟

▪ سلامتك.

. أخرج منين؟

▪ من هنا.. اتفضل..

أدرت موتور السيارة وسرت في الطريق الذي أشاروا إليه. أنا أغادر الحدود، مصر خلفي الآن، ولفترة طويلة لن أتعامل بالعامية المصرية التي أحبها.

أقترب من نقطة عسكرية إسرائيلية، موقع حدود، ببطء وهدوء شديدين اقتربت من الحاجز الأفقي، دبت الحركة في الواقع في حذر، تقاطيع الوجوه مشدودة تحت نظارات الشمس القاتمة، بعضهم له لحية طويلة، والمدافع الرشاشة ذات حجم أتصور أنه أكبر من اللازم. من الواضح أنهم اختاروا أفراد هذا الموقع بعناية. فالأجسام عملاقة والملابس أنيقة.. أنا لست أشاهد فيلماً تقترب فيه الكاميرا من موقع عسكري إسرائيلي، أنا الذي أقترب فعلاً، وهذا الذي أراه أمامي أشاهده من خلال زجاج السيارة الأمامي، وليس لقطة أشاهدها من خلال شاشة السينما أو التليفزيون.

قدر عال من التوتر ساد الموقع وأنا أقترب منه. ساورني الإحساس بأن أي حركة خاطئة مني قد يترتب عليها نسف السيارة. هناك أصول للاقتراب من أي موقع عسكري. أن تقف بعيداً عنه بعدة أمتار. لم أنتبه لذلك إلا بعد أن أصبحت مقدمة سيارتي تكاد تكون ملاصقة تماماً للحاجز الأفقي ذي الألوان السوداء والصفراء حرصت على أن تبدو يداي واضحتين على عجلة القيادة. وخلعت نظارتي الشمسية ببطء وهدوء للإيحاء لهم بالاطمئنان.

اقترب جندي ضخم الجثة من الحاجز في الوقت الذي تراجع فيه للوراء عدد من أفراد الموقع متخذين مواقع حاكمة. رفع الجندي ذراعه عالياً وأشار لي أن أعود للوراء. كانت إشارته أقرب للاستعراض وكأنه يشير لرتل كبير من السيارات. كانت إشارته أيضاً تحمل معنى التأنيب على اقترابي لهذا الحد من الحاجز. عدت للوراء عدة أمتار. فتح الحاجز في اتجاهي. في تلك اللحظة كان يجب أن أكسر حدة التوتر الذي ساد المكان أكثر من اللازم. الصمت يشعر البشر أحياناً بالفزع. قلت بصوت مرتفع. هاي.. هل يتكلم أحد الإنجليزية؟

- نعم.. إلى أين أنت ذاهب؟

▪ إلى إسرائيل...

اقترب مني جندي فأظهرت له جواز سفري. آداب السلوك في مصر تحتم في مثل هذه الظروف أن أغادر السيارة ولكن هنا من الخطر أن أتحرك نازلاً إلا بعد أن يطلبوا مني ذلك. وأخيراً أشار لي أن أفتح غطاء الموتور فنزلت من السيارة. ألقى نظرة على الموتور ثم استخدم جهاز كشف المفرقعات. ألقى نظرة سريعة على محتويات السيارة في الوقت الذي كان فيه واحد من زملائه يجري مكالمة في جهاز اللاسلكي.

استطعت من مكاني أن أرى ساحة الجمرك الخارجية خلف الموقع تماماً على بعد مائة متر تقريباً، كانت الساحة خالية من البشر تماماً، ثم ظهر أحد الأشخاص خارجاً من مبنى الجمرك إلى الساحة. من الواضح أنه كان في انتظاري.

طلبوا مني أن أتوجه لساحة الجمرك من خلال طريق جانبي وليس من خلال بوابة الموقع. كان الشخص فعلاً في انتظاري. كان يرتدي ملابس رمادية. هو من أفراد الأمن. طلب مني أن أترك السيارة وأن أسير معه. أخذت أغلق باب السيارة فطلب مني أن أتركها مفتوحة، لا خوف عليها.

دخلت معه إلى صالة الجوازات الداخلية. تقدمت ناحية شباك تجلس خلفه ضابطة شرطة شابة، أعطتني بطاقة دخول ملأتها، سألتني: حجزت في أي فندق؟

▪ لم أحجز في أي فندق.

- إلى أي مكان أنت ذاهب في إسرائيل؟

▪ إلى أي مكان وإلى كل مكان..

- من تعرف هناك؟

▪ الشاعر توفيق زياد عمدة الناصرة. والروائيين إميل حبيبي وسامي ميخائيل والأستاذ ساسون سوميخ رئيس قسم الأدب العربي في جامعة تل أبيب.

شاب يقف بجواري يرتدي الملابس الجينز. حسبته في البداية أحد المسافرين إلى أن تنبهت لجهاز لاسلكي صغير جداً في بدء قال لي بالإنجليزية: أنا مسؤول الأمن هنا... أريد أن أتكلم معك قليلاً..

في جمل قصيرة سريعة عرفته بنفسي والهدف من الزيارة.

- هل معك سلاح للدفاع الشخصي؟

■ لا ..

. هل أعطاك أحد شيئاً..

■ لا..

استدعى واحداً من مساعديه. كان يجيد اللغة العربية. قام بملء الاستمارات المطلوبة معتمداً في إثبات البيانات على رخصة السيارة المصرية. لا أهمية لدفتر التربتك الذي دفعت فيه 260 جنيهاً. لم يطلبوه. أخذت أتحرك من موظف لآخر. غيرت 500 دولار إلى شيكلات. الشيكل حوالي جنيه وربع. الدولار أقل من ثلاثة شيكلات. دفعت تأميناً على السيارة ضد الحوادث لمدة شهر. أعطاني رخصة تسيير للسيارة داخل إسرائيل. انتهت الإجراءات الإدارية.

مرة أخرى خرج معي مسؤول الأمن إلى الساحة الخارجية حيث توجد سيارتي. والآن أخرج كل حاجاتك من السيارة وضعها على الترولي.

كنت أتصور أنهم سيفتشون حقائبي داخل السيارة. الواقع أنني كنت قد حولت السيارة إلى حقيبة كبيرة ألقيت في كل ركن فيها بحاجاتي في أكياس بلاستيك أخرجتها جميعاً ووضعتها على الترولي وعدت بها إلى صالة الجمرك الداخلية. تركتها لهم هناك ثم عدت معه إلى السيارة. طلب مني أن أقودها فوق مجرى في الأرض مزود بسلم يشبه ذلك النوع الموجود في محطات التشحيم. نزل السلم وفحص أسفل السيارة. صعد مرة أخرى وطلب مني أن أفتح غطاء الموتور. لا بد أنه أصيب بصدمة. شكل الموتور الخارجي الذي لم ينظف منذ شهور لا يوحي بالثقة. في الغالب بحث طويلاً عن وصف الموتور لا يشعرني بالإهانة وأخيراً قال: الموتور يعلوه التراب Dusty

الواقع أنني تعمدت ألا أغسل الموتور تطبيقاً لقاعدة «بطينه ولا غسيل

البرك، خشيت أن أغامر بغسله بالماء فأعرض أسلاك الأسبراتير أو البوجيهات للتلف. كشف على كل أجزاء السيارة بجهاز كشف المفرقعات، عدت إلى صالة الجمرك الداخلية من ناحية باب الخروج هذه المرة. كانوا قد انتهوا من تفتيش حاجاتي، عدت بها إلى السيارة.. واحد من موظفي الجمرك يتكلم العربية أعطاني خريطة، ألقيت عليها نظرة سريعة. لست مدرباً على السير مسترشداً بخريطة. سأكتفي بعلامات الطريق المكتوبة بالإنجليزية..

. خذ هذا الطريق.. ستجد نقطة حدود.. أدخل على اليمين.. ثم واصل طريقك. تنبّه للعلامات.

▪ شكراً..

بسيارتي ملاكي القاهرة التي تحمل أرقاماً مصرية على لوحة سوداء أخذت طريقي إلى تل أبيب.

فيما بعد قال لي فيكتور تحمياس وهو يهودي من أصول مصرية: اسمع، هناك سبب لم تذكره لتجوالك بسيارتك هنا بلوحة الأرقام المصرية، ولا أعرف هل أنت تعي هذا السبب أم هو كامن في اللاوعي عندك؟.. أنت تتجول في شوارع إسرائيل رافعاً علماً مصرياً..

لم أفكر في ذلك، ولكني أعترف أنهم عندما تركوا لي لوحة الأرقام المصرية، شعرت بالفرحة على نحو غامض وبدأت أستغل هذه الفرصة لعمل مظاهرة مصرية وخصوصاً في القرى العربية.. بلوحة الأرقام المصرية وصوت موتور الجيب المرتفع كنت أصيح دون أن أفتح فمي: أيها السادة.. مصر قريبة منكم.. أنا مصري قادم من مصر.

# تهت، يا سيدي

الطبيعة متماثلة على جانبي الحدود لعدد كبير من الكيلومترات. تلال صحراوية تزحف عليها الخضرة في عناد. غير أن اللون الأصفر هو الغالب. ولكن كلما توغلت في الطريق انتصر اللون الأخضر وأخذ اللون الأصفر في الانسحاب معلناً هزيمته أمام إرادة البشر. ولكنه يعود لمهاجمة الخضرة من وقت لآخر ومن مساحة إلى مساحة ليذكرك بأخطر مشاكل المنطقة: المياه.

بدأت أقرأ العلامات. أشدود. عسقلان. بيرسبع. العلامات مكتوبة بالعبرية وبالإنجليزية. يكتبونها بالعربية فقط عندما تقترب من المناطق العربية. استيقظت طفولتي. هذه هي أسماء البلدان التي كانت تحفل بها نشرات الأخبار في الراديو عام 1948. هذا الطريق الذي أسير عليه الآن سارت عليه من قبل العربات والمدرعات المصرية في حرب لا يعرف أحد تفاصيلها الحقيقية حتى الآن.

المرور غير كثيف في هذه المنطقة. فقط سيارات أتوبيس سياحية ضخمة تقابلني متجهة للحدود المصرية أو تتخطاني قادمة منها. عشرات أسماء «الوشافات» والمزارع الصغيرة التي لا أعرفها ولم أسمع بها من قبل. يحتويني المجهول وأسير في اتجاه المجهول. نحن لا نستخدم حزام السيارات أثناء القيادة في مصر. ولكن لا بد من استخدامه هنا. نظفته جيداً بعد أن تحول على مر الأعوام إلى حزام من التراب. تأكدت أنه صالح للاستخدام وعزمت على استخدامه بعد عبور الحدود. من الغريب أنني نسيت استخدامه ولم أنتبه لذلك إلا على مشارف تل أبيب.

الطريق الذي أسير عليه فرعي. لم أخرج بعد إلى الطريق السريع.

قدت السيارة بسرعة ثابتة. أقل من مائة كيلو متر في الساعة. بدأت كثافة المرور تزداد على الطر يق. سيارات كثيرة جاءت من ورائي حرص سائقوها على قراءة لوحة الأرقام على سيارتي، كان بعضهم قصير النظر إلى الدرجة التي جعلته يكاد يلتصق بسيارتي من الخلف.

ظاهرة غريبة. كل السيارات تضيء النور الصغير، الجو صحو والرؤية واضحة تمام الوضوح وما زلنا بعيدين جداً عن الغروب، لماذا يضيئون الأنوار؟!

جاءتني الإجابة فيما بعد، يقولون إن ذلك يقلل الحوادث، وهو ليس أمراً اختيارياً بل أنت ملزم بذلك بحكم القانون إلى أن تأتي شهور الصيف.

الإجهاد والوحدة والسرعة الثابتة وصوت الموتور المرتفع وملامح الطريق التي لا تتغير أسلمتني جميعاً لحالة من الخدر قريبة من النعاس.

ها هي ذي محطة بنزين أخيراً. كل محطات البنزين هنا بها كافتريا صغيرة، المحطة ليست على يميني، هي على شمالي في الطريق المقابل، لا بأس. توقفت على يمين الطريق، تأكدت من خلو الطريق خلفي وأنه لا أحد قادم من الاتجاه المضاد، والجزيرة بين الطريقين صالحة للعبور. درت بحذر من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ودخلت المحطة. عرفت فيما بعد أنني ارتكبت حماقة مرورية كبرى. حوادث كثيرة تحدث نتيجة لما فعلته، غير مسموح لك بعبور الطريق إلا من المفارق المخصصة لذلك، طلبت ملء خزان السيارة.

البنزين هنا 96، 91. لا بأس. ليكن 91 بفارق درجة واحدة عن البنزين الذي أستخدمه في مصر، لا داعي لإرباك الكاربراتير بنوع مختلف جداً من الوقود، لا بد أنني أضعت وقتاً طويلاً في الجمركين على الحدود، فالساعة الآن الثالثة والنصف بعد الظهر.

تنبهت إلى أنني لم أتناول طعاماً منذ الصباح، دخلت كافتريا المحطة، طلبت سندويشاً وعلبة مياه غازية وفنجان قهوة ثم زجاجة مياه للشرب منها أثناء الطريق، دفعت حوالي ثلاثين جنيهاً مصرياً، لا داعي لأن تحسبها بالجنيه المصري فتصاب بالإحباط، أحسبها بالشيكل، إن الجنيه المصري مع كل ما يوجه إليه من اتهامات قادر على شراء أشياء ملموسة، على الأقل شراء أربع جرائد قومية ومعارضة، بينما الشيكل عاجز عن الحركة بمفرده، هو في حاجة دائمة لمجموعة من الرفاق، لا تستطيع أن تشتري شيئاً بشيكل واحد، للحقيقة، باكو مناديل الجيب.

لتر البنزين 91 ثمنه 1.86 شيكل، أكثر من جنيهين، إلى جوار طلمبة البنزين كانت هناك سيارة نصف نقل صاحبها يرتدي جلباباً وجاكت وعقالاً، سألته عن تفاصيل الطريق إلى تل أبيب فوصفه لي، لم أكن في حاجة لسؤاله فقد سألت عامل المحطة من قبل ولكن يبدو أنني كنت أريد الحديث باللغة العربية.

مرة أخرى على الطريق، أكثر شبعاً ونشاطاً ويقظة، لاحظت أن سيارة ملاكي تسير خلفي على بعد ثابت وبنفس سرعتي، من خلال المرآة تبينت ركابها، كانوا أربعة يرتدون الملابس العسكرية، اختفت السيارة بعد فترة من الوقت.. عندما كنت أشك في اتجاه السهم في علامات المرور خصوصاً عند المفارق كنت أتوقف لأسأل بعض سائقي السيارات، إلى أن خرجت إلى الطريق السريع.

* * *

لست غبياً إلى الدرجة التي أتصور فيها أنني أتحرك بعيداً عن أعين الأمن الإسرائيلي في دولة هاجسها الأول هو الأمن. كما أكون متخلفاً لو تصورت أن حركتي داخل إسرائيل كانت بعيدة عن أعين وآذان المخابرات المصرية، أحياناً يكون الدليل الوحيد على الوجود الأمني هو نفسه الغياب الواضح للأمن. سيارة غريبة بلوحة أرقام سوداء. وهو لون اللوحات الخاصة بالضفة الغربية لا تستوقفها أي سيارة شرطة طول الطريق من رفح لتل أبيب؟

وضابطة الشرطة أيضاً في الجوازات كان لديها ما يسمى «بترقب وصول». لقد أدارت حوارها معي ببرود وعدم اكتراث وكأنها لا تعرف عني شيئاً، ولكني لاحظت أنها كانت تهمهم بصوت خافت بأغنية وهي تكتب، وهي حيلة من العقل يُلجأ إليها لمداراة الإحساس بالانفعال في مثل هذه الظروف «عليّ أن أبدو غير مهتمة أو منفعلة، سأكون طبيعية، طبيعية وغير مكترثة لدرجة أن أغني.. ها أنت ذا تسمعني أغني».

مسؤول الأمن أيضاً في الجمرك ويسمى «ناظر المحطة» كان يترقب وصولي، وهذا ليس سراً فقد أبلغتهم السفارة بموعد سفري، ولكن رجل الأمن لا شأن له بالسياسة أو بالدبلوماسية أو بالحرب والسلام. إن قاعدة عمله هي الدقة والشك والارتياب. لذلك لم يقل أهلاً وسهلاً.. اتفضل.. نحن نعرف أنك قادم في رحلة سلام، بل أخضع سيارتي وأمتعتي لأعلى درجات الفحص والتفتيش في إطار من البساطة والتهذيب.

كلنا نذكر المبادرة التاريخية للرئيس السادات، لقد طرح الأمن الإسرائيلي يومها سؤالاً غريباً، ماذا لو هبطت طائرة السادات ثم فتحت أبوابها وخرجت منها مجموعة من رجال الصاعقة المصريين ليحصدوا بالرشاشات كل زعماء إسرائيل المحتشدين على أرض المطار، بالطبع هو

احتمال سخيف وبعيد بل ومستحيل. ومع ذلك أخذوه في الاعتبار وتم وضع عدد من رجال العمليات الخاصة في مواقع فوق مباني المطار للتعامل مع هذا الاحتمال حال حدوثه. هناك قاعدة واحدة في الأمن، لا مفاجأة.

على الطريق السريع، لن أنحرف يميناً أو يساراً إلى أن يدخل بي الطريق إلى تل أبيب، سأقود سيارتي في الشوارع إلى أن أجد مكاناً مسموحاً فيه بالانتظار فأركن السيارة ثم أنزل باحثاً عن فندق.

تل أبيب تقترب، بشر يقفون على محطات الأتوبيس المخصص للنقل الداخلي. هناك مخارج كثيرة من الطريق لها أسماء لم أسمع بها من قبل، لست مدرباً على استخدام الطرق السريعة، هي لا تدخل المدن بل تدور حولها، وهكذا وجدت نفسي أتجاوز تل أبيب على طريق حيفا، بالتعاسة والجهل، مدن صغيرة على يساري وعلى يميني وأنا عاجز عن معرفة الطريق إليها، حسناً توقف - قلت لنفسي - على اليمين بعيداً عن الطريق إلى أن تأتيك سيارة شرطة، أو تتمكن من سؤال أي مخلوق، لا يوجد مكان أستطيع الوقوف فيه. هناك إصلاحات على الطريق لا تترك مكاناً للوقوف.. الطريق سريع ومجنون أيضاً.

بدأ الظلام في الهبوط، الجميع يقودون سياراتهم وكأنهم يفرون من كارثة، أضيف الظلام للمجهول فاستولت عليّ حالة من الاكتئاب تتخللها ومضات من المتعة الوحشية.. يا إلهي أنا مجهد وتائه في بلد غريب وأحلم بسرير وبدخول الحمام. عند إحدى إشارات المرور وفي تقاطع سألت سائق سيارة بيكآب بجواري، من فضلك.. أريد الوصول إلى أي مدينة.. هل حيفا بعيدة؟

- ساعة من هنا..

* ما هي أقرب مدينة..؟

ـ نتانيا.. على بعد 12 كيلو تقريباً..

* حسناً أريد الذهاب إلى نتانيا..

ـ اتبعني..

استدعت ذاكرتي مقالاً كنت قد قرأته في مجلة الدوحة منذ سنوات طويلة، تحقيق مصور عن زيارة قام بها أحد الفلسطينيين من محرري المجلة، لإسرائيل ولأهله في الضفة الغربية. أذكر أنه زار نتانيا.. جملة واحدة قفزت إلى ذهني «وعلى شاطىء نتانيا الجميل» جملة أخرى شاحبة بدأت في الصعود إلى السطح في ذاكرتي «وعلى شاطىء نتانيا الجميل وجدت شرطية حسناء بملابس الاستحمام تضع مسدساً حول وسطها».

يبدو أن طرافة الصورة حفظتها في ذاكرتي. بالتأكيد الشاطىء ما زال موجوداً في مكانه، ولكن ماذا عن الشرطية الحسناء؟ هل ما زالت موجودة في مكانها بملابس الاستحمام منذ تاريخ كتابة المقال؟ أو أنها ارتدت ملابسها وانصرفت عائدة إلى منزلها، أم أنها نقلت لشاطىء آخر.. أو لعلها تركت الخدمة.. غداً صباحاً بإذن الله سنبحث عن الإجابة على الشاطىء..

سرت خلف الرجل عدة كيلو مترات، أشار لي بأنوار السيارة الخلفية إلى أنه سيتوقف على اليمين، توقفت خلفه، نزل من السيارة وأمسك ورقة وقلماً ورسم لي خريطة سريعة، عند إشارة المرور القادمة، لا تتبعني، انحرف إلى الحارة الشمال، أما أنا فسأواصل طريقي إلى حيفا، بعد الإشارة ستدخل يساراً. ستجد نفسك فوق كوبري، استمر في السير.. ستجد نفسك في نتانيا.. هناك فنادق كثيرة على الشاطىء.

ـ ثلاث نجوم؟

ستجد بالقرب من الشاطىء ميداناً كبيراً غير مسموح فيه بالسير

بالسيارات.. على يمين الميدان ستجد فنادق ثلاث نجوم.. على يساره توجد فنادق خمس نجوم..

عند إشارة المرور ودعني الرجل بإشارة من يده. يساراً بجوار الإشارة، ثم الكوبري، الحمد لله أنا أسير الآن في شوارع مدينة، بشر، أرصفة، محلات، عمارات، أضواء.. الناس هنا تسير وتقود سياراتها في وداعة، نتانيا مدينة سياحية ومصيف يتسم بالهدوء والجمال، ولكي تعرف حجم روقان أهلها أقول لك: إنهم يعملون في صناعة الماس.

على اليمين فوق مكان مرتفع تقف سيارة شرطة، توقفت عندها أيها السادة: أنا مصري أبحث عن فندق.

قلت لهم ذلك وأنا أمد لهم يدي بجواز سفري ورخصة القيادة الموقتة.

- سر خلف هذه السيارات، ستقودك لشارع مواز للشاطىء.. ستجد على جانبيه عدة فنادق.

سرت خلف السيارات، درت معها يساراً ثم يميناً، وفجأة وقعت عيناي على الكلمة السحرية: فندق، حدثت معجزة أخرى، وجدت مكاناً على الرصيف أمام الفندق صالحاً لوقوف السيارة.

دخلت الفندق، سألت عن أقرب بيت للراحة، موظف الاستقبال من أصل تونسي، عدة كلمات عربية وأخرى إنجليزية، هل مسموح لي بالانتظار في المكان الذي أوقفت فيه سيارتي؟

- نعم.

انزاح عني هم ثقيل، واصلت السؤال: أريد أن أحجز لليلتين.. بكام؟

- بستين دولاراً في الليلة..

* ياه.. ستين؟!.. أليس هذا فندق ثلاث نجوم؟

ـ لأ.. أربعة..

* يبدو ثلاثة.. حسناً.. أحذف نجمة من أجلي.. لقد تصورت أن أجر الفندق هو ثلاثون دولاراً فقط.

ـ إنها أسعار حددتها الحكومة.

* وهل تصدق الحكومة يا رجل..؟.. هاها..

يبدو أن النكتة لم تعجبه وظل وجهه جامداً..: حسناً.. خفّض لي شوية.

ـ خمسة وخمسين..

الواقع أنه لو طلب مائة دولار لدفعتها على الفور. إن أول ليلة في بلد غريب تكلف الكثير. ملأت استمارة الفندق وصعدت إلى غرفتي، لم أعط لعامل الفندق الذي أحضر حقائبي بقشيشاً فأنا لم أعرف بعد قواعد البقشيش هنا، وعندما تعلمتها كنت قد غادرت الفندق. أخيراً هذا هو السرير وهذا هو الحمام، خلعت ملابسي، فوجئت برنين جرس التليفون.

ـ ألو..

ـ هنا شخص في انتظارك يريد التحدث إليك.

يا نهار أبيض.. لحقوا؟ بالتأكيد عرفت الصحافة الإسرائيلية بوسائلها الخاصة الفندق الذي أنزل فيه. أجبته لقد خلعت ملابسي.. سآخذ حماماً وأنزل بعد عشر دقائق.

أخذت دشاً ساخناً وغيّرت ملابسي ونزلت لصالة الفندق، لم تكن الصحافة في انتظاري، الشرطة كانت أسرع، وجدت في انتظاري ضابط شرطة يحمل استمارة النزول في الفندق.

ـ نعم يا سيدي..

* هناك أشياء متروكة في سيارتك.

- هي كتب..

* نعم أعرف أنها كتب..

راجع بيانات جواز السفر على استمارة الفندق. اكتشف رقماً غير صحيح: هذا الرقم غير صحيح.

. نعم يا سيدي، هو غير صحيح.. والمسؤول عن كتابته خطأ هو موظف الاستقبال وليس أنا.. لم أملأ أنا هذه الاستمارة.. لقد ملأت استمارة أخرى.. أهي.. ولقد كتبت بيانات الجواز صحيحة كما ترى..

سأله بالعبرية فأمن الرجل على كلامي في خجل. أحسست تجاه الرجل بقدر من الشماتة والتشفي بعد أن عاقبته السماء سريعاً على عدم إجرائه التخفيض المناسب لي، خصوصاً في هذا الوقت الميت سياحياً.

تناول الضابط ورقة بيضاء وكتب عليها عدة جمل باللغة العبرية بحروف كبيرة ثم وضع توقيعه عليها، وقال لي: الصق هذه الورقة على زجاج السيارة الأمامي من الداخل.. سأقرأ لك ما هو مكتوب فيها.. صاحب هذه السيارة مصري مقيم في الفندق.. أي مخابرة تتم مع مكتب الاستقبال.

شكرته وألصقت الورقة على الزجاج.. حسمت هذه الورقة الموقف تماماً. كانت كافية لإبعاد رجال الشرطة والفضوليين.

في مساء اليوم التالي كنت جالساً في كافتريا الفندق أحتسي القهوة الفلتر السوداء وأدردش مع بعض السائحين الهولنديين عندما ظهر شخص وسيم يتكلم العربية. قال لي إنه مسؤول شركة السياحة التي أتت بهذه المجموعة. أعطاني أسماء عدد كبير من الفنادق في مدن كثيرة وأعطاني عناوينها، وفجأة سألني باهتمام: ولكن لماذا نتانيا..؟

في تلك اللحظة ارتسمت في ذهني على الفور صورة لمسؤول في

مكان ما لم يغادر مكتبه بعد أن كُلف بالإجابة على هذا السؤال: لماذا ذهب علي سالم إلى ناتانيا وليس إلى تل أبيب..؟

أجبته وأنا أحتسي القهوة باستمتاع: تهت يا سيدي.

# يافا:

بالأمس بعد وصولي إلى نتانيا بالسيارة وفي طريقي إلى الفندق، لاحظت أن صبياً صغيراً يقف عند إشارة المرور ويقوم في حركة سريعة بلصق ملصق صغير «ستيكر» على زجاج السيارات الخلفي. بالتأكيد سيلصق هذا الملصق على سيارتي، ترى ما هو الشعار المكتوب عليه؟ سيكون الموقف بالغ السخرية إذا اتضح أنه يحمل عبارة، تخلصوا من العرب.. أو أي شيء من هذا القبيل. ولكني لاحظت أنه يقوم بتبادل عبارة سريعة مع سائقي السيارات، استنتجت أن تكون: هل تؤيد ذلك؟.. أو هل توافق على ذلك؟

لأن بعض أصحاب السيارات كان يشير بأنه غير موافق، عند ذلك كان الصبي ينتقل بسرعة لسيارة أخرى، الحمد لله، لم أتعرض للاختبار إذ فتحت الإشارة فتحركت من مكاني، في الإشارة الثانية وجدت صبياً آخر يحمل نفس الملصقات، قال لي جملة بالعبرية فرددت عليه بالإنجليزية: ماذا تعني هذه الجملة؟

- الناس في الجولان.

* مالهم؟

يبدو أن إنجليزيته لم تسعفه فعدت أسأله: هل تريدهم هنا..؟

* نعم.

حمداً لله، هو إذن يريد الانسحاب من الجولان.

- أوكي.. حطها.

وهكذا ساهمت في العمل السياسي قبل أن تطأ قدماي أرض إسرائيل، اكتشفت بعد ذلك أن الجملة المكتوبة هي «مع الجولان» وهي صياغة

غامضة تكتسب معنى مضاداً لما يقصده عندما توضع على سيارتي. هو مع الجولان. بمعنى أنه لا يريد الانسحاب من هناك. وأنا كمربي مع الجولان، بمعنى أنني أريده أن ينسحب من هناك. عموماً ولعدم إحداث المزيد من التعقيدات السياسية في المنطقة خلعت الملصق.

المهم في هذه اللقطة السريعة أن هذا الصبي الصغير لم يكن يشعر بالضيق والإحباط عندما كان يشير إليه أحد أصحاب السيارات بأنه لا يوافق على الشعار، بل كان ينتقل بسرعة لسيارة أخرى، دون أن يصيح به: لماذا لا توافق يا وغد..؟ إذن، أنت عميل للسوريين والعرب.

هذا هو ما يجب أن نركز عليه في تربية أطفالنا، من حق البشر أن تكون لهم آراء وأفكار مختلفة عما نعتقده نحن دون أن يكون ذلك مدعاة للعنف والعدوان، ولتتصارع الأفكار مع الأفكار، والحجة مع الحجة من أجل صالح الأمة.

الأفكار المطروحة هنا ليست محبوسة في مكاتب الأحزاب وأعمدة الصحف، ستراها وقد تحولت للافتات يحملها مجموعة من الشباب والشابات عند نواصي الشوارع. وأحياناً ستجد مظاهرة من شخصين يحملان لافتة تعلن عن موقفهما السياسي، هناك مجموعة شهيرة تقف عند ناصية معينة في القدس يرتدي أفرادها اللون الأسود وتحمل شعارات تقول: اتركوا الضفة الغربية.. اتركوا الجولان.. اتركوا غزة.. وستجد مجموعة أخرى وسط القدس ترفع شعاراً يقول: الضفة الغربية تبدأ من هنا.

بمعنى أننا سنتخلى عن هذا الجزء من القدس عندما نتخلى عن الضفة الغربية.

الحزب الواحد والفكرة الواحدة وخاصة عندما تكون براقة ومثالية

جداً. يخفيان عشرات التناقضات الحادة التي لا تتسق مع قوانين الواقع ومعطياتها، ولذلك لا بد أن تتحول هذه التناقضات في النهاية إلى انفجار كبير.. ثم إلى صواريخ وطائرات ومدرعات وقتلى.. ماتوا، أو قتلوا مجاناً من أجل لا شيء أو بسبب أفكار غبية.. واسألوا العراق واسألوا الكويت واسألوا شعب اليمن.

* * *

قبل سفري إلى إسرائيل جاءني صديق قديم وقال لي: حضرت اجتماعاً منذ قليل تقرر فيه تصفيتك فنياً وثقافياً وأدبياً واجتماعياً إذا ذهبت إلى إسرائيل.

شعرت بالقرف. ما هو الرد المناسب في هذه الحالة؟ عقول تربّت على التصفية، إما أن يقوموا بتصفية مخالفيهم في الرأي بوصفهم أعداء، وإما أن يقوم أعداؤهم بتصفيتهم، وهي عقول جبانة لا تتصور أن بعض البشر لا يخشون التهديد والوعيد بل يزيدهم الابتزاز إصراراً على التمسك بممارسة حريتهم في التفكير والفعل.

رددت عليه: قل لهم... لقد ذهب بالفعل.. تفضلوا نفذوا تهديدكم.

صديق آخر كتب بعد أن عدت: لو كنا حكاماً لحاكمناك.

وأنا أرد عليه: الحكم يتطلب الكفاءة ونصيبكم منها صفر، والمحاكمة تستلزم العدل. وأنتم مدربون على الظلم. أنتم صدفة تاريخية حدثت وانتهت بنهاية الفاشية في العالم كله، وأنتم ضدي لأنه لا شيء لديكم تقدمونه للسلام ولم يكن عندكم ما تقدمونه للحرب سوى الضعف والأكاذيب.

السلام بصنعه الشجعان وأنتم جبناء، ويطلبه الأحرار وأنتم عبيد، ويحرص عليه الأذكياء، وأنتم بلهاء، ويعمل من أجله الأقوياء وأنتم ضعفاء.

يا رجل، كيف تحلم بحكمي ومحاكمتي وأنتم حتى الآن لا تعرفون الفرق بين حرية التعبير وقلة الحياء ولا تعرفون الفرق بين الصحافة والجريمة؟!

* * *

من تليفون الغرفة اتصلت بالمهندس سليمان الفحماوي في منزله بقرية أم الفحم القريبة من الناصرة، هو مهندس صاحب مكتب إنشاءات، كما يعمل في مجال النشر تعرفت به في كافيتريا (كارولين) عندما كان في زيارة لمعرض الكتاب في القاهرة.

- معقول الكلام ده..؟ بتتكلم منين؟

* من نتانيا.. فندق متروبول جرائد بشارع جاد خامنس..

- جاد خامنس.. هل تعرف من هو؟

* هو شارع طبعاً.

- لا.. هو لاعب كرة شهير.. لقد اتفقنا من قبل على أنك ستنزل ضيفاً عندي.

* بإذن الله.. سأقضي ليلتين في نتانيا بعد ذلك سأتي إليك.. ثم أذهب إلى الناصرة لزيارة سميح القاسم واميل حبيبي وتوفيق زياد.

- هل تعر ف أن مكتبي قريب جداً من نتانيا.. بيني وبينك عشر دقائق فقط..

* جميل.. اسمع يا سليمان.. اكتشفت أن رقم تليفون الدكتور ساسون

سوميخ ليس معي.. هل تتفضل وتبحث لي عنه ثم تتصل بي في الفندق؟

* * *

نزلت إلى شوارع المدينة. كل شواطىء العالم تكاد تكون متشابهة. ولكنهم هنا في نتانيا حرصوا على إضافة إبداع البشر إلى إبداع الطبيعة. ميدان كبير تتخلله الزهور والنباتات والمقاعد الحجرية وعشرات المطاعم والمقاهي الصغيرة تحيط بالمكان في تناسق جميل. أما الشاطىء نفسه فأنت تنزل إليه من خلال منشآت وسلالم حجرية تتخللها الخضرة وكأنها «أميلاج» للشاطىء أو كأنهم يقدمونه لك على صينية حجرية كبيرة.

تناولت عشائي. حبل النجاة هنا وسكة السلامة هو الشاورمة. رغيف الشاورمة بحجم ميدان صغير، بعد أن تتسلمه ستجد أمامك عدداً من الأطباق الكبيرة ممتلئة بأنواع عديدة من الطرشى والسلطات والمخللات. خذ منها ما تشاء في طبق صغير.

وفي محل حلواني صغير جلست أتناول القهوة الاكسبرسو مع قطعة جاتوه. من حقي طبعاً أن أدلل نفسي بعد هذا المشوار الطويل.

من الجميل في هذا العصر أن يجد البشر مكاناً فسيحاً يمشون فيه ويجلسون دون أن تزاحمهم السيارات. لا أصوات عالية لا ضجيج... لاحظت أنين الكائن الوحيد الذي يمشي بمفرده في الميدان. لم أكن الوحيد الذي لاحظ ذلك.. فجأة توقفت سيدة تملأ وجهها الأصباغ بشكل لافت للنظر: هاي..

- هاي..

* من أين؟

. من مصر..

* بمفردك أم ضمن وفد؟

. بمفردي..

* عمل أو سياحة؟

. عمل..

* ألا تريد أن تجلس في بار جميل.. هنا بار جميل على الناصية.

. شكراً.. أنا أتمشى قليلاً وسأعود للفندق..

* ألا تريد امرأة؟

شعرت بالحرج وببعض الخوف، أمر فظيع أن يقول رجل لامرأة أنه لا يريدها.. حتى لو كان لا يعرفها، حتى لو كانت مهنتها هي أقدم مهنة في التاريخ، لا بد أن تكون إجابتي غير مهينة ومقنعة في الوقت نفسه، قلت لها متلعثماً: الواقع أني لا أريد ولكن لأسباب تتعلق بي، وليست خاصة بك.. أقصد أنني آسف.

قالت وهي تبتعد: إذا غيرت رأيك فأنا موجودة في البار على الناصية..

أعجبتني طريقتها في إنهاء اللقاء بما يحفظ لكل طرف كبرياءه.. في هذه المسائل وفي الصراع السياسي لا بد من ترك الباب مفتوحاً الواقع أنه لم يكن فيها ـ شكلاً وموضوعاً ـ ما يجعلني أغير رأيي أو يجعل أي شخص آخر يغير رأيه..

عندما عدت إلى الفندق وجدت رسالة من سليمان ترك لي فيها رقم تليفون الأستاذ ساسون سوميخ، اتصلت به في المنزل فردت على زوجته مرحبة فتركت له رسالة أبلغه بعنواني ورقم تليفوني ثم نمت.

* * *

ساسون سوميخ هو رئيس قسم الأدب العربي واللغة العربية في جامعة تل أبيب، وواحد من أشهر أساتذة الأدب العربي خارج مصر، حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة أكسفورد. يهودي عراقي جاء إلى إسرائيل قبل أن يبلغ العشرين من عمره فعلّمه إميل حبيبي السياسة وعلمه توفيق زياد الشرب على حد قوله. والأدب العربي ليس عشقه ومهنته فقط بل هو رهانه الأكبر على تحقيق السلام بين العرب واليهود. أوقف عمره كله على دراسة الأدب العربي وقدم لقومه وللعالم كله دراسات مهمة عن عملاقين مصريين كبيرين هما نجيب محفوظ ويوسف إدريس. كما قدم لجامعات العالم العشرات من تلامذته من المتخصصين في الأدب العربي واللغة العربية والعامية المصرية أيضاً.

اقترابي منه أعطاني انطباعاً قوياً بأن اهتمامه الطاغي بالأدب العربي لم يكن فقط معركته الطويلة لتحقيق السلام بين العرب واليهود بل لتحقيقه بينه وبين نفسه، فكم هو معذّب لمثقف داخل إسرائيل أن يكون عربياً ويهودياً في الوقت نفسه. كم هو مؤلم أن تجد نفسك. لأسباب ليست من صنعك. عدواً لنفسك. كم هو شاق أن تتصارع دولتك مع هويتك، لذلك كان وقوفه الواضح إلى جانب العرب الفلسطينيين السبب في اتهامه من بعض الأطراف أنه عميل لمنظمة التحرير الفلسطينية.

وأنا لم أتشرف بمعرفته منذ زمن بعيد، ولم يسبق له أن تناول عملاً من أعمالي بالدراسة ولكني قابلته في القاهرة، قبل سفري إلى إسرائيل بحوالي شهر، عرفني به الباحث (ريموند سترك) وهو من الأعضاء الدائمين في ندوة نجيب محفوظ، فدعوته إلى العشاء هو والروائي سامي ميخائيل وواحدة من تلامذته أذكر أن اسمها الأول هو نانسي.

كانوا في حالة اكتئاب شديد في أعقاب جريمة الحرم الإبراهيمي

البشعة التي أصابت خطوات السلام بنكسة مروعة. أبلغته أنني سأزور إسرائيل قريباً وأنني كنت على وشك السفر لولا تلك الجريمة البشعة.

الواقع أن ساسون لم يصدقني وتصور أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد رغبة سأعجز عن تحقيقها فقد قال له عدد كبير من المثقفين إنهم سيزورون إسرائيل ولم يتمكنوا من ذلك..

* * *

في الصباح اتصل بي ساسون وأبلغني أنه سيأتي بعد قليل. بعد ذلك اتصلت بي (كارين) وهي شاعرة وأستاذة في قسم الآداب الإنجليزية بجامعة تل أبيب. أنا أعرف كارين منذ عام 1981. كنا معاً أسبوعين في (سالزيورج سيمينار) تحت إشراف هيئة فولبرايت ضد حوالي 65 أستاذاً للأدب الإنجليزي والأمريكي من كل أنحاء العالم كان معنا أيضاً الدكتور عبدالعزيز حمودة الكاتب المسرحي والناقد والعميد السابق لكلية الآداب. بعد ذلك بتسعة أعوام قابلتها في جامعة ميتشجان.

قالت كارين: علي... عل معك ملابس كافية.. ابني طولك وفي حجمك بالضبط..

ـ أشكرك يا كارين.. معي ملابس كافية.. بل أكثر مما أحتاج.

في الغالب أبلغها ساسون أنني جئت بسيارتي دون أن أبلغ أهل بيتي. معنى ذلك أنه ليس معي ملابس. الواقع أنني قد رسمت قبل السفر خطة محكمة لشراء ملابس وإخفائها في مكان أمين بحيث أخرج من المنزل ساعة الصفر بقميص وبنطلون. للحقيقة والتاريخ. قمت بتهريب حذاءين بالرغم من الرقابة الشديدة التي كانت مفروضة عليَّ.

جاء ساسون ومعه واحد من تلامذته. قدمه لي: جابي.. جابرييل رزنباوم.. رسالته للدكتوراه عن المسرح العربي.. يقوم بتدريس المسرح العربي في الجامعة العبرية بالقدس.. وهو أيضاً يقوم بتدريس مسرحيتك «إنت اللي قتلت الوحش».

ـ أهلاً يا جابي.. وجهك مألوف لدي.. هل رأيتك من قبل؟

* في الغالب شاهدتني في ندوة نجيب محفوظ.. أو في كافتريا الأوديسون.. أو مع لينين الرملي.. أنا أقوم الآن بترجمة مسرحيته سمدون المجنون إلى اللغة العبرية..

جابي يجيد الحديث بالعامية المصرية، بل يعرف كل أسرارها وهو شاب عجوز لا توجد في رأسه شعرة سوداء، رقيق، خافت الصوت يذكرك بالمصريين في أفضل حالاتهم إذ ترتسم على وجهه ابتسامة دائمة لا تفارقه حتى وهو يحاضر.

طلب مني جابي أن أزوره في الجامعة وأتكلم مع طلبة القسم فوعدته بذلك عندما أذهب إلى القدس. انصرف جابي بسيارته فخرجت مع ساسون متجهين إلى تل أبيب. ذهبنا إلى الجامعة. رفض حرس البوابة دخول سيارتي إلى حرم الجامعة فلم يكن معنا تصريح بذلك. أوقفتها في مكان مخصص للانتظار عبر الشارع تابع أيضاً للجامعة، ثم صعدنا إلى مكتب ساسن، لا أحد في الجامعة فالأساتذة مضربون عن العمل من حوالي شهرين من أجل رفع رواتبهم.

الطريق من تل أبيب إلى يافا حوالي 12 كيلو متراً تقطعها على كورنيش البحر. وهي مدينة يسكنها العرب واليهود. هل أنا في حاجة لأن أقول إن يافا مدينة جميلة ومن أقدم الموانىء في التاريخ. في مدخل المدينة يوجد بناء كبير أشبه بالحصن يطل على الشاطىء من فوق تل مرتفع.. تناثرت

حوله بعيداً عن الشاطىء بيوت حجرية تظنها متاحفاً لفرط جمالها. أما المدينة من الداخل فبيوتها متواضعة غالبيتها من طابق واحد أو طابقين.

في الجزء السياحي تشعر بنسيم البحر المنعش وقد اختلط برائحة التاريخ القوية. في نتانيا وفي تل أبيب تشعر أنك في أماكن شيدت بالأمس فقط، أما هنا في يافا فأنت تشعر بجلال وعظمة القديم.

حتى الآن تحركت من خلال ثلاثة مواقع ولكني بدأت اكتشف أخطر أسرار السلام: السياحة.

السياحة تتطلب إبداعاً لا يقل عن إبداع الحرب.. وإذا كانت الحرب هي فن تدمير الحياة، فإن السياحة هي فن الحفاظ عليها. هي عبقرية الإدارة والانضباط والحفاظ على البيئة وتجميلها وصيانتها بكل ما أوتى البشر من جهد وقوة وتصور للجمال. السياحة تتطلب انضباطاً في آليات المجتمع نفسه، ولكنها بدورها تعود وتساهم في تدعيم هذا الانضباط بعد أن يتحول العائد منها إلى مصدر للقوة والخير لكل أفراد المجتمع إذا كانت المعرفة هي مصدر الثروة الوحيد على الأرض الآن، حيث إنه من خلالها تستطيع استغلال مصادر الثروة الطبيعية في الأرض والبحر الهواء على نحو يأتي بالخير للبشر، وإذا كانت النصيحة القديمة هي: اعرف نفسك، فلا بد أن تكون النصيحة الجديدة هي: اعرف خريطة السياحة في بلدك وقدّمها للآخرين. قدمها محاطة بالإبداع والجمال. وليكن سلوكك في عظمة آثارك.

في يافا وفي أول شارع «يفت» الشارع التجاري الوحيد في المدينة يوجد مخبز صغير تحول إلى ظاهرة ومزار سياحي، صاحبه يسمى «أبو العادية» ستجد طوابير من السياح واقفين أمامه على الرصيف يأكلون على الواقف قطعة بقلاوة أو كرواسان أو كحكة. لقد حولوه بواسطة الدعاية

في المنشورات السياحية من مجرد شخص يتقن مهنته إلى مصدر من مصادر الثروة الطبيعية. وتم استغلال اسمه سياحياً وكأن من يأكل عنده سيزداد عافية.

- حتى الآن لم أشاهد سيارة فخمة مثل الشيخ أو البودرة أو حتى مع أن الطرق تصلح للسيارات التي بحجم السفن، أنا أعرف أنهم سيعرفون عني أشياء كثيرة. ولكن كيف تمكنت المخابرات الإسرائيلية من إخفاء هذه السيارات أو إبعادها عن طريقي أو أنهم لا يركبون هذه السيارات أصلاً لأنهم بخلاء؟ أو لأنهم يخشون الحسد؟

لا يجب التسرع في الإجابة، لنتركها للباحثين، ولكن إذا كان لي أن أقول ما توصلت إليه فهو أن الفخامة هنا عامة، وليست خاصة. في الغالب لا توجد أسباب هنا تدفع المواطن لأن يزهو على الآخر بفخامة سيارته أو فخامة قصره. ومع ذلك فالسيارات هنا تكاد تكون كلها جديدة وفي حالة جيدة، طبيعة الطرق الجبلية تحتم وجود "مواتير" قوية، باختصار هم يستخدمون السيارات فقط للانتقال من مكان لآخر.

مرات قليلة للغاية تلك التي شاهدت فيها سيارة قديمة بشكل ملحوظ، باستثناء سيارتي بالطبع التي حازت على إعجابهم بشكل خاص، هم لا يتصورون أن سيارة موديل 1980 مسموح لها بالسير في النظام العالمي الجديد، لذلك حرص الجميع على التقاط صور تذكارية لها وأنا واقف بجوارها أقصد وهي واقفة بجواري بعد أن أصبحت أكثر شهرة مني.

* * *

جولة على الأقدام مع ساسون في يافا ثم غداء في مطعم سمك عربي على الشاطىء، طلبت سمك بوربوني صغير مقلي وأرز أبيض.

كنت أشعر على نحو غامض بأن هناك علاقة تمتد لآلاف السنين بين دمياط بلدي ويافا، وأن هذه العلاقة لا بد أن تنتج تشابهاً في طريقة طهو السمك والأرز، وبالفعل جاءت الطلبات وكأن سيدة دمياطية هي التي أعدتها. بعد ذلك وفي مطعم بيت الكتاب سيدة بتل أبيب دعتني كارين وزوجها للغداء فطلبت بوري مشوي وأرز، بعدها تأكدت أن الدمايطة كانوا هنا من عصور سحيقة.

عدنا من يافا، تركت ساسون بالقرب من منزله في تل أبيب وطلب مني أن أستمر على الطريق السريع إلى نتانيا. لن أتوه هذه المرة بالطبع بعد أن عرفت المخرج من الطريق السريع. دخلت نتانيا. من مدخل آخر على الطريق، وجدت نفسي في شارع لم أسر فيه من قبل، لم أشعر بالقلق فقد كان البحر على شمالي، والفندق في نهاية الأمر قريباً من الشاطىء.

عودتي وحدي ووصولي للفندق بلا مفاجآت أشعرتني بقدر من الثقة بالنفس كنت في حاجة إليه.

# دير الراهبات البيض

دفعت حساب الفندق وأخليت الغرفة ووضعت حقائبي في مخزن صغير ملحق بمكتب الاستقبال. خرجت وتجولت قليلاً على الشاطىء إلى أن يحين موعدي مع ساسون وكارين في الحادية عشرة صباحاً. ذهبنا إلى حيفا بسيارة ساسون. المسافة تستغرق أقل من ساعة. زرنا صديقين لساسون يعملان في جامعة حيفا، الأستاذ يوسف وزوجته وهما من عناصر السلام النشطة. تجولنا قليلاً في حيفا، سكان الوديان يشعرون بانبهار عند رؤية المدن الجبلية.

كلمة جبل عندنا نحن سكان وادي النيل تعني المكان الموحش الذي يسكنه المطاريد والوحوش. لذلك من الطبيعي أن يستولي علينا قدر كبير من الذهول والإعجاب عندما نرى الجبال وقد تحولت لحدائق وشوارع نظيفة وبيوت أنيقة.

من مكان مرتفع أخذ مضيفانا يشرحان لنا خريطة المدينة.. هذا هو الميناء، في أقصى الشمال. هذه هي حدود الجنوب اللبناني.. وهذه التلال التي تراها بوضوح هي مرتفعات الجولان. طلبت منهما أن نتناول الطعام في مطعم عربي شعبي بسيط، فعهدي بالمطاعم الفخمة المخصصة للسياح أنها تبيع الفخامة فقط. كان هذا ما فكرا فيه فعلاً. المطعم أشبه بالعنبر الكبير أو بالميس، مجرد موائد ومقاعد وقد امتلأ عن آخره بالبشر، اتضح أنه كان أحد مباني قيادة القوات البريطانية أثناء فترة الانتداب. الكفتة هنا يسمونها كباباً، والكباب يسمونه شقف لحم. في الغالب ستمضي عدة مئات من السنين قبل أن يتمكنوا من صنع كباب وكفتة تضاهي ما نقدمه في مصر. بشرط الاستعانة بخبراء مصريين مع

بذل جهود مكثفة لتوحيد المصطلح في هذا المجال.

عندهم طبق يسمى «المجدّرة» مصنوع من الأرز والعدس «أبوجبة» في الغالب هذا الطبق توقف في مكانه على سلم النشوء والارتقاء منذ آلاف السنين. أقصد أنه لو كان قد سُمح لهذا الطبق أن يتطور تطوراً طبيعياً في ظروف حياتية مبدعة ومستقرة. لتحول في النهاية لطبق الكشري المصري الشهير.

ما ضايقني في المطعم هو صاحبه نفسه، يبدو أن امتلاء مطعمه بالبشر أصابه بنوع من التعالي جعله يقول إنه لم يستمتع بالأكل في القاهرة. عموماً للناس فيما يأكلون مذاهب.

* * *

غادرنا حيفا في موعد مناسب لنصل إلى ناتانيا في الرابعة بعد الظهر وهو موعدي مع سليمان ليأخذني إلى قرية أم الفحم، قال سليمان: ستسير ورائي.. أريدك أن تتنبه عند العفّولة.. سنسير في نفس الشارع الذي وقع فيه الحادث منذ يومين.

ـ أي حادث؟

* ألا تعرف..؟! سيارة ملغومة اصطدمت بأحد الأتوبيسات وتسبب الانفجار في إصابة الكثيرين وقتل عرب ويهود.. أحد الشبان لغّم نفسه وملأ السيارة بالمتفجرات ثم توقف فجأة أمام الأتوبيس فاصطدم به..

ـ ألا نستطيع الالتفاف حول الشارع والذهاب من طريق آخر؟

* لا.. لا بد من المرور من نفس الشارع في طريقنا لأم الفحم.

وقع الحادث يوم الأربعاء، وأنا دخلت إسرائيل يوم الخميس. هذا هو

إذن السبب في ذلك التوتر الشديد الذي أصاب جنود الموقع عند الحدود. وهذا هو أيضاً السبب في توتر بعض السائقين وشعورهم العدائي تجاهي أحياناً. كانوا يضغطون على آلة التنبيه لمجرد أنني اقتربت من الخط الأبيض المنقطع على الطريق السريع. وفي طريق الكورنيش من تل أبيب ليافا، حدث عدة مرات أن شعرت من الطريقة التي يكبسون بها عليّ أنهم يريدون اكتساحي من أمامهم، مع أني كنت أسير بالسرعة التي أرى أن إيقاع الشارع يحتمها. وهذا هو أيضاً السبب في اهتمام الشرطة في نتانيا وحرص الضابط على كتابة ورقة لأعلقها على زجاج السيارة.

يا إلهي. كنت أتحرك كل ذلك الوقت في حضن الخطر دون أن أدري.

السيارة التي انفجرت في العفّولة لم تكن تحمل لوحة الأرقام السوداء التابعة للضفة، كانت مسروقة من إسرائيل وتحمل الأرقام الإسرائيلية الصفراء، ولكن من المعروف طبعاً أن هؤلاء الذين تلسعهم الشوربة ينفخون في الزبادي، والزبادي هنا هو سيارتي ذات اللوحة السوداء والأرقام العربية.

في مكان الحادث في العفّولة، أقام عدد كبير من الشباب عدة خيام على الرصيف وكأنهم يقيمون سرداقاً للعزاء في نفس الموقع. ولكن المرور لم يكن متوقفاً، هم لا يوقفون السيارات، حتى لو تنبّه أي متطرف إلى أن سيارتي عربية، سأكون قد ابتعدت عن المكان قبل أن يفكر في إلحاق الأذى بي. تنفست الصعداء عندما غادرت العفّولة.

أم الفحم قرية عربية صغيرة يسكنها عدة آلاف، حوار ضيقة متشعبة صاعدة في الجبل بزوايا حادة. كيف كان الناس يصعدون إلى منازلهم قبل اختراع السيارات. شعرت أحياناً أنني أتسلق حائطاً بسيارتي، لن تشعر بالغربة في أم الفحم فهي لا تختلف كثيراً عن أي مدينة صغيرة في

البحيرة أو المنوفية.

في مدخل القرية هناك شعار القرية، إبريق كبير من الصلب الذي لا يصدأ أقيم على تل مرتفع. إنه إبريق الوضوء. أقامه عمدة القرية الذي هو أيضاً رئيس بلديتها، كما أقام لافتات كثيرة صغيرة متناثرة على قوائم حديدية تحمل شعارات دينية. من الواضح أن هناك من لا يوافقه على اتجاهه فحطّم له بعض هذه اللافتات. هو بالطبع متدين معتدل ومستنير ومؤمن بالديموقراطية بدليل وصوله لمنصبه بواسطتها. من أجل أن يهتم بعناصر الحياة في القرية، طرق، تعليم، صرف صحي، نظافة، فرص عمل، ولكنه خلط بين اختصاصاته واختصاصات إمام القرية، فضيع وقته جزءاً كبيراً من ميزانية القرية في تأهيل أهل القرية للتعامل مع الآخرة، تاركاً الاهتمام بهذه الحياة الدنيا للآخرين من رؤساء بلديات المدن الكافرة.

طلبت من سليمان أن يحجز لي فندقاً في الناصرة لمدة ثلاث ليال ابتداء من صباح الغد. بحث في دليل التليفون ثم اتصل بفندق يسمى (سانت جابرييل) اسألهم بكام يا سليمان؟

- بخمسة وثلاثين دولار.

* كتير يا سليمان.. نحن الآن في الوقت الميت من الموسم..

طبعاً أنا لا أعرف الوقت الميت والوقت الصاحي في المواسم السياحية في الناصرة، ولكن لا بأس من استخدام المصطلح من أجل الحصول على تخفيض.

عاد سليمان يتكلم في التليفون: خمسة وثلاثين كثير.. كفاية ثلاثين.. حضرتك اسمك إيه؟ مريم..؟ أهلاً وسهلاً.. طيب يا مريم.. سنأتي غداً صباحاً.

قضيت الليلة عند سليمان وفي الصباح استيقظ هو مبكراً فلديه

عمل يؤديه في القدس وطلب من أخيه محمد أن يسير أمامي بسيارته إلى الناصرة. وأنا خارج من أم الفحم توقف موتور السيارة عدة مرات، حدث انسداد في «بيك السلانسيه» بسبب ذرة تراب. وهو عيب بسيط وسخيف ولكنه قد يكون قاتلاً هنا، فالطرق جبلية صاعدة وهابطة وعدم التحكم في السيارة للحظة واحدة بسبب توقف الموتور قد تنتج عنه كارثة.

نبه محمد بأضواء الفلاشر أنني سأتوقف، طلبت منه أن يذهب لأول ميكانيكي، بعد دقائق تمكنت من شرح العيب للميكانيكي، مفردات ميكانيكا السيارات في مصر فرنسية وهنا إنجليزية وأخيراً قال لي: آه.. آه.. أنت تقصد الدورة الهادية.

- بالضبط.. الدورة الهادية للموتور هي ما نسميه بالسلانسيه..

قام بنفخ «البيك» بماكينة هواء يدوية، راجع مياه الرادياتير والبطارية، جاء بزجاجة بها مادة مانعة للصدأ، وضع قليلاً منها في الرادياتير وأعطاني الزجاجة، راجع زيت الفرامل والدبرياج، طلبت منه أيضاً أن يشد فرامل اليد، نحن في مصر لا نستخدم فرامل اليد أثناء القيادة إلا نادراً، ولكن في الطرق الجبلية لا بد أن تكون صالحة للعمل بكفاءة عالية. رفض أن يحصل مني على مليم واحد فأعطيته كتاباً من كتبي، في أحيان كثيرة أنا أستخدم كتبي بديلاً عن العملة.

مرة أخرى أمر من نفس الشارع المنكوب في العفّولة، المرور متوقف هذه المرة، هناك زحام كبير عند موقع الحادث، ولكني كنت أشعر بقدر من الاطمئنان بعد أن عرفت أنه على بعد أمتار توجد نقطة الشرطة والإسعاف والمطافىء والمستشفى وهذا هو ما ساهم في إنقاذ عدد كبير من الضحايا بسرعة.

* * *

هذه هي الناصرة إذن. كم هي جميلة. الطمأنينة والطيبة ترتسمان بوضوح على كل وجوه البشر، لا تقاطيع متوترة أو مشدودة.

فندق «سانت جابرييل» كان ديراً من قبل. كان يسمى دير الراهبات البيض، وهو مبنيّ على قمة جبل يشرف على مدينة الناصرة. الرهبان عادةً يختارون مكاناً مرتفعاً وبعيداً لبناء الأديرة، الارتفاع والبعد يشكلان الفكرة الأساسية في اختيار المكان الذي يبنى فيه الدير، الارتفاع يشعرك بالاقتراب من السماء، والبعد يجسد فكرة الابتعاد عن خطايا البشر.

ولكن البشر يتكاثرون ويزحفون على كل مكان. وهنا يفقد الدير فكرتي البعد والارتفاع ولا بد من تحويله لشيء آخر. دعاني الشاعر سميح القاسم إلى مطعم في وسط الناصرة كان ديراف هو الآخر. لقد نزلت في أسفاري في فنادق كثيرة ولكني شعرت هنا براحة لم أشعر بها من قبل. وكأن الرهبان الذين سكنوه من قبل تركوا بين جدرانه قبل أن يرحلوا كل ما كان عندهم من رقة وطيبة. أمر واحد كان يضايقني، كنت وحيداً.

الوحدة مطلوبة عند الإبداع أو في معارك التحدي، أو في الظروف السيئة، ولكنها تفقدك الاستمتاع بكل ما هو ممتع.

في مكتب الاستقبال يستلفت نظرك طقم (أنتريه) عربي جميل، فتاة عربية في مكتب الاستقبال حضرتك مريم؟

- نعم.

* أنا فلان.. وقد تكلمنا معك بالأمس..

- أهلاً وسهلاً..

* يا مريم يا أختي.. الثلاثين دولار كتير.

- خلاص نخليهم ثمانية وعشرين.

* برضه كتير يا مريم يا حبيبتي..

ابتسمت الفتاة في رقة وطيبة وقالت: عاوز تدفع كام؟

ـ عاوز أدفع خمسة وعشرين..

* خلاص.. نخليهم خمسة وعشرين.

عوملت في الفندق معاملة كريمة، عندما كنت ألتقي ليل نهار بأي شخص من العاملين كان يسألني: تشرب قهوة؟ لقد لاحظوا في البداية أنني (كييف) قهوة، ويبدو أنهم خشوا أن يمنعني سعرها المرتفع من طلبها بالكثرة الواجبة، بشكل عام كانوا على وعي بأن الأسعار هنا لا تناسب المصريين وذلك من خلال زياراتهم المتكررة لمصر. وبالمناسبة أنا أعتقد أن أي شعب بحاجة لأكبر كمية من الشر ليكره المصريين، لا أقول ذلك لأنني مصري، ولعلي أقوله لأنني مصري.

عندما غادرت الفندق قالت لي مريم: أستاذ علي، أنا حزينة جداً لأن صاحب الفندق ليس هنا.. هو يحب مصر جداً، طبعاً نحن جميعاً نحب مصر ولكنك لا تتخيل حبه لها.. أنظر، هذا الأنتريه العربي من مصر. هذه المقاعد من مصر.. تجحهيزات الغرف والمطعم أغلبها من مصر.

اتصل بي ساسون وأخبرني أن جريدة كل العرب التي يرأس تحريرها سميح القاسم سترسل لي محررها الأدبي سليمان أبو ناطور لإجراء حوار معي، بعد ذلك بدقائق أبلغني موظف الاستقبال أن صحفياً اسمه فايز عباس اتصل وقال إنه في طريقه للفندق.

ـ فايز عباس.. من أي جريدة؟

* أعتقد أنه يعمل في جريدة كل العرب.

يبدو أن المحرر الأدبي أرسل شخصاً آخر، فايز، شاب له لحية كثيفة ويرتدي نظارة قاتمة، اللحية الكثيفة والنظارة تحولتا لقناع ثقيل يخفي عنك حقيقة شعوره تجاهك، فتظل تشعر طول الوقت أنه بعيد عنك..

ـ لماذا أنت هنا؟

* أنا هنا لدعم اتفاقية أوسلو، ودعم السلام الفلسطيني الإسرائيلي، ولأعرف الناس عن قرب.

ـ ولماذا بالسيارة؟

* لإعادة تذكير الناس بأن بينا وبينكم حدوداً مشتركة.. وأننا قريبون منكم وأنتم قريبون منا وأنه لا بد من صنع السلام من أجل حرية الإنسان الفرد وحقوقه بما هو إنسان وليس بما هو يهودي أو مسلم أو مسيحي أو يدين بأي دين آخر..

ـ هل هذا أمر سهل..؟

* لا.. هو صعب للغاية.. وقد يكون داخلاً في دائرة الأحلام، ولكن كل ما حققه البشر على الأرض كان يبدو يوماً ما حلماً مستحيلاً..

دعاني فايز للغداء، في مطعم الفندق فطلبت منه أن يغير موقع الدعوة، لمجرد التغيير: لماذا لا تدعوني إلى مطعم في البلدة؟..

ـ وقتي ضيق.. ولدي مواعيد كثيرة..

* حسناً لنؤجلها.. ولكن من فضلك لدي عدة كتب أرجو توصيلها لسميح القاسم.. أنت عائد الآن للجريدة طبعاً..

ـ لست أعمل في جريدة كل العرب.

* أليس هذا الحوار لكل العرب؟

ـ لا.. هو ليديعوت أحرونوت.

* حسناً.. هل تتفضل بأن تأخذني معك في طريقك وتتركني أمام الجريدة.

تبخرت دعوته للغداء بسرعة البرق، لم يكافح من أجل تحقيقها، أوصلني إلى مبنى الجريدة وأشار إلى الطابق الذي تحتله ثم مضى في

طريقه ولم أشاهده بعد ذلك. عندما أتذكره أشعر بالدهشة. لماذا لم أشعر تجاهه بالود؟!

سميح القاسم شاعر كبير مشهور وشخص يتسم بالرقة والعذوبة والوسامة. يبدو مستمتعاً بحياته، حاضر الذهن دائماً وقدرته على تلخيص فكرته مذهلة. عندما تراه تشعر أنك تعرفه منذ زمن طويل، وأنه تربطك به علاقة طويلة قوية. هو صديق لك باعدت بينكما الأيام، كانت المرة الأولى في حياتي التي أراه فيها فأحببته. قال سميح: المثقفون عندكم لا يريدون زيارة إسرائيل.. من طلب منكم زيارة إسرائيل؟ زورونا نحن.. زورونا في وطننا.. هذا هو الوطن. نحن نعيش هنا في وطننا.. عندما زرت مصر سألوني عن انطباعي فقلت لهم: انتقلت من وطن إلى وطن.

تناولنا الغداء معاً في مطعم ماريا فونتانا الذي كان ديراً من قبل، سميح من النوع الذي تحب أن تتناول طعامك وشرابك معه. من الصعب العثور على مثقف يفتح شهيتك للطعام، عدنا للجريدة، طلب من محمود أبو رجب سكرتير التحرير توصيلي للفندق..

في المساء جاء محمود ومعه زوجته، أجرى معي حواراً طويلاً، ثم أخذني إلى بحيرة طبرية.

السياحة مرة أخرى، هي بحيرة كبيرة تحتضنها المطاعم والفنادق والكازينوهات والناس ساهرة حتى الصباح. أعادني إلى الفندق في الواحدة بعد منتصف الليل، أشعر بالإعياء، هناك كيس دهني في رقبتي، لم يكن يؤلمني لشهور طويلة، فنسيته أو تناسيته، فجأة التهب بشكل ينذر بالخطر، لا بد من الذهاب لطبيب، طلبت من محمود أن يأخذني في الصباح إلى طبيب.. يبدو أنني مريض فعلاً فقد عجزت عن النوم من شدة الألم..

# زرونا في العمر مرة

من مكتبه بجريدة «كل العرب» حاول محمود، الاتصال بطبيب صديق له ولكن رقمه كان مشغولاً باستمرار فطلب مني أن نتوجه للعيادة. هي مستوصف تابع للهستدروت. لم يجد الطبيب الذي يعرفه وترتب على ذلك أن جلست في انتظار دوري ولكنه همس في أذن الممرضة: معي زميل مصري.. فاهتمت الممرضة ثم اشتعلت اهتماماً وحماساً هي وبقية طاقم الممرضات والحكيمات عندما همس في أذنها وكأنه يفشى سراً خطيراً: هو مؤلف مسرحية مدرسة المشاغبين.

بالرغم من الألم الذي كنت أشعر به إلا أنني كنت أشعر بقدر من السرور لمروري بالتجربة، تجربة الدخول في عيادة شعبية في الناصرة، هي فرصة للتعرف على التكنولوجيا الطبية الحديثة التي تستخدمها إسرائيل في التعامل مع الدمامل. ترى، هل توصلوا لاختراع يوضع على الدمل فيختفي على الفور؟.. سنرى.

# محمد مصطفى «هكذا رأيت إسرائيل»

الكاتب الصحفي محمد مصطفى هو مؤسس ورئيس المركز المصري للاعلام ومدير مكتب جريدة السياسية الكويتية بالقاهرة، وكان أحد الكتاب في أهم وأبرز الصحف والمجلات المصرية والعربية حيث عمل بالصحافة لأكثر من 35 عاماً. وله أكثر من 20 مؤلفاً أهمها كتاب، "هكذا رأيت إسرائيل، و "لو كنت وزيراً للداخلية،. و،لقاء مع نجوم الصحافة العربية،. كما أصدر دليل مصر السياحي برعاية وزارة السياحة المصرية وكان أول إصدار من نوعه في ذلك الوقت وفاز بجائزة ،مصطفى أمين، لأحسن التحقيقات العربية.

* * *

سؤال كبير يطرح نفسه على الساحة العربية بإلحاح.. ترى هل حدث كل هذا الذي حدث فجأة وبدون مقدمات من مباحثات ،أوسلو، وما أعقبها من اتفاق ،غزة - أريحا،.. هل كان ذلك كله صدفة؟!..

اتفاقية السلام بين الأردن وإسرائيل هل حدثت فجأة وبدون مقدمات هي الأخرى؟.. أم أن كل ما حدث وما يحدث بل ما سيحدث أيضاً هو مجرد سيناريوهات أعدت مشاهدها وأدق تفاصيلها في دهاليز وكواليس المطبخ السياسي الأمريكي؟!..

إن الكثيرين يراهنون أن اتفاقاً سورياً - إسرائيلياً سيتم توقيعه عن قريب، وعندما توقع سوريا مثل هذا الاتفاق مع إسرائيل لتسترد من خلاله (الجولان) فإن مشاكل الحدود اللبنانية الإسرائيلية سوف تختفي تماماً..

كما يرى هذا الفريق أن إسرائيل تحارب سوريا من الأراضي اللبنانية..

ويتساءل أنصار هذا الرأي ثم ماذا بعد ذلك؟ ما هي الخطوات التالية؟

وما هو مستقبل المنطقة بعد أن تتسع دائرة اتفاقيات السلام بين إسرائيل وجيرانها خاصة بعد الأخبار التي ترصد غزلاً عراقياً. إسرائيلياً تجري تفاصيله في سرية تامة، وان تسللت بعض الأخبار والخبايا.. فالعراق الذي يعاني العزلة السياسية والاقتصادية. عربياً ودولياً يشعر شعبه وقيادته بإحباطات كبيرة.. وبالمناسبة فقد سمعت أثناء زيارتي إلى إسرائيل الكثير من الجدل حول صواريخ سكود التي أطلقها العراق إبان غزوها الفاشم للكويت. تلك الصواريخ التي أكد لي العديد من الإسرائيليين أن بعضها كان محشواً بالحجارة والغريب أن معظم تلك الصواريخ أسقطت على قرى يسكنها يهود عراقيون!!..

إن إسرائيل استفادت أيما استفادة من سقوط هذه الصواريخ عليها والتي لم تصب شخصاً وإن هدمت بعض المنازل التي تلقت إسرائيل على أثرها تعويضات أمريكية تفوق بكثير الخسائر المحدودة جداً من جراء قصف هذه الصواريخ (الفشنك). وللانصاف أقول أنه عند حديثي مع العديد من عرب فلسطين في القدس والضفة والقطاع قالوا إنه عند بداية سقوط طلائع صواريخ العراق انتابهم شعور بالفخار. والنشوة فقد كانت المرة الأولى التي يرون فيها السلاح العربي يوجه إلى داخل العمق الإسرائيلي.. ومع مرور الوقت تبدلت مشاعر الفخر إلى مشاعر (القهر) عندما اكتشفوا تواضع مستوى هذه الصواريخ عندما انحرفت عن أهدافها وسقطت بعيداً عنهم دون انفجارات مؤثرة تذكر إضافة إلى تسليح بعضها (بالحجارة)..

ويتندر البعض ساخراً.. لعل صدام قد أدرك أن أطفال الحجارة قد استهلكوا في ثورتهم ضد إسرائيل (الانتفاضة) كميات كبيرة من حجارة الأرض المحتلة فأراد أن يرسل لهم هذه الصواريخ المحملة بالحجارة ليواصلوا نضالهم.. وينظر فريق آخر من الإسرائيليين إلى القذف الصاروخي العراقي لإسرائيل من منطلق ضرورة إعادة النظر في كل ما يتعلق بنظريات الأمن الإسرائيلي وأهمية الأرض والحدود في تحقيق (الأمن) على ضوء اختراق هذه الصواريخ مساحات كبيرة من الأراضي الإسرائيلية إلى الأماكن التي سقطت فيها.. مهما يكن من تفسيرات هذا الفريق أو ذاك عن المواقف العراقي تجاه إسرائيل فإن معلومات شبه مؤكدة تتحدث عن قرب تطبيع علاقات عراقية إسرائيلية..

* * *

ونمضي مع القضايا الجدلية التي أفرزتها اتفاقيات السلام العربية الإسرائيلية وما تضمنته من اعترافات متبادلة بين أطرافها لتتوقف عند قضية «السوق الشرق أوسطية».. تلك القضية التي تختلف مواقف أطرافها كل حسب مصالحه وأهدافه.. فإسرائيل تسعى بدأب لقيام هذه السوق حيث حاجتها الشديدة لتحقيق تبادل تجاري بينها وبين جيرانها بل والمنطقة العربية بأسرها حيث الأسواق المترامية والقوى الاستهلاكية الكبيرة لمنتجات تسعى إسرائيل لترويجها، ومن ثم فهي لا تدخر جهداً في سبيل الاختراق الاقتصادي لدول المنطقة، والذي بدأ بالفعل تجاه دول الجوار عبر صيغ وأساليب معقدة وأحياناً من خلال أطراف وسيطة ـ دول ومؤسسات..

إن العزلة الاقتصاديئة التي تفرضها الدول العربية على إسرائيل تجعلها في وضع اقتصادي حرج والانفتاح الاقتصادي العلني على المنطقة العربية سيحدث انتعاشاً كبيراً للصادرات الإسرائيلية ومن ثم انفراجاً اقتصادياً تظل إسرائيل بأمسّ الحاجة لتحقيقه.

ومن ناحية أخرى فإن عدداً غير محدود من الدول العربية ينظر في حذر شديد لهذه السوق خشية الاختراق الإسرائيلي للأسواق العربية والذي سيحدث ولا شك تأثيراً سلبياً على المنتجات العربية، ومن هنا تسعى هذه الدول لتأجيل فكرة إقامة السوق الشرق أوسطية خاصة أن بعض المنتجات الإسرائيلية تتميز بتطور نسبي في مجال تصنيع الالكترونيات والآلات الزراعية وغيرها.. ويضاعف من خطر قيام هذه السوق حالة (التشرذم) التي تعيشها الأقطار العربية، والتي تغيب معها احتمالات قيام تكامل اقتصادي عربي أو تحقيق حلم قيام سوق عربية مشتركة أو ما يشبه ذلك من تكتلات اقتصادية عربية حقيقية في إطار نظام دولي جديد لا مكان فيه للكيانات الهزيلة..

وفي إسرائيل استمعت إلى العديد من الآراء حول السوق الشرق أوسطية.. إيلي افيك - موظفة بالإدارة العربية بوزارة الخارجية الإسرائيلية - سألتني رأيي في هذا السوق.. قلت أنا أراها سابقة جداً لأوانها وأنه لا بد أن يسبقها (سوق عربية مشتركة) هذا هو الأمر الطبيعي الذي تقرره حقائق التاريخ والجغرافيا بل والاقتصاد أيضاً. فنحن العرب لدينا موارد كبيرة جداً ولا ينقصنا سوى التنسيق فيما بيننا وهو أمر سيفرضه علينا حتماً الواقع في المستقبل القريب.. أما التعاون الاقتصادي العربي الإسرائيلي فلا يزال أمامه وقت طويل.. طويل جداً.

ردت إيلي بغضب وحدّة: «ولماذا لا يكون الآن.. الآن وليس غداً..

وأردفت قائلة: اسمع لي أن أقول لك أنك متعصب.. فإذا كنت بالأمس تكره إسرائيل بحجة حروبها مع العرب فماذا تقول اليوم في ظل السلام المقبل والمعاش بيننا وبينكم».

قلت بهدوء: «دعيني أصارحك فأنا بالفعل لم أحب إسرائيل يوماً ما.. لكن ذلك ليس سبب ما أطرحه من آراء حول عدم ملائمة قيام سوق شرق أوسطية في الوقت الحالي.. إنني أتفهم دوافعكم في سرعة قيام التطبيع الاقتصادي مع الدول العربية وأعرف أيضاً أن بعض البضائع تتسرب إلى الأسواق العربية لكنها تأتي عبر وسطاء ليسوا إسرائيليين . شركات من دول مختلفة . وحتى يسمح لهذه السلع أن تدخل الأقطار العربية فلا بد من تغيير اسم بلد المصنع. وهذا أكبر دليل على رفض المستهلك العربي لإسرائيل من خلال منتجاتها.. أنا لا أذكر أن قليلاً من السلع الإسرائيلية تباع في الأسواق العربية، ومنها مصر ولبنان، ولكن معظمها يدخل في الظلام أحياناً. إنه الحاجز النفسي الكبير الذي خلفته صراعات سنوات طويلة وبحور من الدم وآلاف من الضحايا..».

* * *

في جامعة حيفا وجدت نفسي محاطاً من أساتذة قسم الدراسات العربية الذين دعوني إلى الغداء الذي أعدته إحدى السيدات المغربيات اللاتي هاجرن إلى إسرائيل.. أخذت السيدة أثناء إعداد المائدة تسألني عن مصر في شغف وفضول، والحق أقول فقد كانت هذه السيدة ودودة للغاية..

وأثناء تناول الطعام فتحت العديد من المناقشات حول السلام

المصري الإسرائيلي ومستقبل التطبيع وأخذ البعض يسألني عن رأيي في اتفاقية غزة - أريحا، ومستقبل السلام في المنطقة..

ومن جانبي رحت أعدد مخاوفي وتحفظاتي من أن تتراجع إسرائيل في وعودها أو أن تتجع في تفسيرات بنود الاتفاقيات التي توقعها، وكنت أقرأ الدهشة في العيون من حولي.. قال أحدهم: من قال إن إسرائيل هي التي تخلف الوعود والمعاهدات.. إنني أضرب لك مثلاً بما يحدث في معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية.. لقد انسحبنا في الوقت المحدد من كل سيناء وحتى عندما وقعت مشكلة طابا امتثلنا للتحكيم الدولي وتركنا طابا.. وعلى مر السنوات التي أعقبت الانسحاب الإسرائيلي من سيناء لم نسمع عن مشكلة حدودية بل على العكس فإن العلاقات المصرية الإسرائيلية على الصعيد الرسمي والدبلوماسي تشهد تقدماً مضطرداً.

وهب أستاذ آخر يسألني:

ما هو تفسيرك لقلة الاعداد التي تأتي إلى إسرائيل من المصريين في الوقت الذي تشهد فيه حركة السياحة الإسرائيلية الوافدة إلى مصر ازدياداً مستمراً.. بصراحة لماذا يبدو التطبيع المصري الإسرائيلي بارداً؟

وقبل أن أجيب اقترب مني رجل في العقد الخامس من عمره وعرفني بنفسه على أنه مندوب الإذاعة الإسرائيلية في حيفا وسألني: هل لديك مانع أن أنقل إجابتك عبر برنامج خاص يتحاول مع زوار إسرائيل؟.. قلت: ولم لا ولكن هل تستطيع أن تذيع ما سأقوله دون حذف أو مونتاج؟ قال: طبعاً فنحن في إسرائيل لدينا ديمقراطية مساحتها تتسع لكل الآراء.. وهنا أعاد طرح السؤال من جديد: لماذا يبدو التطبيع المصري الإسرائيلي.. بارداً؟!..

قلت: «إنني أتعجب من حديثكم عن التطبيع.. أي تطبيع هذا الذي تتحدثون عنه وأراضٍ عربية تحتلونها وتمارسون على أصحابها أبشع أنواع الاضطهاد.. هل نسيتم أنكم تمتلكون الضفة الغربية والجولان وغيرها من الأراضي العربية؟!.. أي تطبيع هذا الذي تتحدثون عنه والجنوب اللبناني يقذف كل يوم بوحشية؟!.. إن الأرض العربية والإنسان العربي من المحيط إلى الخليج كل لا يتجزء، وكذلك فإن المشاعر والوجدان العربي كل لا يتجزء.. لذلك فإننا في مصر نتضامن مع كل أشقائنا العرب ونتأثر بما يصيبهم من قمع واحتلال وتنكيل وهذا بالضبط ما تمارسه إسرائيل على أشقائنا الفلسطينيين في الأرض المحتلة».

كنت أتفحص الوجوه حولي وأحاول استقراء ردود الفعل لكلماتي.. لكنني عبثاً استطعت أن أرصد أي تأثير على تلك الوجوه التي اعتادت على ما يبدو أن تبتسم، وفي كل الظروف.. عاد المذيع يسألني من جديد: إذن كيف تنظر إلى مستقبل التطبيع المصري الإسرائيلي بمعنى آخر متى يصبح دافئاً؟.. قلت: «ربما عندما تجلو إسرائيل عن كل الأراضي العربية التي احتلتها بعد 1967م وتفسح المجال لقيام دولة فلسطينية.. وربما أيضاً بعد أن تتخلى إسرائيل عن اضطهاد المواطنين العرب في الأراضي المحتلة والتنكيل بهم.. هكذا نرى أنه لا يزال هناك طريق طويل على إسرائيل أن تسير فيه.. ووقتها سيكون هناك حديث آخر..».

قلت الكثير في هذا البرنامج وجلست في اليوم التالي وفي الموعد المحدد استمع لحديثي من القسم العربي في الإذاعة الإسرائيلية. وكم كانت دهشتي أن الحديث أذيع كاملاً دون حذف حرف واحد!

وأذكر أثناء المناقشة التي دارت في جامعة حيفا بيني وبين عدد من أساتذة الجامعة أن وجهت سؤالاً لكبيرهم قائلاً أرجو أن تفسر لي

أسباب استمرار إسرائيل في حروب دامية بينها وبين العرب طوال سنوات طويلة.. كانت دعواها خلالها أن تلك الحروب بهدف تحقيق الأمن لدولة إسرائيل.. ألا ترى معي أنه رغم آلاف الضحايا لم يتحقق لإسرائيل هذا الأمن المزعوم؟..

بدأ الرجل وغيره من الأساتذة يتكلمون لكن أحداً منهم لم يستطع أن يقدم إجابة شافية عن هذا السؤال..

ومن هذا الحوار الطويل خرجت بانطباع أن كثيراً من الإسرائيليين يشعرون الآن أن الحلم الصهيوني (إسرائيل الكبرى) لم يعد حلماً قابلاً للتحقق على المدى المنظور.. والبعض يصفه بأنه حلم أحمق كاد يتسبب في تدمير إسرائيل نفسه؟ ولا شك.. أن الانتفاضة وما خلفته من آثار لدى الإسرائيليين قد ساهمت في وجود حالة التوتر الذي أصبح يسود النفس الإسرائيلية تماماً كما فعل نصر أكتوبر 1973م بهم وإن اختلف حجم التأثير.

إن من يرصد حركة الحياة في الشارع الإسرائيلي يجد جيلاً جديداً من شباب ولد على أرض إسرائيل.. شباب ينشغل في مهمة تحقيق ذاته بالدرجة الأولى غير عابىء بما يدور حوله من أحداث.. شباب يتملكه القلق والتوتر والتخبط.. فالهم الاقتصادي يلح عليه ويطحنه والمخاوف الأمنية تزلزل أعماقه.. أما جيل الآباء والأجداد فإن ذكريات الماضي وفقدان الأحباء في الحروب المختلفة تضاعف لديه مشاعر القلق والتوتر.. ومن هنا فإن هؤلاء وهؤلاء تواقون إلى سلام يحسم مرارة الهاجس الأمني الذي عاش طويلاً يضغط على المشاعر والأفئدة. ولا يستطيع المراقب المنصف أن يعمم هذه الصورة من الرغبة الجامحة عند كثير من الإسرائيليين للاندفاع إلى السلام. ذلك أن هناك فصائل عديدة من الشعب الإسرائيلي

لا تزال ترفع شعارات الحرب والاستيطان.. تلك الصيحات التي يسيطر عليها العنف، وأهل أبرز هؤلاء هم سكان المستوطنات الذين شبوا على أفكار سوداء شكلت وجدانهم وخطوط تفكيرهم ومنطلقاتهم.. إضافة إلى فئات أخرى تستفيد من جو الاستقرار الذي أقيمت إسرائيل وعاشت في ظله..

ومع تعدد التيارات والقوى السياسية داخل إسرائيل فإن الرهان الكبير على السلام يتمناه حزب العمل الحاكم.. هذا الرهان الذي يلقى صدى كبيراً في الشارع الإسرائيلي، وفي نفس الوقت فإنه يجد من يتربص به من أحزاب وقوى سياسية أخرى، يأتي في مقدمتها حزب الليكود القوي وبعض الأحزاب والتيارات ذات الأوزان المتباينة.. فمن المعروف أن الليكود ينتظر أي كبوةٍ للسلام تعيده إلى رئاسة الحكومة في الانتخابات القادمة في الوقت الذي يسعى فيه حزب العمل مع أحزاب الائتلاف الحاكم لتثبيت قواعده وتوسيع دائرة شعبيته..

وأستطيع أن أقول من خلال لقاءات عديدة مع شخصيات إسرائيلية تشغل مواقع هامة وكذلك من خلال حوارات كثيرة مع شخصيات فلسطينية ذات اتصال بالأوساط السياسية.. .ن حزب العمل سيظل لسنوات طويلة قادمة يحكم في إسرائيل..

وعلى الرغم من إرهاصات السلام الشامل بين العرب واسرائيل.. فإن خطط إسرائيل لجلب مزيد من اليهود من الخارج.. وكذلك إقامة مزيد من المستوطنات في الأراضي العربية المحتلة مستمرة.. وبأشكال وأساليب مختلفة رغم ما نسمعه من نداءات إيقافها.. فالديمقراطية في إسرائيل من النوع الذي يمكن أن ينطبق عليه مقولة: (قل ما تشاء ما دمت أفعل ما أريد)..

وبعد.. فإن كل ما استشعرته في الشارع الإسرائيلي، وما سمعته أثناء حواري مع العديد من المستويات التي التقيت بها من إسرائيليين وفلسطينيين يؤكد أن المنطقة مقبلة على سلام، وأنه علينا أن نتعامل بحذر مع هذا السلام القادم أو الذي بدأت بالفعل أولى خطواته، فإن الواقع يؤكد أن ما حصل عليه الفلسطينيون حتى الآن أبعد بكثير عن حقوقهم المشروعة.. كما أن النصوص التي تضمنتها الاتفاقيات تحمل بين سطورها محاذير كثيرة.. لكن المنطق يقول: «إن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة»..

## رؤوف مسعد

## في انتظار المخلص، رحلة إلى الأرض المحرمة

رؤوف مسعد اسم لروائي مصري ولد عام 1937 سجن بسبب اشتراكه في أحد التنظيمات الشيوعية. وداخل السجن تفجرت طاقاته الإبداعية فأخرج عمله المسرحي الأول داخل السجن ومن ثم توالت أعماله التي أنهاها بروايته غواية الوصال. غادر مصر إلى بولندا لدراسة الإخراج المسرحي. ومن بولندا بدأت رحلته في العواصم العربية والأفريقية التي امتدت بين بغداد والقاهرة إلى أن استقر به المطاف في أمستردام. له عدة روايات قيمة، منها بيضة النعامة، مزاج التماسيح.

يقول رؤوف مسعد في كتابه في انتظار المخلص، رحلة إلى الأرض المحرمة إن إسرائيل منذ البداية للنهاية إنتاج أمريكي خالص، كان وما يزال ينفذ الاستراتيجية الأمريكية الإمبريالية العسكرية في المنطقة العربية، ولذا فإن هذا الكتاب ليس هو للتذكير بجرائم إسرائيل، ولكنه كان للتذكير بجرائم أميركا.

رؤوف مسعد يدخل للمرة الأولى في حياته أرض فلسطين يتحدث من خلالها عن مشاهداته في القدس وغزة وبيت لحم ورام الله ويافا وحيفا، وعكا وصفد، والحدود مع سوريا ولبنان والأردن وإلى المستوطنات والكيبوتزات إلى أطلال دير ياسين وكفر قاسم. لكن قبل كل ذلك كانت رغبته شديدة في رؤية العلم الفلسطيني يرفرف على المناطق الفلسطينية.

# مقدمة

في انتظار البرابرة

ليست هذه المقدمة عن إسرائيل بل عن أمريكا.. وليس هذا الكتاب للتذكرة بجرائم إسرائيل.. ولكن للتذكرة بجرائم أمريكا..

فإسرائيل منذ البداية، وللنهاية إنتاج أمريكي خالص، ما يزال ينفذ الاستراتيجية الأمريكية الإمبريالية العسكرية في منطقتنا.. منطقة الشرق الأوسط.

* * *

للشاعر اليوناني كفافيس قصيدة موحية، بعنوان «في انتظار البرابرة» تقول بعض مقاطعها:

لأن البرابرة سيصلون قريباً، لهذا يجلس حاكمنا على باب المدينة وقد وضع تاجه على رأسه وصولجانه وثيابه الفخمة.

كذلك فقد اختفى خطباؤنا.

لأن البرابرة لا يحبذون جزالة اللفظ.

.. .. .. ...

والآن

لماذا كل هذا التجهم والانزعاج؟

لماذا كل هذا القلق والناس يهرعون ليتركوا الشوارع

ويتكوموا في منازلهم حزانى؟

لأن الليل قد حل.. ولم يصل البرابرة بعد

ورجعوا ليقولوا إن البرابرة ليس لهم وجود..

.. .. .. ..

والآن

ماذا سيكون مصيرنا في غياب البرابرة؟

لأنهم كانوا على الأقل نوعاً من الحلول لمصائبنا؟!

.. انتظار البرابرة لم يسفر عن شيء

وانتظار المخلص في «فلسطين - إسرائيل» لم يسفر إلى الآن عن شيء.

فالمخلّص الإسرائيلي ينبثق من الأساطير الدينية.. وبالتالي فهو أسطورة.

والمخلّص العربي ينبثق من حالة العجز العربي.. وبالتالي سيأتي كسيحاً.. إن أتى!

وكل هذا بسبب أمريكا.

لكن لماذا الحديث الآن عن أمريكا؟

هل لأن المثقف المصري العربي، يهرول «مطبعاً» العلاقات مع الجامعات الأمريكية ودور النشر، بعد أن قاطعها سنوات طويلة منذ سحب تأميم السد العالي، والعدوان الثلاثي، وحربيْ 1973، 1967؟

أم أن مثقف ليبيا، وبعدها العراق، والسودان يغيب بسرعة من الذاكرة.. ذاكرة المثقف؟

أم لأن جريان المياه الثقافية في النظام العالمي الجديد، بيننا وبين قتلة الهنود الحمر، وتجار الرقيق، يؤدي بالتالي، وحتماً أي البحث عن «برابرة» من نوع آخر.. على الحدود، ليحلوا لنا مشاكلنا.. مشاكل ضميرنا الوطني الذي قبض ثلاثين قطعة من الدولارات الفضية ثمن شهداء بحر

البقر وأبو زعبل وأطفال ليبيا والسودان والعراق؟

لهذا كانت هذه الرحلة للبحث عن الذاكرة العربية التي شوهتها الانتظارات الكاذبة..

وجاء هذا الكتاب، ليقدم بحثاً تتشابك فيه الجذور الثقافية، جذور الانتظارات.. والبحث عن هويات..

الرحلة كانت بهدف إزاحة التراب عن تاريخ دامي شاركت الولايات المتحدة في صنعه، وشارك بعضنا في الترويج له، وتزيينه، والاحتفاء بالقتلة، والحج إليهم، في الولايات المتحدة الحج الثقافي والسياسي..

والكتاب يجيىء ليقول:

ماذا سيكون مصيرنا..

لو أن البرابرة قد وصلوا فعلاً؟!

رؤوف مسعد

القاهرة. أبريل 1999

# التحقيق

■ هل هذه حقيبتك؟

. نعم

■ وهل جميع ما فيها يخصك؟

. نعم

■ وهل رتبتها بنفسك؟

. نعم

■ ومتى كان ذلك؟

. مساء الأمس

■ ومنذ ذلك الوقت لم يلمسها أحد؟

. لم يلمسها أحد

■ وأين كانت الحقيبة طوال الوقت؟

. كانت في غرفتي

■ ولم يدخل أحد الغرفة سواك؟

. لم يدخل الغرفة سواي

■ ولماذا تريد السفر إلى إسرائيل؟

. لأقوم بعمل بحث للتلفزيون الهولندي

■ عن ماذا؟

. عن الحياة هناك

■ وهل ستذهب إلى الضفة الغربية؟

. بالطبع

■ والى غزة؟

ـ بالطبع

▪ وإلى أين أيضاً؟

ـ إلى كل الأماكن.. إلى الجولان، وإلى الحدود اللبنانية في رأس الناقورة، وإلى الحدود الأردنية، وإلى القدس.

▪ وماذا أيضاً؟

ـ سأزور المسجد الأقصى وكنيسة المهد في بيت لحم وكنيسة القيامة في القدس.

... البنت المستجوبة شاحبة الوجه، لعلها في الثلاثين من عمرها ترتدي ثياباً سوداء.. جاكيت أسود، وبنطالاً أسود، وبلوزة سوداء وحذاء أسود (برقبة) لم أستطع تبين لون الجورب..

كنت أنا الذي يجيب على الأسئلة. كنت أجلس على أريكة من الجلد الزائف، في ردهة صغيرة في مطار أمستردام. فخلال خبرة حياة طويلة في الاستجوابات ـ أنا الشخص الذي يجيب على الأسئلة ـ تبينت أنه مذ البداية، عليّ أن أستغل دراستي القديمة في المسرح، فالاستجواب ليس إلا عملية مسرحية، يتظاهر كل طرف بغير ما يبطن.

موقفي منذ البداية «أخرجته» بطريقتي ـ حينما أحضرت معي من المنزل عصاي التي ينتهي مقبضها برأس إفريقية، اشتريتها أثناء رحلة إلى السودان. ميزة العصا أنها تعطي لحاملها ومن يتوكأ عليها وضعاً مرهفاً. أقصد غامضاً أيضاً. فهي الرمز القديم للنبالة (فالعامة لا يستخدمون العصي الأنيقة) كذلك فالعصا تعطي الإحساس بأن حاملها «مريض» أو يعاني ألماً في ساقه..

لذا توجهت مباشرة دون أن أسألها إلى الأريكة أياها.. وبعد أن جلست، قلت بصيغة الأمر الواقع «لا أستطيع أن أقف طويلاً» وأشرت

بغموض إلى ساقي.

كنت أريد أن أعطي لنفسي إحساساً بأني أنا الذي «أخرج» المسرحية.. على الأقل الجزء الذي يخصني!

وهكذا تعمدت أن لا أقول «وسأزور أيضاً المعابد اليهودية» مع أني قد وضعت زيارة معبد أو اثنين في برنامج الرحلة. كنت بصراحة أريد أن أعطيها الإحساس بأني أتحدث معها من مركز قوة.

لعلها كانت تنتظر أن أقول لها.. «وأيضاً المعابد اليهودية».. ولكني تجاهلتها.

■ وماذا تفعل؟ (بدأت هي بتكتيك آخر).

- ماذا تقصدين بماذا أفعل؟ (ومع أني فهمت السؤال إلا أني أجبت بسؤال آخر).

■ أقصد ما هو نوع عملك؟

- أنا كاتب.

■ ماذا تكتب؟

- هل تقرأين الفرنسية؟

■ (بانزعاج) لا.

- وهل تقرأين الإسبانية؟ (بتشفي) كتبي مترجمة إلى هذه اللغات ومعي نسخة في الحقيبة (في الحقيقة كتاب واحد تمت ترجمته..).

.. أشرت بعصاي إلى حقيبتي. كنت قد قررت في آخر لحظة أن أحمل معي نسخة مترجمة من بيضة النعامة إلى الفرنسية، والإسبانية، تحسباً لهذا النوع من الأسئلة التي تم تحذيري منها مقدماً من الأصدقاء الذين زاروا من قبل فلسطين - إسرائيل.

وحينما اكتشفت أني نجحت في إزعاجها (أو هكذا تخيلت) وتفوقي

عليها، وتحولت من سائلة مستجوبة إلى شخص يتلقى الأسئلة ويجيب عليها وأن أكشف لها جهلها (باللغات) وأن أثبت لها تفوقي عليها! هي الأوروبية... بلغتين أوروبيتين. اندهشت أنا شخصياً. من عمق العداء المتأصل داخلي من أي شخص «يستجوبني».. الدهشة لاستمرار هذا العداء بعد كل هذه السنين!

.. لكنها حاولت من جديد.

■ بأية لغة تكتب؟

ـ بالعربية بالطبع.

■ وأنت تترجم كتبك؟

ـ (بتعال حقيقي هذه المرة) أنا لا أترجم. هناك مترجم متخصص لكل لغة.

■ وتبيع كتبك في المكتبات (هل تريد أن تسخر مني؟).

ـ (استفزها بأن أشرح لها بصبر مفتعل. وبطء) أنا لا أبيع كتبي. هذا ليس من شأني. هذا شأن الناشر والموزع.

■ وهل كتبك المترجمة تباع في إسرائيل؟

ـ في الحقيقة لا أعرف. لكن في الوقت نفسه يهمني أن تباع كتبي في كل مكان في العالم..

■ وماذا عن كتبك العربية.. هل تباع في الضفة؟

ـ أتمنى ذلك.

قامت تحمل معها جواز سفري الهولندي والذي به أختام دخول وخروج بالعربية من مطار القاهرة. لاحظت أن رباط حذائها القبيح «مفكوك».. ناديت عليها متصنعاً الجدية ولافتاً نظرها إلى هذا. تضرج وجهها (غضباً أو خجلاً؟) وتجاهلتني.

.. أعرف أني، في داخلي، يتنازعني عاملان. أتمنى أن يمنعوني من السفر إلى إسرائيل، فأرجع إلى بيتي، وأكتب ما حدث، وأنهي الموضوع. كنت سأحس براحة من تأجيل موعد المعركة، إلى أجل غير مسمى.. العامل الآخر، هو أني بالفعل أريد الذهاب للمرة الأولى إلى فلسطين (وإسرائيل أيضاً) أن أشاهد وأكتب.

لو منعوني سأوفر على نفسي معركة - اعتبرها غير ضرورية - ممن ينصبون أنفسهم ولاة «حسبة» وخاصة من أهل اليسار! فلم يكد يخمد بعد غبار معركة «السفر إلى فرنسا في موسم الاحتفال بمرور مئتي سنة على غزو نابليون لمصر «حيث سافرت إلى فرنسا لسبب شخصي وحيد هو اقتناعي بحقي في اتخاذ قراري. بالإضافة إلى أن «الحملة» التي قامت في مصر ولم تقعد، إلا بعد أن نفد وقودها - كالعادة - بسرعة.. كانت غير خالية - في معظمها - من الأغراض الشخصية وتصفية الحسابات الخاصة بين المشتغلين بالثقافة بعضهم البعض وبين بعضهم وبين وزير الثقافة الذي قاد من موقعه معركة ساذجة وخاطئة لتبرير «تورط» وزارته في ما أطلقت عليه وسائل الإعلام المصرية «الاحتفال بذكرى غزوة نابليون لمصر».. ولمّا تكشفت لي أبعاد الحملة المناوئة والتي كدت بسذاجة أن أتحمس لها قررت أن أتخذ قراري بالسفر.. لعلمي بأن هذا النوع من المعارك مفرغ من محتواه.. أو ما يبدو وكأنه «محتوى» وطني. لن أنكر هنا دخول بعض الشرفاء الذين ليست لهم «مصلحة» أطرافاً في الحملة على الوزير وإرهاب كل من تسول له نفسه السفر، ومن يريد كسر هيبة «قرارات المثقفين المصريين الذين أعنيهم» والذين كانوا وما زالوا على سفر دائم إلى فرنسا ولكنهم «قاطعوها» في هذا الموسم مثلما يقاطع المدخن المدمن التدخين خلال شهر الصيام!

حملة نابليون. مع كل سوءاتها. فهي مجرد حملة مثل غيرها من حملات ذلك الزمن والأزمنة التي سبقته كانت تهدف الاستيطان والتجارة والربح.. وبالتالي لا يمكن التعامل معها إلا بمقاييس عصرها.. هذا ليس تبريراً.. إنه مجرد تفسير. مثلما م ندقق الآن ـ نحن العرب ـ في موقف الزعماء والملوك العرب من تلك الأزمة الرهيبة التي واجهتهم عند اتخاذ قرارهم المعروف بالنسبة لتقسيم فلسطين. كانوا مجرد رجال ذلك الزمن.. يبحثون عن ترسيخ مكاسبهم الإقليمية الضيقة والحصول على شرعية لحكمهم من السادة الغربيين الذين قسموا الغنيمة والحدود بعد الحرب الثانية.

الحملة الفرنسية كشفت حجر رشيد. ونفضت الغبار عن تاريخي الذي جهله أسلافي.. تاريخي الفرعوني. وتاريخي القبطي. وتاريخي العربي الإسلامي.. بعد أكثر من خمسة قرون من الظلام التركي ـ المملوكي الجاهل.. وقبله قرون من تحول مصر من إمبراطورية فرعونية ثم مستعمرة فارسية وإلى حامية هيلينية وبطلموسية. ثم مستعمرة رومانية.. وهكذا حتى وصلنا إلى حكم المماليك من عبيد وخصيان.

لكن هنا ليس مجال سرد تاريخي بقدر ما هو ضروري ومؤلم في الوقت ذاته من مواجهة للنفس.. ومواجهة للتاريخ!

ثم تأتي هذه الرحلة إلى فلسطين ـ إسرائيل (هذا هو الاسم الذي ارتضيته لنفسي) والمعارك تدور في مصر والأردن حول التطبيع والمطبعين.. دون أن يعرف المتماركون «ماذا يعني تطبيع؟!» لكنها ـ أي هذه المعارك ـ تأكل الأخضر واليابس. لأن معظم القائمين بها. كما تبين لي. من الحرس القديم من الناصريين والماركسيين الذين فاتهم قطار التاريخ فسقطوا في الجغرافيا. ويقوم بعضهم بذات الدور الذي تقوم

به الإدارة الأمريكية بمواجهة الشعب العراقي. فبحجة معاقبة صدام حسين (وهي حجة كاذبة لمن تابع سير معركة عاصفة الصحراء) يتم تجويع الشعب العراقي وقتل أطفاله بدم بارد.. هذا من ناحية الغرب أما من ناحيتنا فقد ظهر في الآونة الأخيرة بعض الرحماء الذين أعلنوا تضامنهم مع الشعب العراقي وهذا موقف صحيح لكنه منافق ومتأخر. لأن صدام حسين ومنذ إعلانه «سقوط» الجبهة مع حلفائه اليساريين، قام بقتل الآلاف من العراقيين (بالإضافة إلى الاغتصاب وأساليب التعذيب والإذلال المختلفة) وهناك طبعاً قتله للأكراد بالجملة بواسطة الغازات السامة وزجه بالعراق وموارده في حربين بائستين نتائجهما معروفة. لم نسمع كلمة أو نأمة واحدة عن التضامن مع الشعب العراقي ضد صدام حسين مما ذكرته هنا وهو قليل. ينطبق هذا على المتضامنين مع الشعب الليبي والشعب السوداني وبقية الشعوب العربية.. ليس في مواجهة لا ديموقراطية حكامها.. لكن بمواجهة حصار أحمق وضار بالشعوب المعنية تقوم به بعض الدول الغربية.

كنت قد سألت نفسي حينما وجه التلفزيون الهولندي الدعوة لي «هل هذه الزيارة مهمة؟».

وفي الحقيقة لم أكتشف أهميتها إلا بعد أن وصلت إلى هناك لكن قراري بالذهاب، كان سببه هو اقتناعي بحقي - مرة أخرى - في اتخاذ قراري، الواثق من صوابه. لم يعد في العمر متسع، أو بقية، لأن يزدرد الواحد ما يعتقد بأنه صواب.. أو حقه في ممارسة الصواب والخطأ. دون التخوف من الفرامانات لأني مثل - بعض من أفراد جيلي - أنادي بحق الحوار والتعددية (على الأقل نظرياً!).

وهكذا ذهبت عامداً متعمداً إلى مطار أمستردام في الساعة الثامنة

من صباح يوم الجمعة الموافق الرابع والعشرين من شهر يوليو «حزيران» من العام 1998 متجهاً برجلي إلى المكان الذي يجري فيه التحقيق: أي الصالة المخصصة (بشكل استثنائي) لركاب طائرة العال الإسرائيلية المتوجهة إلى تل أبيب والمفروض أن تغادر بعد ساعتين والتي تحيط بها حراسة مسلحة واضحة، بعكس بقية الأماكن في المطار.

.. وها أنا.. في الواحد والستين من عمري، وبعد ستة عشر عاماً من تسللي من بيروت الغربية ذات فجر كئيب متوجهاً في تاكسي. مع عدد آخر من المتسللين مثلي. بعد أن رتب المبعوث الأمريكي - اللبناني الأصل - فيليب حبيب، مغادرة ياسر عرفات وأركان حربه وقادته و«الشباب» بيروت ولبنان كلها إلى المنافي الأخيرة، في اليمن، والسودان، وتونس واليونان... وقبرص.

هاأنذا سأدخل للمرة الأولى في حياتي أرض فلسطين.. إلى القدس وغزة وبيت لحم ورام الله ويافا وحيفا، وعكا وصفد، والحدود المغتصبة من سوريا ولبنان والأردن.. إلى المستوطنات والكيبوتزات.. إلى أطلال دير ياسين وكفر قاسم.. لكن قبل كل ذلك أرغب في إشباع رغبتي في رؤية العلم الفلسطيني (طالما حملناه علماً واستيكرز وعلقناه على سياراتنا وأبواب بيوتنا ومنافينا) يرفرف مرة أخرى على ما تطلق عليه الأدبيات السياسية «مناطق السلطة الفلسطينية».. فأنا مثل الملايين من أبناء جيلي، تابعنا النكبة ثم حرب السويس 1956 وهزيمة يونيو حزيران 1967 واحتلال قطاع غزة والضفة الغربية والاستيلاء على القدس الشرقية.. ثم ظهور حركة فتح ثم منظمة التحرير الفلسطينية، .. المشاوير والتعرجات الطويلة المعقدة المختلفة.. «أقواس» الانتصارات والهزائم.. وحرب 1973 وكامب ديفيد. والاجتياح الإسرائيلي على لبنان في يونية حزيران

1982 وحصار بيروت التي كنت أعيش وأعمل فيها آنذاك.. تدفعني رغبة عارمة، في أن أرى المشهد الأخير. كما يقول أهل المسرح «البروفة الجنرال» قبل إعلان الدولة الفلسطينية على بعض أرض فلسطين، والتي ستكون عاصمتها القدس.. الشرقية!

قبل ذلك ذهبت إلى الفلسطينيين في منافيهم في تونس، والسودان، واليمن. تابعت مع الملايين وفدهم في مدريد، ثم مفاجأة أوسلو وتناقشت مثل غيري.. مع أوسلو وضدها. وشاهدت في التليفزيون استقبال غزة والضفة لأبي عمار و«صحبه» والشباب.. إلخ.

لهذا شكرت الرب، لأن الدعوة، جاءت من غير جهة اختصاص، كما يقول أهل الحذف.. جاءت من التلفزيون الهولندي (الذي أتعامل معه من «خارجه») لكي أرافق المجموعة المسافرة إلى إسرائيل. وأن أشارك بالإعداد لمادة عن ما يحدث الآن، وعن توقعات المستقبل.

.. طلبي الذي وافق التلفزيون عليه، من ضمن حزمة من الطلبات، أن أقيم في يافا في منزل صديقي الهولندي «فرديناند» الذي يعمل في الأمم المتحدة، في قسم المساعدات للدول المانحة في الأراي المحتلة. كنت أرغب أن أعيش لمدة أسبوعين، مع فلسطينيين في يافا القديمة، حيث بيت صديقي وزوجته وأولاده.. وليس في تل أبيب بالتحديد!

الفكرة اللئيمة خلف التحقيق وليس الاستجواب - رغم بلاهتها - تفي بالغرض مع معظم الناس. الغرض هو إفهام المسافر وبطريقة فظة، أن التصريح له بالدخول إلى إسرائيل، إنما هو منحة، وليس حقاً. فنوع الأسئلة، وسخافتها لا تعطي الإحساس بالقلق الأمني (وهو ما تحاول إسرائيل التأكيد عليه) بقدر ما تعطي الإحساس للمتلقي، بأن المحقق له الحق في أن يغوص في خصوصياته، وأن يطامن من كبريائه. فالحقائب

الكبيرة والصغيرة تخضع للفحص الألكتروني الدقيق، كذلك أجساد المسافرين عبر البوابة الألكترونية. ثم ينتظر المسافر، حتى ينتهي موظف الأمن الإسرائيلي من فحص الجواز بالأشعة تحت الحمراء (أو فوقها، لا أدري) ليتأكد من عدم تزييفه، يستحضر الاسم في الكمبيوتر ليتأكد من «نقاء» ملف المسافر من كافة الاحتمالات والشكوك التي يجمعها عملاء «الأجهزة» من المصادر المختلفة. إذن فما الداعي لكل هذه الأسئلة حول الحقيبة، ومن أعطاك شيئاً لتضعه داخلها، إلى آخر هذه السخافات الساذجة؟

الإجابة وجدتها خلال تجوالي هناك.

أسبوعان من المراقبة الدقيقة وقراءة الصحف الإسرائيلية التي تصدر بالإنجليزية ومشاهدة «حرس الحدود» يوقفون الدبلوماسيين الأجانب الذين يدخلون إلى غزة، ويتفحصون أوراقهم باستهجان، ويضعون حقائب أوراقهم داخل جهاز الفحص الألكتروني، بل ويرفعون السيارات. حتى التي تحمل أرقاماً دبلوماسية أو أرقام الأمم المتحدة. أو السيارات التابعة لكبار العاملين في السلطة الفلسطينية حتى درجة نائب وزير، على الجهاز الهيدروليكي الذي تستخدمه قوات الموانىء والحدود للكشف عن السيارات التي تحمل مواد مخدرة.. (في غزة يبحثون عن القنابل) ثم التفتيش اليومي الذاتي للمواطن الفلسطيني الداخل والخارج من و إلى غزة، والاحتكاكات المتكررة من الجنود لحركة سير مواكب الوزراء الفلسطينيين ومنعهم من المرور في طرق معينة، ونفس الأمر يحدث لأعضاء الميديا الأجنبية، رغم الاتفاقيات التي تنص على حق المرور في هذا الطريق بالتحديد، كما رأيت ذلك بنفسي.. كل هذا يصب في التيار النفسي الذي تخلقه إسرائيل، بأنه ليست هناك «حقوق» لأي أجنبي وغير

إسرائيلي، حتى لو كان يتمتع بالحصانة الدبلوماسية. إسرائيل تقول للعالم «طز فيكم» أنا فوق القوانين جميعها.

.. وبعد أسبوعين وأنا خارج من مطار تل أبيب حدث معي نفس التحقيق.. نفس الأسئلة تقريباً. لكني اكتشفت شيئاً جديداً أضفته لقائمة اكتشافاتي:

ما إن تدخل المطار حتى تجد نفسك أمام ممرين، تم تحديدهما بأحزمة من البلاستيك. قال لي صديقي الدبلوماسي الهولندي ساخراً «عليك أن تسلك الممر المخصص لغير الإسرائيليين من مسلمين ومسيحيين ويهود..» وحينما رأى دهشتي وعدم فهمي شرح لي ما أراه أمامي.

.. فهناك مجموعة من الفتيات تحمل كل واحدة جهاز وكي توكي صغير تهمس فيه. تقترب الفتاة من المسافر وتسأله شيئاً بالعبرية.. المسافر «العبري» يجيبها في الحال، فتطلب جواز سفره، لتفحصه بدقة ودربة، ثم توجهه إلى الممر المخصص للعبرانيين.

المسافر - مثلي - يوجهونه إلى الممر الآخر، بعد السقوط في امتحان العبرية، وبعد تفحص الجواز بالطبع، يقاد بحزم إلى الممر الآخر المكدس بالسياح، وبالعمالة الوافدة، وحتى باليهود الذين يحملون جنسية غير إسرائيلية.

أما العرب الذين يغادرون إسرائيل، ويحملون جوازات سفر عربية، فيتم سوقهم إلى صالة أخرى، حيث يتم تفتيشهم ذاتياً - من باب الروتين والغلاسة! - بالإضافة إلى الأسئلة وتفتيش الحقائب مما يؤدي إلى تخلفهم عن الطائرة.. وبالتالي إلى مزيد من المشاكل المالية والنفسية.

مناذا كان سيفعل بيريز، عند استقباله للسواح العرب الأغنياء الذين

سيصدقون نظريته الشرق أوسطية وينهمرون على إسرائيل، وبالتحديد على شواطئها ومنتجعاتها «ومناطق ملذاتها».. هل كان سيخلق لهم منطقة آمنة خاصة بهم؟ أقطع - بعد خبرتي القصيرة هناك - بأن خلق «غيتو» خاص بالسياح إياهم، ليست بالفكرة المستبعدة، خاصة بعد ما عرفت غرام أهل إسرائيل بخلق الغيتوهات كأسلوب حياة!

لم أصدق عيني، فقد سافرت إلى معظم بلاد الدنيا، بأنظمتها السياسية المختلفة (عدا جنوب أفريقيا قبل مانديلا).. لكن صديقي الهولندي قال بنفس السخرية «هذا هو نظام الأبرتايد أمام عينيك. فإذا فاتك أن تراه قبل استيلاء جماعة مانديلا على الحكم في جنوب أفريقيا.. فلا تبتئس.. هاهو أمامك».

والأبرتايد لمن لا يعلم هو اصطلالح هولندي. جنوب أفريقي أي في لغة «الإفريكانا» معناه الحرفي «كل على حدة» وتم استخدامه سياسيا بعد ذلك ليعني «التفرقة العنصرية».

تذكرت ساعتها، مواقف سيارات السرفيس، والباصات المتجهة من المحطة المركزية في تل أبيب إلى القدس.

نظام «المواصلات» العامة، وحتى التاكسيات، في إسرائيل تطبق الأبرتايد.

المحطات الصغيرة على جانبي الأوتستراد تنقسم إلى قسمين.. الإسرائيليون في جانب «على حدة» والعرب بعدهم بقليل.. وحدهم أيضاً.

وكل «طائفة» لها سياراتها العامة و الخاصة بها.

الباصات الكبيرة المكيفة الهواء والسريعة لا يركبها العرب الذين يسكنون في يافا وضواحيها. هؤلاء لهم ميكروباصات صغيرة مخصصة لهم (عشرة ركاب) وبالطبع تمتلكها الدولة أو القطاع الخاص الإسرائيلي.

وإذا ما علمت أن الباصات هي المواصلات الوحيدة تقريباً لمن لا يمتلك سيارة (فالقطارات في إسرائيل شبه وهمية) لعرفت مدى أهمية الباصات، كبيرها وصغيرها، والتاكسيات، والسرفيس، كوسيلة اتصال ومواصلات بين البلاد والقرى بعضها ببعض في بلد كإسرائيل. فلسطين، خاصة وأن هناك أيضاً دائماً «شارعين» طريق المستوطنين، وطريق البشر الآخرين. وكل من الطريقين وخاصة طريق المستوطنين، مفروز بالحواجز العسكرية التي تتفحص حق المرور، للسيارات، والبشر أيضاً.

ركبت مرة دون أن أدري - ملتحفاً بجهلي - الباص المخصص لغير العرب المتجه من تل أبيب إلى القدس.. لم أبال بالنظرات المتسائلة، لكني بعد قليل تنبهت، بأني العربي الوحيد في باص ممتلىء بالركاب من جميع الجنسيات، عدا العرب!

تحاشى الجميع الجلوس بجواري، حتى جاء جندي شاب واحتل المقعد، ومعه بالطبع سلاحه.. لم «أهتم» فقد كانت هذه رحلتي الأولى بمفردي من يافا وتل أبيب إلى القدس، حيث ينتظرني جزء من مجموعة التلفزيون الهولندية على المقهى المقابل لنبدأ أول يوم عمل لنا.

التحفت بـ «قوة الجهل» وهو التعبير الذي نحته صديقي أحمد هشام تعبيراً عن حالات مماثلة، يلخص حكمة هامة: أن الجاهل، أقوى من العارف!

وأنا عائد إلى يافا، نصحني صديق برفق أن أستخدم الباص الآخر الصغير - حتى أتجنب المتاعب، فهمت الرسالة لكني لم أبال.

عامل الباطاقات، في محطة القدس نظر إليّ بريبة، لكنه باعني البطاقة دون تعليق، فهم يتوقعون أن «ينصاع» أتوماتيكياً كل بني آدم في المكان الذي اختارته له الدولة، وعن تجربة طويلة لهم، فقد تأكدوا من

ذلك.. أن لا يجرؤ فلسطيني في كامل قواه العقلية على تجاوز «الخطوط الحمراء».. ولأني كنت أتحادث بالإنجليزية، فأنا (بالنسبة للإسرائيليين) لا بد سائح من أمريكا اللاتينية (كما قال لي مرة شخص من بورتوريكو حينما كنت في حي هارلم بنيويورك)..

وهكذا وقفت في مكان انتظار الباص المتجه إلى يافا مع المنتظرين، الذين تجاهلوني.. نصفهم على الأقل من المجندين والمجندات (فالتجنيد إجباري لكل من بلغ الثامنة عشر) يتحركون، دائماً، بأسلحتهم، يخلقون جواً من التوتر المحكوم.. بأن هناك باستمرار ذلك الخطر المتوقع من العرب (الفلسطينيين) أعداء إسرائيل.. (هل تذكرون حادث الجندي الإسرائيلي، الذي انتابته حالة جنون، فأطلق النار على العرب في الشارع ولم يتوقف حتى سيطر عليه الجنود الآخرون؟) والمستوطنون بالطبع يحملون أسلحتهم جهاراً نهاراً.. وهذا هو ما شجعه حكّام إسرائيل السابقين، وبالطبع نتانياهو، والمتحالفون معه.

أما التاكسي الإسرائيلي الذي له وحده الحق في أن يتحرك بين مناطق السلطة الفلسطينية، وبقية «الدولة» كما يسمونها، فلي معه تجربة أخرى. فذات عصرية كنت عائداً من رام الله متوجهاً إلى القدس لأركب الباص إياه إلى مقر إقامتي في يافا.

الصديق الفلسطيني الذي أقلني بسيارته، كرر اعتذاره بأنه لن يستطيع توصيلي إلى القدس، لأن سيارته غير مسموح لها بالدخول إلى القدس. سيتركني بالقرب من الحاجز الإسرائيلي على «حدود» رام الله ومن هناك أستطيع أن آخذ تاكسي إلى مقصدي.

وقفت أشير إلى التاكسيات حتى توقف لي تاكسي مرسيدس أبيض فيه ثلاثة ركاب. سألوني بالإشارة إلى أين.. قلت بالعربية «القدس» (فأنا

في رام الله!) نظروا إليّ لحظة. هزوا رؤوسهم وانطلقوا. بقيت واقفاً، أحس بغضب ولم أتبين بعد سخافة الموقف كله. أنقذني فلسطيني. شرح لي ما حدث، وقادني إلى المكان الذي يقف فيه الفلسطينيون. كنت أقف في «غير مكاني» كما قال لي ضاحكاً لكي يخفف الحرج عني.

كذلك اكتشفت أن معظم مقاهي تل أبيب، القريبة جداً من يافا بل والمتصلة بها، لا يجلس لفيها العرب (فلهم مقاهيهم في يافا وليس في تل أبيب) وأنا أحب الجلوس في المقهى لأنه المكان الذي يعطيك بانوراما هادئة. وبطيئة لحالة البلد وناسه. بالصدفة ونتيجة لظروف العمل، أيضاً، كنت دائماً أذهب إلى المقهى التل أبيبي مع هولنديين، بالتالي كانت الجارسونة (في معظم الأحيان من الروسيات أو المغربيات) تخدمني بلا مبالاة.

بالطبع هذا ينطبق بشكل أكثر صرامة، وبجاحة، على المساكن.. فالمناطق السكنية، أو الأحياء العربية، التي لا يعيش فيها الإسرائيليون، إلا لغرض سياسي؛ مثل المتشددين دينياً الذين يستولون على شقة - أو حتى غرفة - في بيت عربي في الخليل أو القدس.. فيضطر العرب في بقية البيت للنزوح أو العيش تحت التهديد.

هناك مناطق مغلقة على اليهود من المغرب، ومناطق أخرى على الروس، ومناطق نائية وفقيرة لليهود الأثيوبيين «الفلشة» وهكذا..

ذات ليلة اضطررت إلى المبيت في كيبوتز بالقرب من الحدود السورية وعلى سفح جبل الشيخ مع مجموعة العمل الهولندية - ما حدث كان صدمة متبادلة لي وللعاملين في الكيبوتز والسياح الآخرين. فقد كنت الوحيد وسط مجموعة كبيرة من «الأجانب» أنتمي بأصولي وشكلي إلى جنس آخر لا يقترب من الكيبوتزات وبالتالي لا يبيت فيها! كان الأطفال

يدورون باندهاش حول مائدتنا، يتأملوننا، كما نتأمل في زيارتنا لحديقة الحيوان الشمبانزي وهو يستخدم بذكاء أدوات المائدة! وقد استمتعت كثيراً - بشكل شخصي - بالتجربة.. لكني لا أنكر أني تنفست الصعداء في الصباح، حينما استقلينا السيارة وتركنا الكيبوتز.

* * *

سألني الشاب الذي حقق معي في مطار بن جوريون عن الأماكن التي زرتها. فقلت له بصدق وبلا مبالاة. إني ذهبت إلى الجولان ورأس الناقورة. وصفد (مركز الأصوليين اليهود المتعصبين ) وعن الكيبوتز الذي قضيت فيه الليلة وعن نهر الأردن والبحر الميت وتل أبيب ويافا وحيفا وعكا وغزة ورام الله والبيرة وبيت لحم والقدس والمسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة وكنيسة القيامة ودير السلطان.. (المتنازع عليه بين الكنيسة القبطية المصرية والكنيسة الحبشية).

.. كرر الأسئلة حول الحقيبة ومن رتبها.. إلخ.

كنت أحس بالتعب، متوتراً. قد دونت ملاحظاتي خلال الأسبوعين في مفكرتي جيب صغيرتين. وجمعت بعض الوثائق (من أوراق الأمم المتحدة) وقصاصات من الصحف الإسرائيلية والعربية التي تصدر هناك. هذه الأشياء هي رأس مالي. وهي ذاكرتي. أنا الضعيف الذاكرة. يوميات رحلتي، وخواطري، وانطباعاتي.

المصورة الهولندية، كانت تعابثني حينما تراني أكتب في المفكرة، قائلة «لا تتعب نفسك، فسوف يصادرون أوراقك».. في اليوم الأخير عرض بعض الزملاء من مجموعة العمل أن يحملوا الأوراق بدلاً مني. ورغم

الإغراء في العرض لكني رفضته. قررت أن أدافع عن أوراقي بنفسي.. كما كنت أفعل في المعتقل.. زمان!

سألني المحقق في المطار

- لماذا أتيت إلى إسرائيل، قلت له لكي أكتب عنها. نظر إليّ بدهشة غير مصدق.. قلت له موضحاً، إني كاتب، وإني أكتب عن البلاد التي أزورها، عن الناس.. إلخ سألني هل «كتبي» معي.. أجبت بالإيجاب. لكنه لم يهتم بأن يراها. ذهب يستشير رئيساً له يرتدي حلة مدنية سوداء (للإسرائيليين غرام غريب بالثياب السوداء وخاصة الرسميين والدينيين منهم) ثم عاد ليسألني إن كنت كتبت «ملاحظات» فأجبت بالإيجاب، ورجعت أكرر له أن «هذا شغلي» فأنا في النهاية كاتب. بعد مداولات هامسة مع رئيسه، واختفاء طويل بجواز سفري، أعاد لي الجواز. ووضع «استيكرز» برتقالي علي حقيبتي الوحيدة (طالبني أن أفتحها، ونكش بها قليلاً ثم اكتفى).

كنت أقول لنفسي، أريد الآن أن أغادر هذا المكان.. أريد أن أرجع إلى مكاني الآمن في أمستردام، ولتذهب الأوراق - إن أخذوها - إلى الجحيم، فسأعتمد على ذاكرتي وعلى الصور الفوتوغرافية التي التقطتها، وعلى الحديث مع مجموعة العمل.

حينما وصلت إلى مطار أمستردام في الفجر واقتربت من الجندي الذي يفحص الجوازات، قدمت له جوازي.. لم يفتحه.. هز رأسه، دون أن يفتح الجواز، مومئاً لي الدخول. وهكذا دخلت إلى أمستردام، دون (إحم ولا دستور)، ثم بالتاكسي إلى شارعي الذي أعيش فيه منذ أكثر من عشر سنوات، والى بيتي، الذي لم يضع مني مفتاحه، لكي أتسلق الدرج إلى الطابق الثالث بهدوء حتى لا أوقظ النائمين أو أفزعهم. ثم إلى غرفتي،

ملقياً نظرة سريعة على غرف الأولاد والزوجة.. كل شيء في مكانه المعتاد، وكل واحد من أفراد أسرتي الصغيرة ينام في مكانه آمناً.

وها أنا أعود - أيضاً - مرة أخرى إلى أمني ومكاني.

# لا بد من القدس

لهذا.. لا بد من القدس وإن طال الرحيل
فهو ليس بسفر بقدر ما هو رحيل
ففلسطين: عارنا وفخرنا، هزائمنا وانتصاراتنا
فلسطين المتحف الحي لـ«تاريخنا الطبيعي»

«الحلقة المفقودة» في تطورنا.. كيف كنا، ولماذا أصبحنا وما أصبحنا!

إذن فالكتابة مجدداً عن فلسطين رغم كل ما كتب، ويكتب عنها دراسة، ونثراً وشعراً، بكل لغات العالم، محاولة للدخول - مرة أخرى - إلى لوحة الموزايك الحية لتاريخنا، منذ ما قبل التاريخ، وبداياته الأولى، واكتشاف لمتتاليات تاريخية وثقافية.

انظر إلى التكرار الحي للوعة ويأس "هاجر" أم "إسماعيل" في صحراء القيظ، صدمة خيانة المضارب والعشيرة، المتكررة حتى أيامنا هذه. هاجر المطرودة من كنف سيدها إبراهيم مع رضيعها، ابنه إسماعيل، والذي معناه «سمع الله لي».. طردتهما سارة الزوجة الغيور.

فبعد أن استمع الرب لشكوى إبراهيم (إبرام) حينما قال «يا سيدي الرب ما نفع أن تعطيني وأنا سأموت عقيماً، ووارث بيتي هو إليعازر الدمشقي، ما رزقتني نسلاً وربيب بيتي هو الذي يرثني فقال له الرب: «لا يرثك أليعازر بل من يخرج من صلبك هو الذي يرثك» وهكذا ألهم الرب سارى (ساره) امرأة إبراهيم أن تعطيه جاريتها المصرية هاجر «لعل الرب يرزقني منها ببنين، وأعطتها لإبرام لتكون له زوجة، فضاجع إبرام هاجر، فحملت.. وولدت هاجر لإبرام ابناً فسماه إسماعيل، لأن

الرب سمع.

...«لوحة إسماعيل بمواجهة أخيه إسحاق» بعد أن قرر الرب طبقاً للرواية التوراتية، أن يرزق سارى العاقر. فطردت الجارية وابنها قائلة «اطرد هذه الجارية وابنها، فابن هذه الجارية لا يرث مع ابني» (التكوين 21.16).

والمتأمل للأسطورة التوراتية، يجد، أن ابن إبراهيم من سارة - إسحاق - يخدع أخيه عيو - التوأم - والذي خرج إلى الدنيا قبله بلحظات، فاستحق الميراث حسب التقليد الرعوي القديم.. نجده يخدعه، ويخدع والده إبراهيم، بتحريض من الأم سارة، ويستولي على الميراث.. أقول نجد في مغزى الأسطورة القديم، تفسيراً ميثيولوجياً، ونفسياً، لاحق اليهود منذ أيامهم الهمجية البدائية وحتى الآن.

ففي كتابه القيم «الفلكلور في العهد القديم» يعرض ج. فريزر لمنهج دراسته ورؤيته للعهد القديم...» وقد حاولت في هذا الكتاب أن أسير على هدى الدراسات الفلكلورية متعقباً بعض معتقدات الإسرائيليين القدماء، وأنماط سلوكهم الفكرية والعملية في المراحل الأكثر قدماً وفجاجة، تلك التي تشبه ما نجده لدى القبائل البدائية التي تعيش حتى اليوم من معتقدات وعادات. وإذا كنت قد حققت أي قدر من النجاح، فإنه سيكون من الممكن النظر إلى تاريخ بني إسرائيل في ضوء أكثر صدقاً، وأن يكن أقل رومانسية، بوصفهم شعباً لا يميزه الوحي الإلهي عن غيره من الشعوب الأخرى ذلك التمييز العجيب، بل تطور كبقية الشعوب من مرحلة بدائية يسودها الجهل والهمجية، وذلك عن طريق عملية انتخاب طبيعي بطيء. وقد دفعني الهدف من دراستي هذه إلى أن أنعم النظر بصفة أساسية في الجانب الأدنى من حياة العبريين القدماء، كما تتمثل في العهد القديم،

وأن أتتبع آثار الهمجية والخرافة، تلك التي تنتشر على صفحاته» (الجزء الأول. ترجمة د. نبيلة إبراهيم. مكتبة الدراسات الشعبية. 1998).

لكن هذه الخرافات الهمجية ما زالت تسيطر حتى وقتنا هذا على التفكير والسلوك الديني و السياسي لإسرائيل كدولة وكشعب. إن مجرد التأمل في تسمية الدولة بهذا الاسم يعطينا فكرة جلية عن الميكانيزم الذي يحركها. الاسم معناه في العبرية «غالبت الله والناس.. وغلبت» وأصل الحكاية التوراتية أن يعقوب صارع ملاك الرب.. ذات ليلة ولم يتركه حتى باركه وغير له اسمه (1) «فصارعه رجل حتى طلوع الفجر، ولما رأى أنه لا يقوى على هذا الصراع قال الرجل ليعقوب ما اسمك فقال اسمي يعقوب، فقال لا يدعى اسمك يعقوب من الآن بل إسرائيل، لأنك غالبت الله والناس وغلبت» (التكوين 32)..

إن اهتمامي بالاستشهاد هنا بالنصوص التوراتية بقصد التوغل عميقاً داخل العقلية اليهودية الإسرائيلية.. أي اليهود الذين يعيشون في إسرائيل.. واليهود الذين يتعاطفون ويؤيدون إسرائيل وهم في «أوطانهم» الأخرى. إن التوراة هي «الحجة» الأكثر استخداماً في الصراع السياسي والعسكري الإسرائيلي مع جيرانها العرب، وهي الحجة الدينية التي تستخدمها إسرائيل من أجل جذب التأييد المسيحي لوجودها.

ولا يفوتني أيضاً الاهتمام بتحديد الاختلاف بين اليهود الذين لا يؤيدون إسرائيل لأسباب سياسية، أو إنسانية، أو دينية، وذلك بإطلاقي مصطلح «اليهودي الإسرائيلي» تمييزاً لهم عن غيرهم ممن أشرت إليهم.. وذلك بهدف فهم عقلية ما زالت تتعامل مع العالم الحديث من خلال نصوص «تنتشر فيها الهمجية والخرافة» لكن هذه النصوص تسير جنباً إلى جنب مع أحدث ترسانة حربية، توجهها لخدمة مآربها السياسية

التوسعية.

إن السرقات التي يقوم بها فرد مثل يعقوب، أو شعب بأكمله، تجد لها مبرراً دينياً: بل تتم أحياناً بأمر إلهي مثلما حدث في أسطورة الخروج من مصر... وفعل بنو إسرائيل كما قال لهم موسى فطلبوا من المصريين مصاغ فضة وذهباً وثياباً. وأعطى الرب الشعب حظوة لدى المصريين فوهبوهم ما طلبوا وهكذا سلبوا المصريين. (الخروج 12) وجد أن تعبير السلب المستخدم هنا في النص.. يقدم للمتعبد الذي يتعامل مع النص بتقديس.. يقدم له الشرعية الإلهية في حق السلب!..

ومع أن القصة التوراتية عن الخلق تُؤكد إن الله الخالق «صنع الإنسان على صورته» نجد أن إسرائيل تمارس عملياً سياسة التفوق العرقي والعنصري لجنوب أفريقيا أيام حكم الأقلية البيضاء.

وقال الله: «لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا..

ونظر الله إلى كل ما صنعه فرأى أنه حسن جداً».

إن التعبيرات السياسية والديموغرافية التي تصدم القارىء المتتبع للسياسة الإسرائيلية مثل: أرض إسرائيل، يهودا والسامرة ومثل شعب إسرائيل، وكذلك الصورة المعتادة للمستوطن الإسرائيلي الذي يقف باكياً أمام حائط المبكى شاكاً سلاحه.. هذه كلها أشياء «اعتيادية» في إسرائيل.. أشياء يومية! إن رمز إسرائيل ـ الشمعدان بشموعه السبع ـ وكذلك علمها ـ النجمة السداسية ـ رموز دينية، ترجع إلى ثلاثة آلاف سنة، تم إخراجها من توابيتها، ونزع الأكفان عنها لتصبح رمزاً وشعاراً للدولة التي اتخذت اسمها أيضاً من أساطيرها الدينية الموغلة في القدم.

على قدر ما سافرت وارتحلت في أرض البشر، وشهدت على أنظمتهم السياسة يميناً ويساراً، لم أر في حياتي - وأظنني لن أر فيما تبقى منها

- وضعاً سياسياً وعرقياً مهيناً ومذلاً. من جيش احتلال استيطاني يقوم بتطبيقه.. ينفذه يومياً، وعلى مدار الخمسين عاماً الماضية وحتى اليوم.. بمواجهة أصحاب الأرض الأصليين، كما رأيت في فلسطين. وضعاً لا تكفي «أن تتجاهله» بالإزورار عنه، ليختفي! تماماً.. مثلما فعل سيدنا إبراهيم مع ابنه إسماعيل: كما تقول الحكاية التوراتية..

فاليوم نجد الذين نزحوا إلى فلسطين، فراراً من اضطهاد مواطنيهم وأبناء بلدهم، ينظرون إلى أصحاب الأرض الأصليين باعتبارهم «أبناء الجارية».. ولا أقول هذا مجازاً.. فكل الأعمال الشاقة في إسرائيل يقوم بها الفلسطينيون (وينافسهم فيها الآن المصريون الذين طالهم قانون أبناء الجارية في وطنهم نتيجة لقانون السوق!) ويجلس صاحب العمل الإسرائيلي والمصري في «التكييف» ويشقى أبناء الجارية، ليحصلوا على «لقمة وهدمة!».

رأيت العمال الفلسطينيين وهم يرجعون إلى غزة حوالي الثالثة عصراً.. رأيتهم في «معزلهم» الخاص، والذي يطلق عليه موظفو الهيئات الدولية في فلسطين - حظيرة البهائم - مبنى مستطيل وضيق مسقوف بالزنك الذي يضاعف من حرارة القيظ ويختزنها ليرسلها مرة أخرى على رؤوس وأبدان المنتظرين في صبر، حتى يتم تفتيشهم ببطء متعمد بواسطة الجنود الإسرائيليين. آلاف من العمال، تتكرر معهم هذه العملية يومياً مرتين. ففي الصباح - كما عرفت - وفي الفجر بالتحديد حوالي الثالثة صباحاً يبدأ تفتيش العمال وهم يتوجهون إلى «أرض إسرائيل».. تفتيش يستمر ساعات، فحص ممل وبطيء للأوراق الثبوتية، والتي على كل عامل فلسطيني أن يحصل عليها.. هذا بالطبع في الأيام التي تسمح فيها الحكومة الإسرائيلية لهم بالمرور.. أما في تلك الأيام التي يتم فيها إغلاق

المعابر (كما يسمونها) عقاباً لحجر ألقاه صبي على جندي، أو لمجرد احتمال اندلاع توتر أو اشتباك.

لا يسمح أيضاً بمرور السيارات التي ستقل العمال إلى عملهم، أو ترجعهم مرة أخرى إلى مناطق سكناهم في أرض السلطة الفلسطينية. في الأيام الاعتيادية.. فلا يسمح لهذه السيارات بالعبور ودخول «الدولة» ثمة سيارات على جانبي المعبر يستقلها العمال في غدوهم ورواحهم - بالرغم من أن اتفاقية أوسلو تنص على أن «أرض إسرائيل كلها دولة واحدة».. وتخيل معي، وضعاً كهذا يرافق عاملاً فلسطينياً ستة أيام في الأسبوع.. طوال حياته!

إنهم.. عمال الحدائق، وعمال البناء (وعادة ما يكون بناء مستوطنات إسرائيلية على أرض فلسطينية) ومصانع تعليب الفاكهة والزيتون، ورصف الشوارع، وتنظيفها، وجمع الزبالة، وعمال محطات المحروقات وعمال وعاملات النسيج.. إلخ. الذين دفعوا ثمن مناورات سياسية (أيام حرب الخليج) ليست لهم فيها مصلحة أو علاقة وبالتالي دفعوا الثمن وتم طردهم من منطقة الخليج، استكمالاً لطردهم السابق والتاريخي من بلادهم.

ورأيت العمال الفلسطينيين يعملون في المقبرة العسكرية في القدس والتي تضم رفات «الأباء المؤسسين، وأبطال حروب إسرائيل، رأيتهم، ينظفونها، ويغسلون ممراتها، ويدعمون أحجار قبورها وشواهدها!

ومن المؤلم أن تجد العمالة المصرية «العشوائية» نفسها مخلب قط في حركة الصراع ونتائجه - بين إسرائيل والطبقة العاملة الفلسطينية، حيث تستخدم إسرائيل العمالة المصرية - بل وترحب بها- لتحل محل العمالة الفلسطينية. عمالة مصرية رخيصة، ومغيبة سياسياً، مطرودة

أيضاً من وطنها. تطبيقاً لسياسة الانفتاح التي بدأت بالانتصار التاريخي على إسرائيل في السادس من أكتوبر سنة 1973.. شبكة منظمة «خفية» تعمل في صمت. تسحب الفلاحين المعدمين من قراهم والملايين الذين طالهم قانون إرجاع الأراضي الزراعية مرة أخرى إلى الإقطاعيين..

ألا يثير هذا الواقع الغريب. الضحك الذي وصفه المتنبي. في هجائه لحكم المملوك كافور بأنه «ضحك كالبكا»..

وألا يثير هذا أيضاً العديد من الأسئلة حول تدفق العمالة المصرية على إسرائيل. في الوقت الذي يضيق فيه الحصار على العمال الفلسطينيين؟!

الحركة الدودية الدائبة للعمالة العشوائية المصرية تزحف على بطنها لا تلوي على شيء، سوى الحصول على اللقمة والهدمة. تتأكل في زحفها. بقايا القيم التي تهرأت منذ ترسيخ نظرية أبناء الجارية! فنحن نعلم جميعاً هذه الحقائق (التي لم تعد مثيرة للدهشة) نعلم أن هناك أكثر من اثني عشر ألف «عامل مصري» في إسرائيل وتزعم وزارة العمل المصرية أنها لا تعرف عنهم شيئاً. لسبب بسيط في منطقها الخاص. إذ يقول الوزير بأنه لا يوجد ملحق عمالي في إسرائيل..!

إسرائيل ليست بحاجة أن «تدخل» مصر: فمصر تذهب «بقضها وقضيضها» إلى إسرائيل..

أمتلك حجة هامة تدعم قولي هذا.. إن الحصول على تأشيرة دخول إسرائيلية «للمواطن العادي أو السائح العربي» دونه خرط القتاد. استجوابات وتحقيقات لا حصر لها.. فما بالك بمواطن مسكين ليس عنده حساب في البنك أو عنوان فندق محترم هناك؟.. بالطبع. فإن «الشبكة الخفية» ترتب كل شيء.. فيتم الحصول على التأشيرة والدخول بسلاسة.. خاصة أن «العامل الأجنبي» لا بد له من الحصول على «كفيل إسرائيلي»

يضمنه، ويرتب له عملاً و«إقامة» قبل الدخول!

وخذ عندك ما نشرته جريدة القدس اللندنية في عددها الصادر يوم الاثنين ـ 17 أغسطس آب ـ 1998 والذي يقول: «إن هناك 200 ألف عامل أجنبي في إسرائيل ومعظم العمالة الأجنبية تأتي من رومانيا وتركيا وتايلاند والفلبين وبلغاريا وجنوب لبنان. وهم يعملون في قطاع الخدمات والزراعة».. ويعلّق الخبر على النبأ الذي ذكرته صحيفة يدعوت أحرونوت، أن رئيس ممثلية إسرائيل في المغرب، كتب تقريراً يحذّر من ظاهرة تشغيل النساء المغربيات في إسرائيل باعتبار «أن إسرائيل لا تمنح تأشيرات عمل سوى للنساء المغربيات، علماً بأن الأمر يتعلق بدولة عربية إسلامية» كما يقول التقرير الذي يضيف بأن وسائل الإعلام في المغرب تعلّق على هذه الظاهرة بقولها: «إن الإسرائيليين يسبون نساءنا».

أود أن أضيف هنا أنه ـ طبقاً للمعلومات الرسمية ـ أن نسبة المغربيات اللاتي يعملن بالدعارة (شبه العلنية) في إسرائيل يصل إلى حوالي الأربعين بالمائة من العاملات في هذه الحرفة التي تنافسهن فيها الروسيات بنسبة مماثلة تقريباً!

إن غرس «القيم الثقافية الإسرائيلية» في وجدان آلاف من العمال والعاملات المصريين واللبنانيين والمغاربة الذين تدفعهم نظرية أبناء الجارية للعمل في إسرائيل.. يتم بشكل يومي وبدون مجهود يذكر. أبسط هذه «القيم» هي أسطورة النقاء العرقي.. التي تجد أرضاً خصبة بين البسطاء والمتعصبين المصريين (باعتبار أنفسهم مصريين من نسل الفراعنة، ولا علاقة لهم بالعرب!) والأسطورة «الثقافية» الأخرى.. إدخال الدين في النسيج السياسي اليومي للمواطن وللدولة.. التبرير الديني لقيام دولة إسرائيل وذبح الفلسطينيين.

كيف يستقيم أمر هؤلاء الناس (العمالة العشوائية والدعارة) وكيف ستكون علاقتهم بوطنهم، وقيمهم، وهم يعملون كخدم، ومومسات في دولة ما نزال نحن، وما تزال هي تتعامل معنا ونتعامل معها باعتبارنا واعتبارها «العدو».

وهل باستطاعتهم، وهم في هذا الوضع تلقين أولادهم مبادىء الكبرياء وحب الوطن، والاحترام الذاتي؟!

إن هذا النوع من «التطبيع» قائم بالفعل ويجري يومياً، وبشكل منظم ومنتظم، تحت سمع وبصر «من يهمه الأمر».

فإذا انتقلنا إلى نقطة أخرى، داخل حركة الصراع الدائبة بين الفلسطينيين والإسرائيليين، نجد أن الشيء المثير هو، حجم الصمود الفلسطيني - الشعبي - بمواجهة الغاصب، لانتزاع لقمة العيش، وبمحاولة متواصلة للحافظ على الكرامة الشخصية والكبرياء الإنساني الموروث، حتى في أحلك الظروف والمواقف.. كبرياء رب الأسرة، الذي يحافظ على شرفه، ويحمي عرضه، ويسعى بلا كلل، وبدون تذمر، للبحث عن لقمة الخبز حتى لو كانت في «حنك السبع» كما يقول أولاد البلد في مصر. الصمود أمام التفتيش اليومي المهين والإغلاقات المفاجئة للمعابر، وهجوم المستوطنين وهم يحملون أسلحتهم المرخّص بها من الدولة - على العمال والصبية الفلسطينيين، وهدم البيوت بالجرارات.. إلخ.

للمرة الأولى في حياتي، أفهم هذا التعبير في تطبيقه على الواقع.. «حنك السبع» فهمته وأنا أراقب الفلسطينيين وهم يعبرون الحواجز الإسرائيلية المسلحة - من الجيش أو من المستوطنين المتعصبين - أو يتسللون خلف الأسوار الشائكة، ومن خلالها ليواصلوا سعيهم في الحصول على خبزهم وكرامتهم، التي يريد الإسرائيليون - أيضاً بلا كلل - تحطيمها.

خذ عندك -مثلاً- وضع البحر بالنسبة للصياديين في غزة، داخل منطقة حظر التجول التي فرضتها إسرائيل على غزة منذ اندلاع الانتفاضة! وليس البحر فقط، بل والشاطىء أيضاً.. حيث كان الجنود يقومون «بتسوية» رماله كل يوم قبيل الغروب، ليكتشفوا آثار الأقدام . المتهورة! . إذا ما تجرأت.

إن مجتمعاً - كغزة - يشكّل الصيادون نسبة كبيرة فيه، لا يستطيع أفراده ممارسة حياتهم الاعتيادية من نزول إلى البحر بالقوارب التي حدد لها المحتل مساحة حركتها، وحدد لها ساعة عودتها مرة أخرى قبل الغروب.. إلخ. هذا المجتمع كان يواجه يومياً «سباعاً» مختلفة!

هنالك فهمت - على أرض الواقع - لماذا هلل الفلسطينيون، بمحاولات صدام حسين البائسة والطائشة، بقذف إسرائيل بالصواريخ. تلك كانت رغبة عميقة وإنسانية في «تنفس الصعداء» ولو لفترة قصيرة ووهمية حينما ظنت الضحية أنه من الممكن الحصول عليها، أن تزيح ولو مؤقتاً غاصبها الذي يجثم على صدرها.

خذ عندك أيضاً، القيود التي تفرضها إسرائيل -الآن- على المنتجات الزراعية الخارجة من أرض السلطة الفلسطينية. حيث يتم توقيف الشاحنات على المعابر انتظاراً لتفتيش بطيء بشكل متعمد. قد يتأخر لعدة أيام، عن عمد، حتى تفسد البضاعة! في الوقت ذاته نجد أن اتفاقية أوسلو تؤكّد حق المصدّر الإسرائيلي في «أولوية» تصدير بضاعته، واحتكاره العملي لكل ما تستورده منطقة السلطة!

في رواية جون شتانبيك «أفول القمر» يطلب القائد الغازي والمنتصر من عمدة البلدة، المهزومة، أن يقنع العمدة الأهالي بالتعاون مع الجيش الغازي لحفظ النظام في البلدة المنهزمة.. لماذا؟ يتساءل العمدة.

فيجيبه القائد عن قناعة تامة: لمصلحتهم.

يقول القائد «إن واجبك كعمدة أن تجعلهم ينفذون الأوامر الصادرة مني وبالتالي يحافظون على أمنهم».

فيسأله العمدة «فلنفرض أنهم لا يرغبون أن يعيشوا في أمان»؟

# بلد الانتظارات المؤجلة

.. في جدول الشروح الخاص بالكتاب المقدس طبعة «دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط عام 1997. في لبنان «نجد الشرح التالي مقابل كلمة السبت»:

«سابع أيام الأسبوع. تفرض فيه الشريعة الراحة الكاملة والانقطاع عن كل عمل. وهو يوم مكرّس للعبادة. فيه يجتمع اليهود في المجامع لقراءة الكتاب المقدس والصلاة والتعليم الديني».

حينما لامست عجلات الطائرة القادمة من أمستردام، أرض المطار، صفق الركاب الإسرائيليون (يستطيع الواحد التعرف عليهم من المعاملة المتميزة منذ اللحظات الأولى) بينما صدحت ميكروفونات الطائرة بالنشيد الوطني (كما عرفت فيما بعد) الذي يقول: ها نحن أحضرنا السلام معنا!

ثم فجأة انزاح كل ذلك الأدب وتلك الرقة، ليتدافع الركاب وهم يصخبون باتجاه باب الطائرة، ليركضوا بعد ذلك، وهم يحملون حقائب اليد الثقيلة والعديدة، إلى قاعة المطار، حيث وقفوا بصبر نافذ، يتبادلون الملاحظات بشكل حاد.

قال لي واحد من مجموعة العمل، زار إسرائيل قبل ذلك عدة مرات، أن الإسرائيليين، خشنون في التعامل حتى مع بعضهم البعض، وأن اليهود المتشددين دينياً يقفون على ناصية الشوارع، يشتمون أبناء جلدتهم، يلعنونهم (لاحظت أنا أن هذه عادة يهودية قديمة منذ عهود أنبيائهم الغابرة) لمحت لافتة ضخمة بالإنجليزية، معلقة في مكان بارز، مكتوب عليها «في انتظار عودة رون أراد».. وهو الطيار الذي تطالب إسرائيل به، أو برفاته من حزب الله اللبناني.

وهكذا.. تنتظر إسرائيل رفات مقاتيلها، تتسلمها من أعدائها.

وينتظر «رجال أوسلو» في السلطة الوطنية الفلسطينية، قيام إسرائيل بتنفيذ التزاماتها التي تتنصل منها منذ سنوات، بعد أن فات ميعادها..

ينتظرون من أمريكا، أن تحن عليهم وتقسو على إسرائيل.

وتنتظر «حماس» الفشل النهائي لأوسلو، لتبرر مشروعية المقاومة المسلحة ضد إسرائيل..

في الوقت ذاته تنتظر حماس أن تفرج السلطة الفلسطينية عن نشطاء حماس القابعين في سجون السلطة..

وينتظر جورج حبش الذي يعاني المرض العضال أن تسمح له إسرائيل أن يلقي نظرة وداع على وطنه.

وينتظر جزء كبير من شعب إسرائيل، ظهور «المسيا - المخلّص» الذي سيحكم ألف سنة، ثم يعلن نهاية العالم، وستكون هذه الألف سنة «خلاص» شعب إسرائيل من خطاياهم ومضطهديهم، وازدهار وقيام «صهيون الجديدة» على يد نسل داوود.

وهناك انتظارات قصيرة نسبياً: انتظارات عند الحواجز الإسرائيلية العسكرية للدخول أو الخروج.

انتظارات في المطارات التي تأخذك إلى إسرائيل أو تخرجك منها.

أما الانتظارات التي ليست لها نهاية فهي انتظارات الفلسطيني الحصول على إذن بالبناء أو ترميم ما تهدم.

وانتظار عدل القاضي الإسرائيلي الذي سمح لأجهزة التعذيب الإسرائيلية أن تواصل «عملها» في جسد الفلسطيني وروحه..

* * *

حينما كنت في الطائرة في طريقي لفلسطين - إسرائيل، قرأت في صحيفة الهيرالد تريبيون - الطبعة الأوروبية، تفاصيل عملية تبادل - طال انتظارها - بين إسرائيل وحزب الله اللبناني. تبادل رفات الجندي الإسرائيلي «أتمار إيليا» مقابل عودة 16 أسير لبناني بالإضافة إلى رفات 16 شهيد من بينهم ابن الشيخ حسن نصر الله رئيس الحزب.

لفتت نظري الطقوس الدينية - العسكرية التي صاحبت رفات الجندي الإسرائيلي: فقد تعرّف على الرفات - حسب تعبير الناطق باسم الجيش - الحاخام الأكبر للجيش الإسرائيلي والذي يحمل رتبة ميجور - جنرال. وقد ظهر في الصورة يرتدي ثيابه العسكرية. وقالت الصحيفة، كيف أنه رافق وفد الصليب الأحمر الذي عمل كوسيط بين الجانبين، وأنه قام - بمفرده - بأداء الطقوس الدينية على الرفات بعد «التعرّف» عليها.

قاد الحاخام الأكبر للجيش، الميجور جنرال موكب الهبوط من الطائرة، موكب عسكري، حتى مدافن الأسرة، وأظهرته الصورة يرد على التحية العسكرية، بتحية عسكرية. حكاية إرجاع الرفات - أو العظام - لما يسمى توراتياً وسياسياً أيضاً بأرض إسرائيل، لها جذور عميقة في الميثلوجيا الإسرائيلية، مع العلم أن الديانة اليهودية الأصولية لا تؤمن بالقيامة أو البعث أو يوم الحساب. وترى هذا واضحاً في التاريخ الرعوي القديم للقبائل الإسرائيلية. وحينما وافت المنية - يوسف - في أرض مصر نجد هذا النص التوراتي.. «وقال يوسف لإخوته: حانت ساعة موتي. والله سيذكركم بالخير ويخرجكم من هذه الأرض. حينما يذكركم الله بالخير خذوا عظامي من هنا» (التكوين 50 -) ونجد «كاتب» التوراة يتذكر رجاء يوسف بعد مئات السنين عندما «يخرج» بنو إسرائيل من مصر فيقول: «..وأخذ موسى عظام يوسف معه.. لأن يوسف قال لبني إسرائيل محلفاً:

الله سينقذكم يوماً فأخرجوا عظامي من هنا معكم» (الخروج 13 ـ).

وهكذا حينما رأيت صورة الحاخام الأكبر ـ الميجور جنرال مرتدياً ثيابه العسكرية ومؤدياً التحية العسكرية؛ ذكرني هذا باستمرارية ميثولوجيا «جيش الرب» و«رب الجنود» التوراتية، والمزج بين الكاهن.. والقائد العسكري، وهو التقليد الذي بدأه خليفة موسى «يشوع بن نون» الذي عرفته صفحات التوراة بقسوته الدموية، وقتله للأسرى.. إلخ.

بل إن التاريخ التوراتي يقرر أن الملوك الأوائل لبني إسرائيل، تم اختيارهم شخصياً بواسطة الرب، الذي أرسل نبيه «صموئيل» «ليمسح بالزيت المقدس، أول ملك يهودي، وقائد عسكري وهو شاوول، ثم الملك الثاني والقائد العسكري أيضاً داؤود، وكان كل منهما يقوم بوظيفة الكاهن الأكبر أيضاً.

ومن هنا جاءت كلمة «مسيح الرب» وهو في الأصل اصطلاح يهودي ميثولوجي ـ ديني ـ استعارته الديانة الوليدة الجديدة من رحم اليهودية القديمة ـ وأطلقت على نفسها اسم المسيحية، وقبل ذلك النصرانية (من الناصرة التي ولد فيها المسيح: بيت لحم ـ الناصرة..) باعتبار أن يسوع، عيسى بن مريم هو أيضاً مسيح الرب.. (المسيا ـ المخلص المنتظر) في اللغة العبرية.

ونجد في بإسرائيل المعاصرة، التي بعثت نفسها من الشتات، والتي تريد تكرار «المملكة القديمة» نجد هذه الحالة التروراتية الميثولوجية المتداخلة بقوة في النسيج اليومي للحياة، حينما ذهب نتانياهو ـ بصفته رئيس الوزراء ـ حينما كنت هناك ـ ليلتق بما أسماه هو الفوج الأخير من المهاجرين الفلاشا الأحباش، فيما أطلقت عليه الدولة اسم عملية «إكسيدوس» وهو الاصطلاح اليوناني الذي يعني توراتياً «الخروج».

مجرد إطلاق هذه التسمية التوراتية على مجموعة من المهاجرين اليهود الأحباش. يكشف المحاولات الدائبة «لتكرار» التاريخ التوراتي لليهود.

«الخروج» اصطلاح توراتي لسفر موجود في «التوراة» «اليهودي» و«الكتاب المقدس» المسيحي عن أسطورة «خروج» بني إسرائيل من مصر!

ولا ننسى أن اليهود «انتظروا» أربعين سنة في الصحراء قبل أن يدخلوا «أرض الميعاد» لأن الرب غضب عليهم فقرر أن يتيههم في الصحراء.. كما تقول التوراة!

لهذا فإن الميثيلوجيا الدينية الخاصة بانتظار "المسيا - المخلّص" يجب رؤيتها في إطارها الصحيح: التاريخي والديني، والثقافي أيضاً بالطبع، حيث أفرز هذا الاعتقاد طائفة دينية كبيرة تطلق على نفسها اسم «المسياتيين» يعيش معظم أفرادها في إسرائيل وعدد أخر في الولايات المتحدة وأوروبا الشرقية.. في حالة الانتظار!

الأمر المثير للدهشة هو التناقض الموجود بين طوائف المسياتيين. فقد أصدر الحاخامات القدامى تفسيراً لأسطورة بناء الهيكل الثالث جاء فيه «..لهذا فإن شعب إسرائيل، المشتت بين الأمم، سوف يقيم من وسطه رئيساً، هو المسيا - المخلص ابن داؤود، العائش وسطهم في منفاهم. وسيقودهم إلى أرض إسرائيل بموافقة ملوك الأمم ومساعدتهم «وهكذا يمكن القول أن بناء الهيكل الثالث سوف يتم بموافقة غير اليهود».

فطبقاً للإسطورة التوراتية، فإن بناء الهيكل الثالث (الهيكل الأول بناه سليمان، ثم تم تدميره بواسطة نبوخذ نصر ملك بابل بعد الاستيلاء على أورشليم - القدس في يونيو - تموز 587 أو 586 قبل الميلاد) وبهذا زالت من الوجود دولة اليهود في فلسطين بعد حوالي أربعة قرون فقط

ثم سماح ملك فارس، كورش (بعد هزيمة بابل على يد الفرس والاستيلاء على إمبراطوريتها).. لليهود بالعودة المشروطة بالخضوع لفارس. وهكذا تم بناء الهيكل (الثاني) في العام 538 ثم حدث التدمير النهائي للهيكل وتشتيت اليهود خارج فلسطين على يد القائد والإمبراطور الروماني «تيتوس» سنة سبعين ميلادية، وتمت التصفية النهائية لليهود حينما حاولت بقايا اليهود في فلسطين الثورة التي قمعها الروماني هاريدان بعنف دموي.

وحسب التنبؤات اليهودية، فإن شرط بناء الهيكل الثالث مرتبط بظهور «المسيا ـ المخلص».

مع حالة انتظار «المخلّص» ظهرت الثقافة المصاحبة لها ثقافة «إلي ـ ياه» وتنطق إلييياه. تعني الصعود إلى أرض إسرائيل. والصعود هنا مجازي ومعنوي. فالمجاز باعتبار أرض إسرائيل، مقدسة وسماوية يصعد الطالب إليها، بينما تعتبر طائفة أخرى أن أرض إسرائيل هي «جبل سانت كاترين» في سيناء.. (جبل حوريب أو جبل سيناء) وهو جبل الشريعة، الجبل المقدس الذي التقى فيه موسى وجهاً لوجه بالله.. كما تقول التوراة «الانتظار» هذا يشكل جزءاً هاماً من الفكر الديني اليهودي رافقهم خلال حوالي ألفي سنة من الشتات، بل كان هذا الفكر.. انتظار «المخلص» الذي سيعود بهم مرة أخرى إلى الأراضي المقدسة هو الذي جعلهم يتحملون الشتات مثلما يتحمّل السجين سنوات سجنه الطويلة وهو يعلم بأنها لا بد أن تنتهي يوماً متكللة بانتصاره على سجانيه!

ومع أن فكرة المسياتية تتناقض بالأساس مع الدعوة الصهيونية السياسية (التي اتخذت اسمها من الفكرة الدينية المرتبطة بجبل صهيون المقدس عند اليهود الذي تقول التوراة إن الملك داؤود بنى مدينته فوقه)

إلا أن الفكرتين تمكنتا من إيجاد حل براغماتي للتعايش بينهما رغم تناقضهما الأساسي.

يقول السبروفيسور سبيرلنج وهو أستاذ العقيدة اليهودية بالجامعة العبرية. «أثناء حروب إسرائيل الحديثة مع جيرانها العرب كان المسياتيون يصلون ويبتهلون أن ينصر الله إسرائيل على أعدائها برغم أنهم يرفضون من الأساس فكرة قيام دولة إسرائيل قبل توفر الشروط الخاصة بظهور «المخلّص».

ونجد في منتصف القرن الخامس عشر أن موجة من الهجرة الجماعية إلى فلسطين من يهود «قشطالة» في إسبانيا ظهرت بمقابلها تحذيرات قوية دينية من مفسرين يهود للتوراة. تطالبهم بالرجوع. وتقول الرسالة الموجهة من رؤساء الطوائف في سراقوسا إلى زملاءهم في قشطالة «قامت مجموعات كبيرة العدد من الناس وقليلة الأهمية بالرحيل إلى أرض إسرائيل.. ولا نعرف سبب هذه الحماقة الكبيرة.. لهذا نطالبكم، بالعمل على إرجاع هؤلاء الناس. ولا تجعلونهم يتعجلون «النهاية» (يقصد هنا نهاية العالم بظهور المخلّص).. ونحن نصلي بأمل عودة «السيد» إلى صهيون وحينئذ سوف يتبعه جميع شعب إسرائيل ويصعدون إلى هناك ليشاهدوا السيد إلهنا في بيته الذي اختاره».

ولكن مع بداية النصف الثاني من القرن السابع عشر، بدأت مجموعات كبيرة من يهود شرق أوروبا تحاول «الاستقرار» في فلسطين وكان واحد من أهم الشخصيات الداعين للاستقرار في فلسطين هو الرابي يوداه ـ الحسيد (الذي اتخذ أتباعه بعد ذلك لقب الحسيديين) وجاء هو وأتباعه تسوقهم حمى «المسيا المخلّص».

وقد رأيت «الحسيديين» الذين يتخذون الآن سمتاً صوفياً. بل إن

«مشايخهم» تقام لهم الموالد والاحتفالات مثلما تقام عندنا في بلادنا. المدهش أن أشهر هؤلاء الحسيديين قدموا من شمال إفريقيا من المغرب وتونس والجزائر. وقد رأيت ذات ليلة في تل أبيب حلقة راقصة كبيرة تضم الناس من جميع الأعمار من الجنسين، يرقصون على «ابتهالات» شيخهم الحسيدي على قارعة الطريق، على الكورنيش وتضيء المكان كشافات كهربائية من سيارة الطائفة الحسيدية المرسيدس ـ فان، والمجهزة بمكبرات الصوت. بل أن معظم الباصات التي تعاملت معها (الإسرائيلية) الحكومية تجد صورة ـ فوتوغرافية ـ للشيخ الحسيدي معلقة بمواجهة السائق. كنت ساعتها استرجع ظاهرة انتشار الآيات القرآنية في مصر، وشعارات «يا ناس يا عسل أبو محمد وصل» أو «يا ناس يا شر كفاية آر» وما فيش حد أحسن من حد!

ولأن الموضوع أثا اهتمامي، لذا نقبت وسألت وحصلت على بعض المراجع و«الأوراق» التي استخدمتها في كتابة هذه المادة، وخاصة دراسة للبروفيسور «أفازير رافتزكي» بعنوان: الميسيانيزم، والصهيونية، واليهودية المتشددة.

كذلك فإن من الملاحظ أن الميديا العالمية والعربية لا تعط اهتماماً كافياً بـ «الحالة الدينية» في إسرائيل، رغم أهميتها على الساحة السياسية المحلية والعالمية، وتقدم الميديا صورة اليهودي المتشدد دينياً «في صورة أحادية فقط.. صورة المستوطن المسلح بالبندقية الأتوماتيكية، صورة إيجال أمير الذي اغتال رابين، (وهو بالمناسبة طالب في مدرسة دينية، واستفتى واحداً من الحاخامات بإعطائه فتوى بقتل رئيس الوزراء) أو صورة طلاب المدارس الدينية وعلى رأسهم الطاقية السوداء وهم يرشقون الفلسطينيين بالحجارة..

وبالطبع صورة الوزراء الدينيين في حكومة نتانياهو.

جميع هذه الصور أحادية. فبجوار هؤلاء، نجد الحسيدي، وهناك «حراس الهيكل» الذين يطالبون بإزالة دولة إسرائيل.. إلخ.

لكن بين هذا وذاك.. بين اليهودي - الإسرائيلي بعقائده المتنوعة وصوره المختلفة. وبين الفلسطينيين.. فلسطين الـ 48. وفلسطين الشتات، وفلسطيني مناطق السلطة الوطنية.. سنجد أيضاً الفلسطينيين بكل طوائفهم و«قبائلهم» السياسية وانتماءاتهم القطرية والدينية.

سنجد أن فلسطين، المكان، تستحق لقب الأرض المقدسة، كما تستحق في الوقت نفسه وعن جدارة لقب أرض النزاعات والشقاقات.. هذه الشقاقات والنزاعات الناجمة عن حالة الانتظارات الطويلة التي لا تبدو لها نهاية.

ذات عصرية وجدت نفسي، في كنيسة القيامة، في مدينة القدس القديمة. قادتني الغريزة - الوطنية - إن جاز التعبير إلى الجزء المخصص للكنيسة القبطية المصرية. كنت قد قرأت قبل ذلك عن الصراع بين الكنيستين القبطيتين، المصرية، والحبشية على دير متنازع عليه هو «دير السلطان» تقول الكنيسة المصرية إنها تملكه منذ ئات السنين وأن الرهبان الأحباش الذين كانوا يعيشون في القدس استولوا عليه. ووصل النزاع بالطبع إلى الحكومات، والمحاكم الإسرائيلية أيضاً. وكان واحداً من الأسباب الهامة التي أعلنها البابا شنودة في رفض الكنيسة القبطية المصرية السماح للحجاج المسيحيين بزيارة القدس (بالإضافة للأسباب الوطنية والسياسية الأخرى).. وهكذا وجدت نفسي أتحدث مع الراهب المصري المكلف بالرعاية الدينية لـ«الكنيسة» الصغيرة المقامة - كما قال لي - فوق الجزء الحقيقي من قبر المسيح.

لم يخف الراهب دهشته من وجود مصري، في كنيسة القيامة، ولمَّا قلت له إني أعيش في هولندا وإني أنتمي بحكم الميلاد للكنيسة البروتستنتية المصرية (لاحظ بالتأكيد عدم معرفتي بالطقوس المعتادة أثناء زيارة الأماكن المقدسة) وقال لي ضاحكاً إنه الآن يستطيع تفسير وجودي في الكنيسة و«جهلي!».

حكى لي بطريقته البسيطة أسباب النزاع على الدير وقال إنه أثناء وبعد حرب سبعة وستين، اضطرت الكنيسة القبطية لسحب الرهبان المصريين من القدس، وسلّمت الدير «أمانة» للرهبان الأحباش، خاصة أن الكنيسة القبطية أيامها كانت الكنيسة الأم بالنسبة للكنيسة الحبشية وكان البابا المصري، يحتفظ بلقب بطريك الكرازة المرقسية، وبابا الكنائس الأثيوبية.. لكن المياه التي جرت تحت الجسر بعد ذلك، واستيلاء منجستو هيللا ماريام على الحكم في أديس أبابا، جعل الكنيسة الحبشية «تستقل» عن المصرية، وبتحريض من إسرائيل، استولت على دير السلطان.

وقال لي الراهب، إنه بالرغم من صدور حكم للمحكمة الإسرائيلية - حديثاً - بأحقية الكنيسة المصرية في دير السلطان، لم يسلّم الرهبان الأحباش الدير للمصريين، بموافقة صامتة من الحكومة الإسرائيلية التي ترفض تنفيذ الحكم كما يجب!

وبالطبع قمت بزيارة دير السلطان، الذي يفتح في ساعات محددة للزوار.

هذه حالة من حالات «الشقاق» الديني، بين أبناء الدين الواحد، والملة الواحدة، فما بالك بالشقاق بين اليهود والمسلمين في الخليل، حول زيارة قبر «إبراهيم الخليل» الذي يقدّسه المسلمون ويعتبرونه أيضاً جدهم الأكبر! وهكذا تمت «قسمة» القبر المزار، وهل ننسى المجزرة التي قام

بها يهودي متعصب من المستوطنين في الخليل بقتل المصلين المسلمين في المزار.. المسجد هذا المتعصب الذي أصبح قبره. مزاراً. من اليهود المتعصبين من جميع أنحاء إسرائيل!

وحينما أردت أن أذهب إلى الخليل لم أستطع بسبب الإجراءات الأمنية، حينما قام يهودي متعصب آخر (عمره 18 سنة وطالب في المدرسة الدينية بالخليل) بالهجوم ببندقيته الأتوماتيكية - للمرة الثانية خلال شهر واحد - على الفلسطينيين في الخليل والذين يشكلون الأغلبية المطلقة، وقتله - للمرة الثانية أيضاً - فلسطينياً كان يبيع الخضار على عربة يد!

والنزاع بالطبع لا يقتصر على المتعصبين الدينيين اليهود حول أحقية الوصول إلى مزار أو مقام مقدس. إنه أسلوب حياة هناك في الأراض المقدسة، مما يصيب النفس بحالة من الإحباط المستمر. والمتبع للمناورات التفاوضية الإسرائيلية يلمح هذا الأسلوب بوضوح أسلوب التمسك بكيلومتر هنا وبنصف كيلومتر هناك.. مثل التمسك بمستوطنة الخليل التي لا يزيد عدد سكانها عن مئات قليلة وسط بحر زاخر من الفلسطينيين الذين يبلغون أكثر من نصف مليون!

أسلوب الحياة هذا الذي، يقسّم الشوارع: شوارع للمستوطنين وشوارع للبشر الآخرين.. أرقام وعلامات سيارات: تلك المسموح لها بدخول المناطق (مناطق السلطة الفلسطينية) وتلك الممنوع عليها دخول القدس!.. حواجز ثابتة ومتحركة لضبط كل هذا.

حينما كنت أتجول في مدينة القدس القديمة، كنت أحس بحالة الإحباط هذه تستولي عليّ، وأنا أرى الجنود الإسرائيليين المدججين بالسلاح وبأجهزة الكشف عن المتفجرات، يتمركزون في مناطق تقاطعات

الشوارع الصغيرة والأزقة الضيقة. يشيعون حالة من التوتر. القابل للانفجار في أية لحظة تجدهم حول المسجد الأقصى وعند حائط المبكى. عند الكنائس والمزارات المسيحية والإسلامية.

وضع جمال حمدان إصبعه على ما أطلق عليه «نفسية الجيتو» حينما يقول في كتابه (شخصية مصر) «..فقد تعين في حالة إسرائيل أن تصبح حدودها هي جيوشها وجيوشها هي حدودها» ويقول في كتابه (اليهود).. «ومع ذلك وعلى الفور نفهم أن نظرية العزل السكاني. هو قانون اليهودي في المدينة. فطوال عصور التاريخ وفي كل بلاد العالم ارتبط اليهود كقاعدة بلا استثناء في حي خاص بالمدينة... الجيتو «كما يقال له في بلاد أوروبا الغربية أو حارة اليهود كما يقال له في مصر. أو «الملة» كما يقال له في مدن المغرب العربي. أو «القاع» كما في مدن اليمن».

وأستطيع أن أضيف تفسيراً بقولي: نتيجة. لوجودهم الفعلي والمحسوس في السلطة للمرة الأولى منذ حوالي ألفي سنة. فإنهم طوروا الجيتو. وجعلوه أسلوب حياة. لهم وللفلسطينيين أيضاً الذين يعيشون بين ظهرانيهم. تجده كإسلوب معماري ـ الأسلاك الشائكة الكهربائية التي تحيط بالمستوطنات. بالإضافة إلى البوابات الحديدية والجدران العالية.

تجده في أسلوب بناء الكيبوتز. الذي يتضمن داخله. المخابىء تحت الأرض. ومخازن الغذاء. والتطبيق العملي للاكتفاء الذاتي تحسباً للحرب. جزر منعزلة مسورة.. قلاع مسلحة. مثل قلاع العصور الوسطى. تضم الجندي والتاجر والمزارع داخل أبوابها. التي تغلقها ساعة الخطر. ويقف عليها في الأيام العادية الحراس يدققون في الداخل والخارج.

طبقوا الجيتو أيضاً على غزة. وعلى «المناطق» الفلسطينية دخول أو خروج بتصاريح.. كل تصريح يحمل رمزاً وعلامة ولوناً خاصاً.. هذا طبعاً

بالإضافة إلى «منافذ» الدولة ذاتها، التي ليس لها حدود دولية معترف بها.. فهناك على امتداد مئات الكيلومترات المنتزعة من أراضي الأردن ولبنان وسوريا، تنتصب الأسلاك الشائكة المكهربة وأبراج المراقبة الألكترونية، تعبرها الدوريات المسلحة وتراقبها من أعلى طائرات الهيلوكبتر العسكرية.

أما في البحر، فالزوارق والسفن والغواصات الحربية بأنواعها فوق الماء وتحته تراقب، وترصد.

بل إنهم مدوا من «حدود الجيتو» ليصل إلى إفريقيا، إلى إثيوبيا وأرتريا باعتراف صحيفة معاريف الإسرائيلية التي نشرت معلومات في هذا الصدد في طبعتها الإنجليزية.

بالرغم من أن العالم المسيحي يعتقد أن «المخلّص» بالفعل قد جاء في شخص المسيح «النبي اليهودي الذي رفضه اليهود» فإن العديد من الطوائف المسيحية الهامة، تؤمن بما يسمونه «المجيء الثاني للمسيح» ليحكم أيضاً، بالعدل، ألف سنة! وقال لي الملاك.. وحق الرب الإله الذي يوحي إلى الأنبياء أرسل ملاكه ليكشف لعباده ما لا بد من حدوثه عاجلاً. ها أنا آت سريعاً» (رؤيا يوحنا 22).

علماً بأن يوحنا هذا كان من تلاميذ المسيح وسجل «رؤياه» منذ حوالي ألفي سنة! مبشراً الناس بالانتظار الذي رأى أنه لن يطول أما أنا فقد انتظرت طويلاً منذ أن شاهدت وشهدت على «خروج» الفلسطينيين من لبنان انتظرت أن أرى العلم الفلسطيني ولو على جزء صغير من أرض فلسطين.. غير مكتمل التحرير، هذا العلم الذي تحول إلى ملصق صغير.. «فلسطين عربية».

لقد انتظر الفلسطينيون حوالي نصف قرن ليستطيعوا، أن يرفعوا

علمهم مرة أخرى على جزء من أرضهم.

وها أنا أرى «فلسطين عربية» بعد طول انتظار!

سأقتبس هنا فقرات من كلمة لمحمود درويش، ألقاها في ندوة أقامها اتحاد كتاب فلسطين في جامعة بير زيت تحت عنوان «عالم جديد لرؤى جديدة» في أواخر آذار مارس الماضي، بمشاركة عدد من الكتاب العالميين (مجلة الكرمل العدد 51 السنة 1997).

عنوان كلمة درويش «مرثية سلام لم يولد بعد».

يقول: «ليس السلام النبيل هو الذي يسقط مضرجاً بدمائه على هذه الأرض، فهذا الوليد الجميل لم يولد بعد» ويقول أيضاً في موضع آخر: «..ومن هنا يرتبط سؤال تحررنا الوطني، بسؤالنا الثقافي.. وهنا يتجلى الأثر التدميري المتواصل للاحتلال المستمر.. لن تتمكن الثقافة الفلسطينية، على ما يبدو وفي حقبة سلام إسرائيلي كاذب من الانفصال عن تاريخية ثقافة المقاومة... التي ترتبط بالبحث عن إعادة تشكيل الهوية».

ويتحدث محمود درويش عن دوافع «الغياب» التي حدت بالكثير من المثقفين العرب إلى مقاطعة هذه الندوة «فكل فرد يختار طريقته الخاصة في التعبير عن تضامنه مع السجناء وطريقته الخاصة في مقاومة السجّان، ولكن على الكاتب العربي الفلسطيني أن يعلن أنه لم يشأ ولا يشاء، ولن يشاء أن يكون جسراً للقاء العرب بالإسرائيليين.. كما أتفهم دوافع الأشقاء العرب والأصدقاء الأوروبيين وغيرهم ممن حضروا إلى هنا ليعبروا عن تضامنهم مع المحاصرين الفلسطينيين.. إن من غابوا، غابوا من أجلنا، ومن حضروا حضروا من أجلنا..».

وهكذا ينتظر الفلسطينيون. ونحن معهم. السلام الذي لم يولد بعد!

## سعد مرتضى

# مهمتي في إسرائيل: مذكرات أول سفير مصري في تل أبيب (2008)

مهمتي في إسرائيل: مذكرات أول سفير مصري في تل أبيب (2008)

في هذا الكتاب يروي سعد مرتضى - أول سفير مصري في تل أبيب - قصة تجربة فريدة ومثيرة عاشها المؤلف/ السفير في إسرائيل، عندما أوفدته مصر كأول مبعوث للسلام الذي وقعه الرئيس الراحل أنور السادات في واشنطن في 26 مارس 1979 مع رئيس وزراء إسرائيل الأسبق مناحم بيجن، ووقعه معهما الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر.

وهذا الكتاب هو واحد من الكتب القليلة التي تُقدّم لنا تقييماً متوازناً للمجتمع الإسرائيلي والثقافة الإسرائيلية: فمعظم الكتب العربية والدراسات التي اهتمت بإسرائيل أو بالصراع العربي الإسرائيلي، كانت تركّز في المقام الأول على اعتبار إسرائيل العدو اللدود الذي يجب محاربته بكل الطرق.

ملاحظات السفير سعد مرتضى عن الشعب الإسرائيلي تتسم بدبلوماسية مفرطة وتحيّز واضح لفكرة السلام - ولو كان بارداً - في مقابل الحرب.

يقول المؤلف في مقدّمة كتابه: «لقد أتاحت لي هذه المهمة أن أرى إسرائيل من الداخل، وأن التقي بالمسؤولين فيها، وأن أعرف الكثير من أهلها في غير نطاق العمل الرسمي، كما تجوّلت في مناطق عديدة

وتعرّفت على بعض نواحي الحياة فيها». ولذلك فهو يحاول في هذا الكتاب نقل الانطباعات والمشاعر التي أحسّ بها أثناء هذه الفترة إلى القارىء المصري والعربي، وأيضاً توضيح صورة المهمة التي أدّاها. وبهذا قد يكون في قراءة تجربته محاولة لإزالة الغموض الذي يحيط بحقيقة الدولة الإسرائيلية.

ويتكوّن الكتاب من 11 فصلاً، تبدأ بردّ على سؤال طالما واجهه المؤلف، وهو: لماذا قبل هذه المهمة؟ ثم التمهيد للسفر، كيف وجد إسرائيل؟ والشخصيات الإسرائيلية التي التقاها. ثم فصل عن المؤسسات مثل الكنيست والكيبوتس وغيرهما وعن حياته ورحلاته في إسرائيل، ثم فصل عن مسيرة التطبيع، وآخر عن محادثات الحكم الذاتي الفلسطيني، وفي الفصل الثامن يتحدّث عن وقوف مصر في جانب الشرعية الدولية، ثم إتمام الانسحاب من سيناء، ثم فصل تحت عنوان «السلام والسلام البارد» وفي الفصل الأخير يتحدّث عن غزو لبنان والذي تزامن مع استدعائه وعودته إلى مصر بسبب تطوّر الأحداث في ذلك الوقت.

ويحكي «سعد مرتضى» عن البداية والتي كانت في 18 ديسمبر 1979 فيقول: «استدعاني الدكتور بطرس غالي لمقابلة في مكتبه، وما إن جلست حتى سألني «ما رأيك في إسرائيل؟». وارتسمت على شفتيه شبه ابتسامة، وأضاف وكأنه يشجّعني على القبول: «إنك ستكون بذلك أول سفير لمصر في إسرائيل.. وستدخل التاريخ». ولم أكن في حاجة للتشجيع على قبول المهمة، وربما لم يكن مما يهمني كثيراً أن يذكر التاريخ اسمي... إنني سبق أن فكرت في احتمال عرض هذا المنصب عليّ، لكنني عُدت فاستبعدت هذا الاحتمال: لاعتقادي أن المهمة سيكلّف بها أحد ممن شارك في محادثات السلام أو عمل في شؤون فلسطين.. لذلك فوجئت

بالعرض، ومع ذلك فإن اقتناعي المسبق بفكرة السلام مع إسرائيل دفعني إلى قبول المنصب دون تردّد.

كان شرط اقتناع السفير «سعد مرتضى» بفكرة السلام مع إسرائيل مهمّاً: لكي يستطيع القبول بالمهمة الصعبة، فهو ليس سفيراً كأي سفير، ولكنه سيتعامل مع شعب يتخيّله معظم العرب كوحوش آدمية، ولكن «سعد مرتضى» كان يرى شيئاً آخر، فيُؤكّد عبر مذكراته وفي أكثر من موضع «أن المجتمع أو الشعب اليهودي بأسره يودّ أن يعيش في سلام مع الدول العربية المحيطة به.. إنها ليست رغبة، بل هذه أمنيته التي يأمل أن تتحقق ولو بعد سنين طويلة».

ولقد كان وضع السفير المصري في بداية رحلته مميزاً جداً، فيُؤكد أنه «كانت الحفاوة والترحيب غير عاديين».. «لقد أمضيت سنوات طويلة في خدمة السلك الدبلوماسي المصري قبل سفري إلى إسرائيل، ولم أرَ خلالها مثل هذا الترحيب وتلك الحفاوة بأي شخص آخر».

هكذا يعتبر كتاب مهمتي في إسرائيل (من إصدارات دار الشروق) من الكتب القليلة التي تطرّقت إلى تجربة الحياة في قلب إسرائيل، وتحتوي خبرة حقيقية بالمجتمع الإسرائيلي قلما نجدها في كتب أخرى.

# مقدمة

يروي هذا الكتاب قصة تجربة فريدة ومثيرة عشتها في إسرائيل، عندما أوفدتني مصر كأول مبعوث للسلام الذي وقعه الرئيس الراحل أنور السادات في واشنطن في 26 مارس 1979 مع رئيس وزراء إسرائيل الأسبق مناحم بيجن، ووقعه معهما الرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر، بعد سنوات عديدة من العداء والحروب بين مصر والدول العربية، وبين إسرائيل.

لقد أتاحت لي هذه المهمة أن أرى إسرائيل من الداخل، وأن ألتقي بالمسؤولين فيها، وأن أعرف الكثير من أهلها في غير نطاق العمل الرسمي، كما تجوَّلت في مناطق عديدة وتعرفت على بعض نواحي الحياة فيها. وإنني أحاول في هذا الكتاب أن أنقل إلى القارىء، وخاصة القارىء المصري والعربي، الصورة التي رأيتها، والانطباعات والمشاعر التي أحسست بها، كما أوضحت، في الحدود المتاحة، صورة عن المهمة التي أديتها.

ومن خلال مقابلاتي مع عدد من المصريين والعرب، لمست اهتماماً ظاهراً بأن يعرفوا مني، وقد عرفت في إسرائيل، الكثير عن هذه الدولة، وشعبها، وعملي فيها، لأن القطيعة القائمة بين العرب وإسرائيل نتيجة الصراع بينهما، أسهمت في إسدال حجب من الغموض على حقيقة ما يجري هناك. وقد اختلطت الحقائق بالدعايات، العربية أحياناً، والإسرائيلية أحياناً أخرى.. لقد سئلت كثيراً: كيف وجدت إسرائيل.. وكيف استقبلوك هناك.. وكيف تعاملت مع المسؤولين فيها.. وكيف وجدت شعبها.. وأسئلة أخرى كثيرة من بينها مثلاً هلى صحيح أن «المخ اليهودي» يتمتع بتفوق خارق.. وهلاّ ترى في مسالمة إسرائيل خطراً على الحضارة

العربية والإسلامية.. ومن بين الأسئلة كذلك هل يريد الإسرائيليون حقاً أن يعيشوا في سلام مع العرب.. وهل سيعيدون لشعب فلسطين حقوقه.

وكل هذه الأسئلة تعكس مدى الرغبة في إلقاء الضوء على هذا الجزء من المنطقة التي نعيش فيها، كما تبدي المخاوف من نتائج السلام مع هذا الجار الجديد.. والغريب.. وإنني أحاول أن أجيب بكل الصدق والموضوعية على تلك الأسئلة التي وجهها إليّ عشرات من المصريين، وبعض الأجانب أيضاً.. وعلى غيرها من المسائل التي عرضت لي خلال عملي في إسرائيل.

ولم تكن مهمة الكتابة يسيرة، فقد حالت ظروف شخصية متلاحقة دون سرعة إنهاء هذا الكتاب وإيصاله إلى القارىء قبل ذلك، فضلاً عن بعض المحاذير التي ألزمتني بعدم الإشارة إلى بعض التفصيلات المثيرة، والتي لم يحن الوقت بعد لنشرها... كذلك لم يتضمن الكتاب أية وثيقة رسمية.. وحتى حين استلزم الأمر الرجوع إلى بعض أحكام اتفاقات السلام، فإنني أوردت أهم ما تضمنته دون الالتزام بالنص الكامل، تحاشياً للإطالة من جهة، ولأنه يمكن للقارىء الذي يرغب في الاستزادة أن يرجع إلى تلك النصوص التي سبق نشرها، من جهة أخرى.

والكتاب ليس تجميعاً مرتباً لكل ما حدث، وإنما هو سرد مبسّط، حاولت أن يكون خفيفاً، للأحداث التي عاصرتها وتتصل بمهمتي في إسرائيل.. إنها ليست يوميات ولكنني حرصت على تدوين وعرض جوهر التجربة التي مررت بها، وعلى أن أبيّن خلال العرض الخلاف بين وجهات النظر المصرية والإسرائيلية.

وغني عن البيان أنني عندما أعرض وجهة نظر إسرائيل فلا يعني ذلك اقتناعي بها، ولكنني أود أن يطلع القارىء على ما يسمونه «الوجه

الآخر للعملة». فالمعرفة من أسباب القوة.. وعندما يعرف العرب كيف يفكر ويعمل سكان إسرائيل.. كيف يعيشون خلافاتهم وكيف يتصرفون إزاءها.. فإن الصورة ولا شك تصبح أكثر وضوحاً.. ويجيء الفكر والعمل العربي أكثر استناداً إلى الواقع.

لقد أمضيت 35 عاماً في خدمة الدبلوماسية المصرية، شغلت خلالها عدة مراكز في وزارة الخارجية وفي بعثات مصر في الخارج، وعاصرت أحداثاً هامة، والتقيت بشخصيات تاريخية.. كنت سكرتيراً للسفارة المصرية في بلجراد عندما اجتمع الرؤساء عبدالناصر ونهرو وتيتو في قمة الانحياز في جزيرة بريوني سنة 1956.. وعملت في بروكسل حين قررت بلجيكا سنة 1961 قطع العلاقات مع مصر التي ساندت ثورة لومومبا في الكونجو.. كما كنت قائماً بأعمال السفارة المصرية في بوخارست حين وقع الانفصال بين شطري «الجمهورية العربية المتحدة». ونقلت إلى السفارة المصرية في جدة حين حضر الرئيس عبدالناصر إلى السعودية ووقع مع الملك فيصل سنة 1965 «اتفاق جدة» لإنهاء الخلاف بين البلدين حول مشكلة اليمن.

وعندما عينت سفيراً لأول مرة سافرت إلى الإمارات العربية المتحدة عقب حصول الدولة الجديدة على استقلالها سنة 1972، وتابعت عن كثب تطورات حرب أكتوبر سنة 1973 وأثرها في دول الخليج وفي أسعار البترول التي هزت اقتصاد العالم.. ثم نقلت إلى السنغال وفي داكار التقيت بالشخصية الإفريقية الفذة الرئيس السابق ليو بولد سيدار سنجور الذي خلق لبلاده مكانة إفريقية وعالمية تتجاوز إمكاناتها المادية.. شغلت أيضاً منصب سفير مصر لدى المملكة المغربية حين قام الرئيس السادات بمبادرة السلام وزار القدس في 19 نوفمبر 1977.

كلها أحداث هامة تابعتها عن كثب، وكلها بلاد أعتز بعملي فيها وأكن كل التقدير للشخصيات التي التقيت بها.. كانت كلها حلقات في سلسلة وفي نطاق العمل الدبلوماسي الذي مارسته وأحببته.

وعندما اختارتني وزارة الخارجية المصرية وكلفتني بالعمل كأول سفير لمصر لدى دولة إسرائيل، لم يكن ذلك عملاً دبلوماسياً عادياً. رغم أنه تم في نطاق الإجراءات الدبلوماسية المعتادة. بل كان بكل المعايير حدثاً أثار اهتمام الرأي العام في مصر وفي العالم العربي وفي إسرائيل، كما اهتم به المراقبون الأجانب الذين كانوا يتابعون تطورات الموقف في الشرق الأوسط، لأن مهمتي كانت مرتبطة بأول اتفاق سلام يعقد بين مصر كبرى الدول العربية، وبين إسرائيل.

لقد استنكر هذه المهمة وأدانها من رأى في السلام المصري استسلاماً لإسرائيل، واهداراً لانتصارات أكتوبر 1973، وتفريطاً في حقوق الشعب العربي الفلسطيني، وانشقاقاً على «وحدة الصف العربي» وعزلاً لمصر عن العالم العربي، وخروجاً بها من ميدان المعركة.

ومن جهة أخرى، فقد أقرّ هذه المهمة وتفهم ضرورتها من رأى في السلام المصري مع إسرائيل الحل العملي الوحيد والممكن في ذلك الوقت، الذي يتيح لمصر فرصة استعادة سيادتها على شبه جزيرة سيناء، بكل حدودها الدولية، ويخلق فرصة لتحسين أوضاع الشعب الفلسطيني الذي كان ولا يزال يعاني مرارة الاحتلال العسكري الإسرائيلي في الضفة الغربية وفي قطاع غزة، خلال فترة انتقالية يتمكن بعدها من تقرير مستقبله، ولو بالانضمام إلى الأردن، في إطار السلام الشامل في المنطقة.

لذلك شعرت بعد أن انتهى عملي في إسرائيل سنة 1982، وتقاعدت في سنة 1983، أنه من واجبي أن أكتب عن هذه المهمة غير العادية التي

أسندت إليَّ. لقد بدأت تلك المهمة في يناير 1980 . بإعلان تعييني سفيراً لمصر في إسرائيل، وانتهت بعد غزو إسرائيل للبنان وما أعقبه من مذابح للاجئين الفلسطينيين في معسكري صبرا وشاتيلا تحت سمع وبصر القوات الإسرائيلية الغازية في سبتمبر 1982.. كانت مهمة لم تكتمل، تحققت خلالها بعض مظاهر وأهداف السلام بين مصر وإسرائيل، وتعثرت الآمال والأهداف الأخرى التي كان منها تمكين سكان الأراضي المحتلة من حكم أنفسهم ذاتياً.

وفي الفصول الأولى من هذا الكتاب أروى قصة اختياري وقبولي لهذه المهمة وسفري لإسرائيل. ومشاهداتي وانطباعاتي عن هذه الدولة وشعبها، كما أشير إلى عدد من الشخصيات الإسرائيلية الهامة التي عرفتها، وأتحدث عن زياراتي لبعض مناطق إسرائيل.

وفي فصل لاحق أعرض لمسيرة تطبيع العلاقات بين مصر وإسرائيل، على ضوء أحكام اتفاقات السلام، مبيناً ما الذي كانت تتوقعه إسرائيل وكيف كانت تريد أن يمحو السلام الوليد كل آثار الماضي، وأن تتوثق العلاقات بين البلدين في جميع الميادين، دون ربط بين هذه الصلات وبين تعثر محادثات الحكم الذاتي.. أما مصر التي اختارت السلام مع إسرائيل، فإنها كانت تريد السلام الشامل والعادل الذي يعيد لشعب الأراضي المحتلة حقه في تقرير مصيره، ولذلك كانت تقبل مبدأ تطبيع العلاقات مع إسرائيل، ولكنها تحدد تقدم هذا التطبيع بالقدر الذي لا يسيء إلى مصالح مصر والمصريين في العالم العربي.

ثم تناولت محادثات الحكم الذاتي موضحاً كذلك الخلاف الجوهري بين تصوّر الجانبين المصري والإسرائيلي، وهو خلاف كان قائماً عند إبرام الاتفاق الذي صيغت أحكامه على نحو يكفل الحصول على موافقة

الطرفين على صياغة تتسم بالغموض المتعمّد، بينما يحتفظ كل طرف بالتصوّر والتفسير الذي يراه محققاً لأهدافه.

ولقد خصصت بعد ذلك قسماً عن انسحاب القوات الإسرائيلية من سيناء، وإخلاء شبه الجزيرة المصرية من جميع المستوطنات التي كانت إسرائيل قد شيّدتها منذ سنة 1967.. وقد اقترنت هذه المرحلة بتوتر سياسي عند إخلاء مستعمرة يا ميت ـ قرب الحدود عند مدينة رفح ـ وعند تخطيط الحدود الدولية والاختلاف على علامات الحدود، وخاصة عند منطقة طابا (جنوب إيلات).

إنني أعتبر إتمام الانسحاب من سيناء الإنجاز الأكبر الذي حققته اتفاقات السلام. ومع ذلك يرى كثيرون في مصر والعالم العربي أنه لا يساوي الثمن الكبير الذي دفعته مصر بإبرام السلام وتطبيع العلاقات مع إسرائيل، والخروج على العالم العربي، فضلاً عن القيود التي فرضت على تسليح شبه الجزيرة التي وصفها البعض بأنها مجرد حفنة من الرمال.

وقال آخرون إن استعادة سيناء كلها كانت «مضمونة» دون حاجة إلى عقد سلام أو إلى تطبيع العلاقات مع إسرائيل.. ومع احترامي لكل الآراء، فإنني أشك كثيراً أن استعادة سيناء كانت ممكنة بدون السلام أو التطبيع.. وعلى أي حال فإنني كمصري أؤمن أن كل «حفنة» من رمال مصر مقدسة، وأن تحرير سيناء من الاحتلال الإسرائيلي عقب هزيمة 1967، كان واجباً وطنياً.. ولا يقلّل من شأن هذا الإنجاز أنه تم في ظل اتفاقات السلام.. كما أعتقد أن مصر التي تحتل إسرائيل جزءاً كبيراً من أراضيها، لن تكون أقدر على القيام بدورها أو الإسهام بنصيبها في نصرة الحق العربي الفلسطيني، وخاصة أن تحرير سيناء لم يتضمن أية تنازلات عن حقوق شعب فلسطين.

وما زال ميدان العمل الدبلوماسي والسياسي والعسكري مفتوحاً أمام الشعوب والدول العربية الأخرى.. ولا زالت مصر تقوم بدورها في حدود إمكاناتها..

وفي الجزء الأخير من الكتاب أعرض إلى غزو إسرائيل للبنان، وأحاول أن أنقل الصورة التي تكوّنت لدى عن الأوضاع في لبنان في المدة السابقة على الغزو، كما أروى قصة هذا العدوان الإسرائيلي كما رأيتها من موقعي في تل أبيب.. ماذا كانت أهدافه.. وردود الفعل المختلفة في الدول العربية وفي إسرائيل. وأمام المحافل الدولية.. وماذا كانت نتائج هذه الحرب التي تجاوزت كل حسابات مدبّريها، وأساءت إلى جميع الأطراف، وأثرت على موازين القوى المحليَّة والدولية بما فجّرته من صراعات داخلية..

لقد انتهت مهمتي في إسرائيل بعد المذابح التي راح ضحيتها مئات وربما آلاف من أبناء الشعب الفلسطيني على يد ميليشيات الكتائب في منطقة تخضع للسيطرة الإسرائيلية.. ولكن الصراع في لبنان ما زال مشتعلاً.. والنزاع العربي الإسرائيلي لم يجد بعد حلاً.

* * *

إنني أتصور أن بعض ما ذكرته في هذا الكتاب عن إسرائيل وشعبها والشخصيات التي التقيت بها قد يلقى النقد في العالم العربي الذي لا زال يسمى إسرائيل «الكيان الصهيوني».. وهي فعلاً كيان صهيوني له وجود سياسي واقتصادي واجتماعي وعسكري في المنطقة.. وقد يعترض البعض على أنني لم أشرح القضية الفلسطينية ومسؤولية إسرائيل التاريخية عن

النكبة التي أصابت الشعب الفلسطيني..

كذلك قد يستاء بعض الإسرائيليين من انتقادي لتصرفات الحكم العسكري في الأراضي العربية المحتلة وسياسة المستوطنات التي تعرقل الوصول إلى حل للنزاع العربي الإسرائيلي، ومن اتهامي لحكومة الليكود بالتعنت وتحميلها مسؤولية فشل محادثات الحكم الذاتي.

ولهذا أؤكد أنني لا أدوّن تاريخ النزاع العربي الإسرائيلي، بل أروى فقط ما يتصل بمهمتي في إسرائيل.. فالقضية الفلسطينية معروفة.. والدول العربية تنادي بالحق العربي منذ أربعين عاماً في المحافل الدولية وغيرها.. إن العبرة في «العمل السياسي» لا تقتصر على المطالبة بما هو حق، والتنديد بما هو ظلم وعدوان.. ولكن المهم في تقديري هو تفهم الواقع السياسي في المنطقة، في إطار التوازن الدولي، والاتفاق . إن أمكن الاتفاق ـ على الوسائل العملية والممكنة لمواجهته ولتحقيق الأهداف المنشودة.. وعلى كل طرف أن يدرك قيمة الأوراق الرابحة في يده ـ دون مبالغة ـ وأن يحسن استخدامها دون أن يغفل ما لدى الطرف الآخر من أوراق.. وأن يتدارك الأخطاء السابقة (وهي كثيرة على الجانبين) ، حتى لا يصبح النزاع العربي الإسرائيلي كما يقولون، سلسلة من الفرص الضائعة!

ولست في حاجة للقول بأن هذا الكتاب لا يمثل أي وجهة نظر رسمية، ولا يلزم إلا شخصي.. ولذلك فإنني أدعو القارىء إلى قراءته بتحرر، دون حساسية أو حواجز نفسية، وسيجد أنه عرض موضوعي لمهمة كلفت بها.. وأنه لو نبذ العرب خلافاتهم وتخلّوا عن الشعارات المستحيلة، واتخذوا المبادرات الواقعية، لأدركوا أن هذا هو المخرج الوحيد من المأزق الذي لا زلنا نتعثر فيه!

# شخصيات إسرائيلية التقيت بها

**المستر مناحم بيجن**

وأبدأ به لأنه كان يتولى رئاسة الوزارة في حكومة الليكود السابقة حين بدأت عملي في إسرائيل في فبراير 1980، ولأنه كان من أوائل الشخصيات الإسرائيلية التي التقيت بها في قمة أسوان في يناير من ذلك العام.

إن من واجبات السفير الجديد أن يقوم بزيارة تعارف ومجاملة لكبار المسؤولين في الدولة المعتمد لديها. وعلى رأسهم رئيس الوزراء. وكانت الحكومة الإسرائيلية مكونة من حزب حيروت والأحرار، مجتمعين في كتلة الليكود التي فازت في انتخابات 1977 على حزب العمل المعارض، بعد أن حكم الحزب الأخير دولة إسرائيل منذ إنشائها سنة 1948.

وفي إسرائيل، يختص رئيس الحكومة برئاسة السلطة التنفيذية. أما رئيس الدولة فهو شخصية لها مكانتها في إسرائيل ينتخبه الكنيست حتى يكون رمزاً للدولة، دون أن يمارس نشاطاً سياسياً أو حزبياً، حتى لو كان ينتمي لحزب سياسي معين[1].

وقد توجهت إلى القدس حيث يوجد مقر رئيس الوزراء وجميع الوزراء، بما في ذلك وزارة الخارجية الإسرائيلية.. واستقبلني المستر بيجن في مكتبه ورحّب بي وقال: «إنك تجلس الآن في نفس المكان الذي جلس فيه الرئيس السادات حين حضر لزيارة القدس»، وأشاد المستر

1 - كان الرئيس إسحاق نافون ينتمي لحزب العمل المعارض وكذلك ينتمي الرئيس الحالي حاييم هرتزوج إلى نفس الحزب الذي يرأسه المستر شيمون بيريز رئيس الوزراء الحالي

بيجن بالرئيس الراحل وحكمته وشجاعته في اتخاذ قرار السلام رغم كل العقبات والحواجز، وأعرب المستر بيجن عن أمله في أن تنمو العلاقات وتتطور بين البلدين من خلال مسيرة السلام.

وأذكر في هذه المقابلة أن المستر بيجن قال لي إنه يمكن أن يتقبل من مصر أي نقد يوجه إلى شخصه أو بصفته رئيساً لوزراء إسرائيل، لكن الشيء الذي لا يحتمله هو أن توجّه أية إهانة إلى الشعب اليهودي أو إلى الإسرائيليين كيهود!! وطلب مني إبلاغ ذلك للمسؤولين في مصر.

ولقد أدهشني قوله هذا، إذ لم يكن هناك في ذلك الوقت ما يدعو إلى توجيه انتقادات علنية للمستر بيجن حتى بوصفه رئيساً للحكومة، لأن محادثات الحكم الذاتي رغم تعثرها كانت مستمرة، ولأن اجتماعات لجان تطبيع العلاقات بين مصر وإسرائيل كانت تتوالى على نحو مكثف. وفضلاً عن ذلك فإن مصر وشعبها - حتى قبل إبرام السلام مع إسرائيل - لم يوجّها أية إهانة إلى اليهود كشعب. وكنا في مصر نحرص على التفرقة بين الصهيونية وبين اليهودية، لأن الخصومة كانت سياسية وعسكرية ضد إسرائيل الدولة وضد الصهيونية، وليست ضد الشعب اليهودي.. وانني أتذكر حين كانت القنصليات المصرية في الخارج تمنح تأشيرة دخول مصر لأي يهودي ما دام يحمل جواز سفر غير إسرائيلي، وما دام الجواز لا يحمل أية تأشيرة إسرائيلية.. وأكدت للمستر بيجن أن مصر لم ولن توجه أية إهانة إلى الشعب اليهودي.

وخلال اللقاء الأول، لم أتمكن من التعرف على نواحي شخصية المستر بيجن كان يبدو محدثاً هادئاً، لكنه يشعر بمسؤوليته نحو الشعب اليهودي بأسره.. وكنت قد قرأت للمستر بيجن وعنه بعض الكتب، وأذكر أنه روى في كتابه The Revolt «الثورة» التي قادها في فلسطين ضد

حكومة الانتداب البريطاني تحت راية «الإرجون تسفاي ليومي». ولكن لقاءاتي مع المستر بيجن التي تكررت بعد ذلك ساعدت على توضيح صورته واتجاهاته الفكرية المتطرفة أمامي.

لقد كان بيجن يمثل ويؤمن ويعيش الأفكار الدينية والسياسية التي يعتقد أنها حق للشعب اليهودي.. فهو لا ينسى أبداً ما مر به الشعب اليهودي من محن، ويروي لزواره الأجانب قصص إبادة النازي لملايين اليهود في معسكرات الاعتقال. وكيف أن زوجته «عليزا» كانت الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة من أسرتها.

والمستر بيجن على قسط وافر من الثقافة التاريخية والقانونية، فضلاً عن ذكائه وسرعة بديهته، وكان يتكلم دائماً في صوت متميز Characteristic قد يخدع المتحدث معه في البداية بأنه شخصية وديعة، ولكن ذلك يخفي وراءه تصميماً لا يتزحزح عن آرائه المتعصبة.. كما كان يبادر إلى الرد على ما لا يوافق عليه في لهجة قاطعة.

ويدرس بيجن المواضيع جيداً ويتخذ منها موقفاً محدداً لا يحيد عن جوهره. وقد يبدي بعض التنازلات اللفظية أو الشكلية التي تجعل موقفه أكثر قبولاً.. كما كان يلجأ أحياناً إلى المغالطة في سبيل إثبات صحة وجهة نظره، وقد لمست ذلك في عدة مواقف خلال محادثات الحكم الذاتي، وأثناء النزاع على علامات الحدود الدولية في منطقة طابا.

لقد تمسك المستر بيجن بكل مواقفه ومطالبه في عناد وإصرار، وساعده على ذلك أنه كان يتحدث من مركز واضع اليد بالقوة. ولم تُجد كل الحجج والأسانيد أو وسائل الإقناع في حمله على قبول «التحكيم» بعد فترة زمنية إذا لم تنجح محاولات التوفيق!

لكنه كان من ناحية أخرى إذا وعد فإنه ينفذ وعده، ولا يقبل أن

يتراجع أحد عن وعده مهما كانت المبررات أو الدوافع. كما لم يكن يقبل تفسيرات غير مقنعة وكان يرد عليها على طريقته، باللين حيناً.. وبالعناد أحياناً.

إن هذه الشخصية وتلك السياسة التي كانت محل نفور الرأي العام وكراهيته في مصر. وفي الدول العربية. بل وفي عدد من الدول الأوروبية، كانت محل إعجاب الكثيرين وتقديرهم له في إسرائيل، وهكذا فاز بيجن للمرة الثانية حين أدلى الناخبون بأصواتهم لصالح الليكود سنة 1981 وهزم تحالف المعراخ.

إن آراء مستر بيجن ومواقفه جعلتني أعتقد أنه يعتبر نفسه صاحب رسالة شبه سماوية يلتزم بأدائها، ويعيش الواقع والحاضر على ضوء التاريخ.. الضفة الغربية من نهر الأردن بالنسبة له هي «يهودا والسامرة».. الليرة الإسرائيلية هي «الشيكل» وهو النطق الأوروبي للعملة اليهودية القديمة التي ورد ذكرها في التوراة وهي «الشامل» لقد كان المستر بيجن يؤمن أن رسالته هي إعادة بناء صرح «مملكة إسرائيل».. وربما كان يعتبرني سفير الفراعنة لدى بلاط الملك داود!!

وفي عهد الليكود أقدم بيجن على اتخاذ قرارات سياسية خطيرة فيما يتعلق بالاستمرار في بناء المستوطنات، وضم شرق القدس ثم الجولان إلى إسرائيل، على نحو جعل من العسير على الحكومة التي تخلفه أن تنقض تلك القرارات دون أن تتعرض لاستنكار شعبي جارف.

ويؤمن المستر بيجن بالتعهدات المكتوبة، وتغلب عليه نزعة التقنين، وإذا كان الاتفاق عنده ملزماً، فهذا لا يمنعه من الإفادة من الثغرات الموجودة في الصياغة للتهرب منها.. إن تلك الأوصاف التي أذكرها ليست مجرد انطباعات بل إنها جميعاً مستقاة من أمثلة ومواقف حضرتها

بنفسي، وسيجيء ذكر بعضها في الأجزاء القادمة عند الحديث عن المستوطنات ورفض وقفها، وعن طابا ورفض التحكيم بشأنها.. وغير ذلك.

وكان المستر بيجن رقيقاً ولا يقبل ما ينقل إليه دون تمحيص، فقد نقلت وكالات الأنباء أن السيدة جيهان السادات قالت في معرض الدفاع عن سياسة السلام ضد معارضيها «إن الكلاب تنبح والقافلة تسير، كما قال شيكسبير» وفي مقابلة لي مع المستر بيجن ذكر أن شيكسبير لم يقل ذلك وانه رجع إلى النصوص وكلف زوجته بالتدقيق فيها ووجد أن المعنى قد يقترب من ذلك في رواية الملك لير، ولكن شيكسبير لم يكتب ذلك النص!

وأخيراً فإنني أعتقد أن المستر بيجن كان عنده شعور قوي «بالمسؤولية إزاء كل ما يتصل بشعب إسرائيل»، واستَدل على ذلك بأنه قدم استقالته - في تقديري - عندما أدرك أن قراره السابق وتأييده للجنرال شارون في مغامرة غزو لبنان، كان قراراً خاطئاً. لقد كان بيجن يعتقد أنه سوف يقضي على منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان ويقيم فيه حكومة توقّع السلام مع إسرائيل ويعيش شعبه بعد ذلك في سلام وازدهار. وعندما تطوّرت الأحداث في لبنان على ما نعرف جميعاً، وفقدت إسرائيل المئات وأصيب الآلاف من جنودها، فضلاً عن الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي تعانيها، عندئذ أدرك بيجن أنه دخل ببلاده إلى مستنقع.. وأنه أخطأ في حق بلاده وشعبه فاستقال رغم تمسك حزبه به وإلحاحه عليه في البقاء!

لقد أفضت في الحديث عن شخصية المستر بيجن لأهميته وخطورة المنصب الذي تولاه في الفترة التي عملت فيها في إسرائيل. إن عناده وإصراره على مواقفه ورفضه أية تنازلات أو تقارب بهدف التوفيق، وخاصة

في موضوع الحكم الذاتي، وسياسة بناء المستوطنات، كان سبباً في فشل اتفاقات كامب ديفيد في تحقيق أهدافها.

وخلال عملي في إسرائيل، بذلت كل جهد ممكن لإيضاح أن الرئيس السادات قطع شوطاً طويلاً في مبادرته التاريخية نحو السلام وواجه استنكار الدول العربية وقطيعتها لكن ظل متمسكاً بالسلام، وأن على المستر بيجن أن يقابله في منتصف الطريق.. لكن المستر بيجن رفض كل مسعى على أساس أن ناخبيه أيّدوه على هذا الأساس وأنه لا يستطيع أن يخذلهم.. لقد أطلق عليه أنصاره لقب «الملك بيجن» لعله يعيد بناء مملكة بني إسرائيل.

### الرئيس نافون في مصر

التقيت بالرئيس السابق إسحاق نافون للمرة الأولى عندما قدمت له أوراق اعتمادي في 26 فبراير 1980. ورغم أن هذا اللقاء كان رسمياً إلا أنه كشف لي منذ الدقائق الأولى عن شخصية واضحة ومحبّبة إلى النفس. لقد تكلم معي باللغة العربية كأحد أبنائها، والتقيت بعد ذلك بالرئيس نافون عدة مرات.

ولقد أتيحت لي فرصة التعرف على شخصه وفكره. عندما زار مصر في أواخر شهر سبتمبر سنة 1980 ترافقه زوجته السيدة زوفيرا. لقد استقبلهما الرئيس السادات وقرينته السيدة جيهان، ونزل الضيفان في قصر عابدين، الذي كان قد تم إصلاحه وإعادته إلى ما كان عليه من فخامة.

وأقيم في المساء حفل عشاء تكريماً للضيف، وألقى الرئيس السادات كلمة ترحيب أشاد فيها بالسلام بين البلدين. وكان الرئيس نافون قد أعد

لهذه المناسبة عدّتها. إذ كان يعلم أنه أول رئيس دولة إسرائيلي يزور مصر. وأن شعب مصر سيستمع إلى كل كلمة يقولها. لهذا حرص على إلقاء خطابه باللغة العربية الفصحى مشيراً إلى طفولته في فلسطين تحت الانتداب البريطاني، حيث كان يعيش والده مع العرب على علاقات طيبة من حسن الجوار. وأضاف نافون أن الصهيونية كانت تحارب الاستعمار البريطاني مثلما حاربه العرب.. ودعا المصريين إلى زيارة إسرائيل كما يزور الإسرائيليون مصر. وقال الرئيس الإسرائيلي السابق مدللاً على صحة رأيه: إذا كنتم تعتبروننا أصدقاء، فالصديق يزور صديقه. وإذا كنتم تعتبروننا أعداء فالمثل العربي يقول «اعرف عدوك»[2].

كان خطاب الرئيس نافون ذكياً ومؤثراً على المستمع لأنه أُلقي باللغة العربية ولأنه ركّز على التقارب بين الشعبين العربي واليهودي وأن هذا «الإخاء» السابق يمكن أن يعود.

وفي اليوم التالي زار الرئيس نافون المعبد الإسرائيلي في شارع عبد الخالق ثروت في القاهرة، وكانت القلة الباقية من يهود مصر الذين لا يزيد عددهم الآن عن مائتين، معظمهم من كبار السن، كانوا جميعاً في استقبال رئيس الدولة العبرية، فرحين بقيام السلام بين مصر واسرائيل، وبزيارة نافون لمصر.

كان الاستقبال مؤثراً في هذا المعبد الذي أهمل خلال سنوات طويلة، حتى حصلت «الجالية الإسرائيلية» في القاهرة على مساعدات من أثرياء

2 - ومع ذلك لم يزر المصريون إسرائيل إلا بأعداد قليلة. وكان ذلك لعدة أسباب أهمها الخصومة السياسية التي مثبت رغم السلام بسبب تصلب مواقف حكومة الليكود. واستمرار الحاجز النفسي لدى غالبية المصريين. ولكن إسرائيل لم تقنع بهذه الأسباب وذكرت أن نحو خمسمائة مصري تقدموا إلى سفارتها في القاهرة للحصول على تأشيرات دخول إلى إسرائيل لكن «ضغوطاً حكومية مصرية» منعتهم من السفر!!

اليهود في الخارج، وخاصة من المستر نسيم جاعون الذي ربطته بمصر والمنطقة علاقات قديمة، بهدف ترميم المعبد وإعادته إلى ما كان عليه.

وكنت عضواً في بعثة الشرف التي شكلت لمرافقة الرئيس نافون خلال تنقلاته في مصر، وهي البعثة التي رأسها المهندس د. محمد طه زكي، وزير الصناعة السابق.. وهكذا كنت مع الرئيس الإسرائيلي عندما زار أسوان والسد العالي وأبو سمبل، كما زار معابد الأقصر ومقابر وادي الملوك التي تقع على الشط الغربي للنيل.

واشتمل برنامج الزيارة على أهرام الجيزة وأبو الهول وشاهد الرئيس نافون مراكب الشمس التي خلفها الفراعنة، ليعبروا بها بعد البعث إلى الحياة الأخرى وفقاً لعقائدهم، وكانت القطع الخشبية المفككة التي تتألف منها هذه المراكب مدفونة تحت أرض الأهرامات، وأعاد المصريون تركيبها على نمط السفن التي وجدت نقوشها على جدران المعابد. وزار الرئيس نافون المتحف المصري في القاهرة وأبدى إعجابه الشديد بكل ما رأى من عظمة آثار الفراعنة وأمجادهم، كما زار قلعة محمد علي، وفي صحن المسجد تلا أحد المقرئين آيات من القرآن الكريم.. لقد أحسن المقرىء اختيار السورة فقرأ من سورةِ الأنفال الآيات 63 .62 .61. «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكّل على الله إنه هو السميع العليم».

ودوّى صوت المقرىء والصدى يعكسه فيرنّ في أرجاء هذا المسجد الفسيح دون مكبر للصوت. وأعجب الرئيس نافون بالمقرىء وقال له على الطريقة العربية: «أحسنتم يا أستاذ» وأعرب المقرىء عن أمله في أن يتلو القرآن في المسجد الأقصى وأبدى الرئيس الإسرائيلي الاستعداد لدعوته، لكن الظروف حالت دون ذلك.

وتضمن البرنامج أيضاً زيارة قصيرة للإسكندرية وبعض المصانع

القريبة منها. وفي طريق العودة إلى القاهرة توقفت الطائرتان العموديتان اللتان كانتا تقلان الرئيس نافون ومرافقه في قرية «ميت أبو الكوم». في محافظة المنوفية في دلتا النيل. وهي مسقط رأس الرئيس السادات وتجول الرئيسان في القرية، وكان الرئيس المصري الراحل يعتز بما أحدثه في القرية من تغيير يتمثل في المباني الحجرية البيضاء، ورافق الرئيس نافون إلى مكان الدار الصغيرة التي ولد فيها.

وفي منزل السادات الجديد والفسيح تباحث الرئيسان سوياً وعرض نافون ما تشكو منه إسرائيل من بطء في مسيرة تطبيع العلاقات المصرية الإسرائيلية. وكان أكثر ما يقلق إسرائيل ما تعتقده من أن حكومة القاهرة تضع العراقيل في سبيل العدد القليل من المصريين الذي يرغب في زيارة إسرائيل. وكان نافون يعتقد أن زيارة الشباب المصري لإسرائيل سوف تساعد على إزالة حاجز العداء القديم بين الشعبين، وقد استجاب الرئيس السادات لهذا المطلب ووافق على تبادل وفود الشباب بين البلدين.

كما وافق الرئيس السادات على تسيير خط أوتوبيس يومي من تل أبيب إلى القاهرة، ولكن كانت هناك طلبات أخرى، مثل السماح بالطيران المباشر من إسرائيل إلى دير سانت كاترين ومناطق أخرى سياحية في سيناء، لم يقبلها الرئيس السادات وترك تقديرها للجان تطبيع العلاقات.. وفي هذا الجو الودي، اقترح بعض الإسرائيليين إقامة مباراة في كرة القدم بين فريق مصري وآخر إسرائيلي، ولكن الرئيس نافون نفسه رفض الفكرة على أساس أنها سابقة لأوانها. إذ قد تخلق حساسية لا داعي لها عند فوز أي من الفريقين.

وخلال زيارة الرئيس نافون لمصر كانت هناك أعلام إسرائيلية مرفوعة إلى جانب الأعلام المصرية في الطرق التي يمر فيها موكب

الرئيس الإسرائيلي. وكانت قلة من المارة تصفق على جانبي الطريق عندما يمر الموكب، وكان الهتاف للرئيس السادات وحده.. أما في أسوان فقد كان الرئيس نافون ترافقه بعثة الشرف ومحافظ المدينة. وحيته جماهير قليلة نسبياً وكانت تهتف له وللسلام وللرئيس السادات.

ولقى الرئيس نافون بصفة عامة تقديراً لشخصيته المقبولة ولإتقانه اللغة العربية وكان الكثيرون يقارنونه بالمستر بيجن ويتمنون لو كان نافون رئيس الوزراء!!

وكان الرئيس الإسرائيلي يرجو أن يلقى كلمة أمام مجلس الشعب المصري، ولكن صُرِف النظر عن ذلك لأسباب سياسية ـ تتصل بمواقف حكومة الليكود المعروفة ـ وربما لأسباب أمنية كذلك. واقتصر الأمر على لقاء نافون مع ممثلي الحزب الوطني الديموقراطي في مقر الحزب الواقع على كورنيش النيل. كما التقى بعدد من المسؤولين في الحزب والحكومة في لقاءات ثنائية في قصر عابدين. وخلال هذه اللقاءات كان نافون، الذي ينتمي لحزب العمل الإسرائيلي المعارض، يحرص على أن يكون ممثلاً لدولة إسرائيل، وعلى دعم العلاقات المصرية الإسرائيلية في إطار السلام.

ويمكن القولإأن الزيارة أسهمت إلى حد ما في دفع عجلة التطبيع إلى الأمام، ولكن إسرائيل لم تحصل على كل ما كانت تطلبه، بسبب رغبة مصر في التوفيق بين التزاماتها الناشئة عن معاهدة السلام، وبين مصالحها وعلاقاتها مع الدول العربية الأخرى.

وبعد الزيارة، التقيت عدة مرات مع الرئيس نافون في القدس، وكانت لقاءات ودية يعبر خلالها عن اعتزازه بما تحقق من خطوات في مسيرة السلام، ويأمل أن تلحق دول عربية أخرى بمصر.

كان الرئيس نافون يفهم العقلية الشرقية، ولا غرو فهو من مواليد فلسطين وعاش فيها حياته قبل وبعد إقامة الدولة الإسرائيلية، ولقد تركت شخصيته في نفسي أثراً طيباً. وكان آخر لقاء لي معه يوم 22 سبتمبر سنة 1982، وهو اليوم السابق على مغادرتي النهائية لإسرائيل.

**الجنرال وايزمان**

التقيت مع الجنرال عايزر وايزمان، الذي كان يشغل منصب وزير الدفاع عند وصولي لإسرائيل، في اليوم الثاني لوصولي وذلك بمناسبة زيارة الفريق كمال حسن علي الذي كان يتولى وزارة الدفاع المصرية.. على ما تقدم.

كان الرئيس السادات يرى في الجنرال وايزمان صديقاً يمكن التفاهم معه، وقد ذكر لي هذا وأوصاني بالاتصال به عندما استقبلني في منزله بالقاهرة قبيل سفري إلى تل أبيب يوم 24 فبراير 1980.

والجنرال وايزمان شخصيته مرحة، ويتمتع بمحبة الكثيرين في إسرائيل لصراحته وبساطته. وقد استمعت كثيراً إلى أحاديثه وخاصة بعد أن استقال من حكومة الليكود بسبب خلافاته مع المستر بيجن. وخلال ذلك لمست أن وايزمان يهتم بالعلاقات بين مصر وإسرائيل، ويرى إمكان الاتفاق على أمور متعددة، لو كانت المقاليد في يده. كان يؤمن أن «الثقة» هي مفتاح التفاهم، والوصول إلى حلول لكل المشاكل. ويضيف قائلاً «إذا توافرت هذه الثقة بيني وبين المسؤولين في مصر، فما حاجتي إلى قوات دولية في سيناء.. إننا يمكن أن نتفق على كل شيء» ولقد بالغ بعض الإسرائيليين في فهم اتجاهاته حتى لقد أطلق عليه البعض لقب Omr Egypt، ولم يكن ذلك حقيقياً إذ أنه يلتزم بمراعاة الرأي العام في

إسرائيل، وتردد كثيراً في زيارة القاهرة رغم دعوته، حرصاً على شعبيته في بلاده.

واذا كان وايزمان يتمتع بتلك الشخصية الجذابة والحديث الطلي فإنه من ناحية أخرى - كما قيل - يتسرع في اتخاذ قراراته، وكما وصفه البعض هناك «إنه يطلق النار من الحزام He Shoots From the Hips» على طريقة رعاة البقر في الأفلام الأمريكية، ولا أدري ما إذا كانت استقالته إحدى الأمثلة على ذلك!

وعندما كانت الانتخابات الأمريكية على الأبواب، قرر وايزمان أن يشترك في الحملة الانتخابية للرئيس الأمريكي السابق جيمي كارتر، ولكن الرئيس الحالي رونالد ريجان هو الذي فاز، وعاد وايزمان إلى إسرائيل، حيث رأى البعض أن تطوعه لنصرة الحزب الديموقراطي الأمريكي لم يكن قراراً حكيماً، فالانتخابات الأمريكية من شؤون الشعب الأمريكي وحده.

وسلك المستر وايزمان بعد ذلك طريق رجال الأعمال وافتتح مكتباً صغيراً مع شريك له في تل أبيب. وقد فكر في إنشاء حزب سياسي خاص به، وخاض المعركة الانتخابية في إسرائيل في يوليو 1984 وفاز بثلاثة مقاعد، وهو الآن وزير بلا وزارة في حكومة الاتحاد الوطني التي يرأسها المستر بيريز، ويشترك معه الليكود في الحكم.

لقد كان الجنرال وايزمان أهلاً للثقة في التعامل معه، وكان محبوباً من كل من عمل تحت رئاسته أثناء توليه وزارة الدفاع، وارتبط بعلاقات طيبة مع الجانب المصري خلال محادثات كامب ديفيد، واكتسب ثقة الرئيس السادات، وصداقة الفريق كمال حسن علي.

وأذكر إنني كنت أزور الجنرال وايزمان في منزله في قيصرية Ceassria وهي البلدة الصغيرة التي يرجع تاريخها واسمها إلى عهد

الرومان الذين تركوا فيها بعض تماثيلهم وآثارهم، وسوراً يماثل «سور العيون» في القاهرة، كان مخصصاً لنقل المياه Aquaduct يمتد أمام منزل وايزمان.. وحول حوض السباحة، استعاد الجنرال ذكرياته عن حرب سنة 1967، حيث كان يقود سلاح الطيران الإسرائيلي، وقال إن الحرب بدأت قبل الثامنة صباحاً في الخامس من شهر يونيو، بالغارات الجوية المعروفة على المطارات المصرية، وبعد أقل من أربع ساعات، اتصل وايزمان هاتفياً من الميدان مع زوجته السيدة زؤومة، وقال لها «لقد كسبنا الحرب»!

وأضاف وايزمان إن السلام كان يمكن أن يعقد بين البلدين قبل ذلك، ولكن السادات وحده كانت لديه الحكمة والشجاعة لاتخاذ هذا القرار (1). ولقد كتب الجنرال مذكراته عن «معركة السلام The Btile for Peace وهو من المراجع الهامة في رأيي لأنه يروي قصة كامب ديفيد كما يراها وزير دفاع إسرائيل الأسبق.

الدكتور بورج

من الشخصيات الهامة التي يتحتم على كل من عاش في إسرائيل أو عمل فيها أن يتعرف عليها، شخصية الدكتور يوسف بورج، وزير الداخلية والشؤون الدينية الأسبق، والذي يتولى حالياً منصب وزير الشؤون الدينية، بالإضافة إلى رئاسته للحزب الوطني الديني.

وكان لقائي الأول مع الدكتور بورج في مكتبه كوزير للداخلية في مدينة القدس، وهو منصب تولاّه منذ عشرات السنين سواء في حكومة حزب العمل أو حكومة الليكود، ويضع دكتور بورج على رأسه غطاء اليهودي «الكيبا» شأن كل المتدينين في إسرائيل، ولا غرو فهو وزير الأديان.

وبدأ حديثه معي قائلاً إنه سيسرد أولاً نبذة عن حياته لإحاطتي بها

على أن أسرد بدوري نبذة عن حياتي حتى يتم التعارف. ويكون لدى كل منا فكرة واضحة عن خلفية محدثه. ولفتت نظري عقليته المنظمة. وثقافته التاريخية واللغوية الواسعة. بالإضافة إلى ثقافته الدينية المفترضة وتمسكه بتعاليم الديانة اليهودية. فهو لا يأكل سوى «الكوشير» وعندما كان يشترك في محادثات الحكم الذاتي في مصر، كانت شركة طيران «إل عال» الإسرائيلية تحضر له، ولمن يتبع نظامه من أعضاء الوفد الإسرائيلي، الطعام الكوشير من إسرائيل. وفي زيارة لاحقة، لاحظت أنه لم يحلق ذقنه منذ أيام، على خلاف عادته كرجل يحرص على مظهره، وأدرك أنه في حاجة ليفسر لي سبب ذلك، فقال إننا الآن في الأيام التسعة التي يلتزم فيها اليهودي المتدين بألا يحلق ذقنه حداداً على تدمير المعبد الثاني على أيدي الرومان قبل الميلاد.

وقبل انصرافي من مكتبه كان يعلم أن رجال الصحافة الإسرائيلية ينتظرون في الخارج حتى ينشروا شيئاً عن موضوع المقابلة. فكان يتفق معي على ما سنقوله لهم بعد المقابلة، ويرافقني عند الخروج من مكتبه زيادة في المجاملة.. ورغم أن د. بورج لم يكن يتكلم العربية، إلا إنه كانت لديه فكرة واضحة عنها وعن تركيب الجمل والأصل الثلاثالثلاثي للكلمات حتى يمكن الرجوع إليها في القاموس العربي. وهي نفس الطريقة المتبعة في اللغة العبرية.

والدكتور بورج يتمتع بنصيب من روح الفكاهة، وأذكر أنه عندما تجمَّدت محادثات الحكم الذاتي ولم تعد تحرز أي تقدم، إذ كانت تقتصر على لقاءات الطرفين مع ما يتخللها من مآدب تقدم خلالها المأكولات الشهية، عندئذ أطلق عليها الدكتور بورج محادثات «الجاسترونومي» نسبة لتلك المأكولات، بدلاً من محادثات «الأوتونومي» أي الحكم الذاتي.

ولكن الدكتور بورج كان مثلاً للصلابة والتمسك بالمواقف: وقد تجلى هذا خلال محاولاتي معه لحل مشكلة دير السلطان، وهو دير تملكه الكنيسة القبطية المصرية في القدس، استولى عليه سنة 1970 عدد من الرهبان الأحباش الذين كان المصريون يستضيفونهم فيه، في غياب نيافة الأنباباسليوس، ممثل الكنيسة القبطية المصرية ومطران القدس ومعاونية ورفعت الكنيسة القبطية الأمر إلى القضاء الإسرائيلي، فأصدرت المحكمة العليا قراراً لصالح الكنيسة[3]، ولكن سلطات الاحتلال الإسرائيلية رفضت تنفيذ الحكم بحجة مخالفته للوائح التي كان معمولاً بها أيام الانتداب البريطاني عى فلسطين.

وأحيلت القضية بعد ذلك إلى لجنة وزارية لم تبت في النزاع الذي بقي معلقاً حتى الآن، والذي يحتل الرهبان الأحباش بمقتضاه الدير المصري.

ولقد كان مفهوماً أن تعرض الحكومة الإسرائيلية إعادة الدير إلى الكنيسة المصرية قبل توقيع السلام بين البلدين، ولكن الوضع تغير، وتجدَّد الأمل في استعادته في عهد السلام.. وعبثاً حاولت إقناع الدكتور يوسف بورج بأهمية تنفيذ الحكم القضائي الأول وأنه إذا كانت حالة الحرب قد حالت في الماضي دون تنفيذه، فإن مصر تنتظر إعادة الدير إلى الكنيسة القبطية المصرية بوصفها المالكة الوحيدة له. وأضفت، حتى أقنع وزير الداخلية الإسرائيلي بفائدة تنفيذ الحكم، أن مصر تعلّق أهمية كبرى على هذه القضية التي إذا تمت تسويتها فإن عشرات الآلاف من أقباط مصر سوف يزورون القدس كل عام «ذلك أن البابا شنودة - رئيس

---

3 - قرار محكمة العدل العليا الإسرائيلية رقم 109 لسنة 1970 الذي يأمر بإعادة الدير إلى الكنيسة القبطية المصرية قبل 6 أبريل 1971. مع فرض غرامة على وزير الشرطة الإسرائيلي وعلى الأسقف الأثيوبي.

الكنيسة القبطية في مصر واثيوبيا حرم على أقباط مصر زيارة القدس إلا بعد استعادة دير السلطان».

أوضحت للدكتور يوسف بورج قانونية المطلب المصري، وأنه إذا تجاوبت إسرائيل مع هذا المطلب، فإن ذلك سيؤدي إلى دعم العلاقات المصرية الإسرائيلية. ولكن وزير الداخلية الإسرائيلي تمسك بموقفه قائلاً إن إسرائيل لا تتدخل في نزاع بين الطوائف الدينية الأخرى، وأنها تفكر في توسيط طوائف مسيحية أخرى للتوفيق بين طرفي النزاع ومساعدتهما في الوصول إلى حل للخلاف.

وكانت اتصالاتي بشأن «دير السلطان» مستمرة مع الأنباباسيليوس وتأكدتُ من ثبوت حق الكنيسة القبطية المصرية في ملكية الدير. وأن الحل يتوقف على قبول إسرائيل تنفيذ قرار محكمة العدل العليا. رغم ذلك، تذرعت إسرائيل بحجة جديدة حتى لا تعيد الدير إلى الكنيسة المصرية: قالت إن ثلاثين ألفاً من اليهود في الحبشة، المعروفين باسم الفلاشا، قد يعانون من اضطهاد الحكومة الأثيوبية إذا أجبر الرهبان الأحباش في دير السلطان على إعادة الأوضاع إلى ما كانت عليه!

ورغم ما نشر مؤخراً عن تهجير أعداد كبيرة من الفلاشا «سراً» إلى إسرائيل فإن دير السلطان لا زال في أيدي الرهبان الأحباش، وإنني أعتقد أن إسرائيل تريد الاحتفاظ بالوضع القائم كورقة في يدها، لا تعيدها لمصر إلا بمقابل!

المستر بيريز

خلال فترة عملي في إسرائيل كان المستر شيمون بيريز رئيساً لحزب «العمل» المعارض، والذي يشترك مع حزب «المابام» اليساري في تحالف المعراخ.. ويتولى الآن المستر بيريز رئاسة الحكومة الإسرائيلية منذ انتخابات يوليو 1984، في اتحاد وطني مع كتلة الليكود، التي يرأسها المستر إسحاق شامير. وفي سبتمبر 1986، سوف يتخلى بيريز عن رئاسة الوزارة لشامير، حسب الاتفاق المعقود بينهما باقتسام مدة رئاسة الوزارة بين الحزبين. ومن هنا تنشأ أهمية الحديث عن حزب المعارضة السابق وآرائه السياسية، ومدى ما يمكن أن يذهب إليه حزب العمل مقارناً بمواقف الليكود التي واجهت مصر أثناء أداء مهمتي في تل أبيب.

وقد زرت المستر بيريز . عدة مرات في مكتبه بمقر الحزب في شارع هايركون بتل أبيب، وشرح لي مواقف حزب العمل إزاء النزاع العربي الإسرائيلي، كما قام بزيارة مصر مراراً مع عدد من أقطاب حزب العمل، بدعوة من الحزب الوطني الديموقراطي الذي يتولى الحكم في مصر. ووجه المستر بيريز بدوره الدعوة إلى الدكتور مصطفى خليل (رئيس وزراء مصر الأسبق ونائب رئيس الحزب الوطني) وإلى الدكتور بطرس غالي وزير الدولة للشؤون الخارجية، اللذين استجابا لهذه الدعوة ومعهما بعض كبار مسؤولي الحزب الوطني، لإجراء محادثات بين الطرفين.

والمستر بيريز شخصية حزبية محنكة، ويمثل قيادة سياسية ذات خبرة طويلة، ولا عجب فإن حزب العمل كان يتولى الحكم في إسرائيل سنوات طويلة، منذ إنشاء الدولة حتى فاز الليكود بالحكم في انتخابات سنة 1977. ولحزب العمل اتجاهات اشتراكية معتدلة، وقد اهتمت مصر كثيراً بموقف هذا الحزب من المشكلة الفلسطينية، الذي يختلف عن موقف

الليكود. وخاصة بالنسبة لموضوعي الحكم الذاتي لسكان الأراضي العربية المحتلة في الضفة الغربية وفي قطاع غزة. وسياسة إقامة المستوطنات اليهودية في تلك الأراضي.

كان حزب العمل يؤكد على لسان المستر بيريز إن إسرائيل لا يجب أن تحتفظ «بكل أراضي الضفة والقطاع. وإنما سوف تحتفظ فقط بما هو ضروري «لأمنها». ومع تسليم الحزب بالنظريات التاريخية والحجج التي يسوقها الليكود لإثبات ملكية إسرائيل لأراضي «يهودا والسامرة». فإن حزب العمل الإسرائيلي يقبل - في سبيل إبرام السلام الشامل مع العرب وقبول تعايشهم سلمياً مع إسرائيل - إعادة «أجزاء» من الضفة والقطاع. إلى الشعب الفلسطيني الذي يعيش في هذه الأراضي.

غير أن حزب العمل لم يحدد الأجزاء التي سوف يقبل عودتها لسكانها العرب. والمناطق التي سوف تحتفظ بها إسرائيل. ويرى أن مكان ذلك وموعده سيتحدد على مائدة المفاوضات المباشرة مع الأردن ومع السكان أنفسهم. عندما يتولى حزب العمل الحكم. وعندما يبدأ التفاوض بين الطرفين.

وفي كل مراحل الاتصالات بين حزب العمل الإسرائيلي وبين ممثلي الحزب الوطني الديمقراطي في مصر ، كان المستر بيريز يرفض الارتباط بوعود مسبقة. قبل أن يفوز حزبه في الانتخابات. وكان يرى أن مصلحة إسرائيل الدولة فوق مصلحة الحزب.

كذلك كان بيريز يرى أن الحكم الذاتي لسكان الأراضي المحتلة يشمل السكان والأرض معاً. بمعنى أنه يعترف لهؤلاء السكان بالسيادة على تلك الأجزاء من الأراضي التي ستتخلى عنها إسرائيل تطبيقاً للحكم الذاتي. بعكس كتلة الليكود التي كانت تحكم إسرائيل في ذلك الوقت. وتتمسك بأن

يتم الاتفاق على حكم ذاتي إداري. أي أن يتولى السكان حكم أنفسهم حكماً إدارياً محدوداً ولكن لا سيادة لهم على «أي جزء» من أراضي الضفة وغزة. لأن «يهودا والسامرة» في نظر الليكود. جزء من أرض إسرائيل ولا يملك أحد التنازل عن أي جزء منها للعرب.

أما فيما يتعلق بسياسة الاستيطان الإسرائيلي في الضفة وغزة. فإن حزب العمل يرى ألا تقام المستوطنات في الأماكن ذات الكثافة السكانية العربية (مثل المدن العربية في نابلس والخليل) مع الإبقاء على المستوطنات التي أقيمت فعلاً[4]. ولا شك أن اعتبارات شعبية الحزب وامكان التأثير عليها إن قبل إزالة أي مستوطنة كان يدخل في اعتبار قادة حزب العمل.. وهذا الموقف يختلف عما تدعيه حكومة الليكود من حق إسرائيل المطلق في إقامة المستوطنات في أي مكان. بما في ذلك الأماكن العربية المكتظة بالسكان. ومن بين الحجج المفتعلة وغير المقنعة التي تسوقها حكومة الليكود أن تعايش يهود تلك المستوطنات إلى جوار السكان العرب سوف يثبت بطريقة عملية إمكان قيام السلام بين الشعبين، كما يعيش سبعمائة ألف عربي في أراضي إسرائيل.. ولا شك أن الاحتكاكات المستمرة بين السكان العرب والمستوطنين اليهود. وحوادث القتل والطعن رفضاً للمستوطنين وردود الفعل الانتقامية من جانب إسرائيل، تظهر بوضوح بطلان هذه الحجة..

ولقد كان واضحاً للمسؤولين في مصر أن التفاهم مع حزب العمل

---

4 - يلاحظ أن حزب العمل الإسرائيلي هو الذي بدأ بإقامة المستوطنات الإسرائيلية في جميع الأراضي العربية التي احتلتها إسرائيل بعد حرب 1967 لأسباب قيل إنها تتعلق بأمن إسرائيل. وجاء مشروع إيجال آلون موضحاً لما يمكن أن تتخلى عنه إسرائيل (في ظل حكومة حزب العمل السابقة) وما سوف تتمسك به

الإسرائيلي - رغم كثير من الخلافات - أقرب احتمالاً من الاتفاق مع كتلة الليكود المتطرفة، ودارت محادثات مثمرة، خلال الزيارات المتبادلة بين الحزب الوطني الديموقراطي المصري وبين حزب العمل الإسرائيلي، تعرف من خلالها كل طرف على ما يمكن أن يتوقعه من الطرف الآخر.

أما بالنسبة لمطالبة الفلسطينيين بحقهم في إقامة الدولة الفلسطينية على أي جزء من الأراضي التي تتخلى عنها إسرائيل، فإن المستر شيمون بيريز قال إن حزب العمل لا يمكنه الموافقة على ذلك، ولكنه يقبل أن يختار سكان هذه الأراضي الانضمام إلى الأردن.

وخلال تلك المحادثات تعرفت على جوانب من شخصية المستر بيريز، الذي يتمتع برؤية سياسية واضحة ولكن يخشى أن يسلّم بمطالب عربية تؤثر على شعبية الحزب في داخل إسرائيل. وخاصة بعد أن فازت كتلة الليكود بعد إعلانها عن مواقف متطرفة.. ويتقن بيريز فن الحوار السياسي ويروي بعض الفكاهات أحياناً لتخفيف جو المحادثات، ولكنه يدرك مسؤولياته كرئيس للحزب المعارض ولا يسرف في إعطاء الوعود.

ولقد عشت المعركة الانتخابية للكنيست العاشر في شهر يونيو 1981 داخل إسرائيل، وكانت المؤشرات المستقاة من استطلاعات الرأي العام قبل الانتخابات بشهور، تدل على تصاعد شعبية حزب العمل. وساد الاعتقاد أنه سوف يخلف حكومة الليكود، ولكن هذا التيار لم يستمر وتناقصت شعبية حزب العمل مع اقتراب موعد الانتخابات وكانت هناك أسباب عديدة وراء هذا الاتجاه لصالح الليكود، منها اتهام حزب العمل بعدم وضوح سياسته وتأرجحه بين تأييد سياسة إقامة المستوطنات في الأراضي العربية المحتلة وبين وجوب وقفها، ومنها المخاوف التي ساورت المتطرفين من احتمال إعادة أجزاء من الأراضي العربية المحتلة إلى سكانها الفلسطينيين. وقيل

إن جاذبية Charisma المستر بيجن أمام الجماهير وخاصة الشباب المتطرف والمتدين وسائر الصقور كان لها دورها في كسب أصوات الناخبين، وتردد أيضاً أن الخلاف المعروف بين المستر بيريز والجنرال إسحاق رابين أضعف موقف حزب العمل وشعبيته أمام الجماهير وأثر على الثقة في قيادته، وقيل أخيراً إن السياسة المالية التي اتبعها وزير المالية الأسبق يورام أريدور، بتخفيض الرسوم الجمركية على عدد من السلع الكمالية كان «رشوة انتخابية» ساعدت على نجاح الليكود.

قد تكون هذه الأسباب كلها أو بعضها صحيحة، وقد يكون هناك غيرها من عوامل، وانني شخصياً أعتقد أن من أهم أسباب انتصار الليكود سنة 1981 (وتساويه مع حزب العمل في انتخابات 1984 على نحو اضطر الطرفين لتشكيل حكومة اتحاد وطني) هو ما لحق بالمجتمع الإسرائيلي من تغيير ديموجرافي (في نسب السكان) إذ زادت نسبة اليهود السفاراد والشرقيين عما كانت عليه بالنسبة لليهود الإشكناز. والمعروف أن المهاجرين الأوائل كانوا من الإشكناز الاشتراكيين والذين كونوا حزب العمل واستأثروا بأهم المراكز، وعهدوا إلى اليهود السفاراد بالمراكز الأقل أهمية.. فلما زادت أعدا السفاراد، أثرت أصواتهم لصالح الليكود على نتائج الانتخابات.. ولم يعد حزب العمل قادراً على تحقيق أغلبيته السابقة.

عرفت المستر بيريز كزعيم حزبي معارض، يلتزم بالأصول والتقاليد البرلمانية الديموقراطية المعروفة، حتى وهو يعرض مواقف حزبه من الحكومة، وكان يحيط رئيس الوزراء الأسبق بيجن بزياراته الخارجية قبل سفره، وبنتائج اتصالاته بعد عودته إلى إسرائيل، كما كان حريصاً على عدم التنديد بسياسة إسرائيل الخارجية إلا في داخل البلاد.

وازاء وضع المستر بيريز الحالي كرئيس للوزراء، فقد كان من الممكن أن تتيح اتجاهاته المعتدلة نسبياً فرصة أخرى لإمكان الوصول إلى تسوية سلمية للنزاع العربي الإسرائيلي. ولكن أستعيد كلمات الرئيس مبارك التي حذر العرب فيها من «رفض العالم العربي لكل شيء، والاستمرار في الرفض حتى تضيع فلسطين كلها ما لم نعرف يوماً كيف نقول نعم»[5]. وأخشى أن تتكرر سلسلة الفرص الضائعة تحت ضغط التمسك بالشعارات الوطنية، التي تفتقد الوسائل الواقعية والعملية لتنفيذها.

**الجنرال رابين**

لم ألتق كثيراً بالجنرال إسحاق رابين أثناء عملي في إسرائيل، وقد لاحظت أنه كرئيس سابق للوزراء في حكومة حزب العمل، كان يتمتع بشعبية ملحوظة بين الجماهير، ولكن في داخل حزب العمل، وتمكن المستر شيمون بيريز من التفوّق عليه عندما اتضح أن غالبية أعضاء الحزب تؤيد بيريز. وقد دعيت من جانب حزب العمل. (وكان ذلك في بداية مدة عملي في إسرائيل) - لحضور الجلسة التي أسفرت عن فوز المستر بيريز.

ولقد زرت رابين في مقر حزب العمل، وكان يردد مواقف الحزب، ولكنني لاحظت أنه لم يحضر كل لقاءات حزبه مع ممثلي الحزب الوطني الديموقراطي عند حضورهم لإسرائيل. ولم أر الجنرال رابين يبتسم أبداً، وربما لأنه لم يكن هناك شيء على صعيد العلاقات المصرية الإسرائيلية يدعو إلى الابتسام، ورغم أن اتصالي به كان محدوداً للغاية، إلا أنني أحسست أنه من «صقور» حزب العمل إزاء العلاقات مع العالم العربي.

---

5 - صحيفة الأهرام القاهرية بتاريخ 23 نوفمبر 1985 من حديث للرئيس مبارك مع رئيس وكالة الأنباء الكويتية (صفحة 1 عمود 1)

البروفوسير أبا إيبان

شخصية سياسية وأكاديمية معروفة دولياً، شغل منصب وزير خارجية إسرائيل لسنوات طويلة، أثناء تولي حزب العمل حكم إسرائيل.. وهو من كبار شخصيات الحزب.. وقد زرته في منزله في ضاحية هرتزليا الهادئة، وإذا كانت الإنجليزية هي لغته الأولى، فهو يتقن كذلك اللغة العربية الفصحى وإن كان ينطقها بلكنة أجنبية واضحة.

إن أبا إيبان، أو «أبو حجر» إذا ترجمنا اسمه حرفياً إلى العربية، ليس رجل سياسة فقط، بل هو إستاذ في التاريخ وعلى مستوى عال من الثقافة، وقد تعرف على زوجته سوزي حينما كان يعمل في القوات البريطانية في الإسماعيلية خلال الحرب العالمية الثانية، وهي شقيقة زوجة المستر حاييم هرتزوج (الأيرلندي الأصل) والرئيس الحالي لدولة إسرائيل.

ويحيا البروفوسير والدكتور أبا إيبان ببساطة متناهية في داره الفسيحة والأنيقة بضاحية هرتزليا، يكتب بنفسه على الآلة الكاتبة ويعمل في صمت وهدوء. ولكن العالم كله يرى إنتاجه الوفير في مؤلفاته التاريخية الثمينة ومحاضراته والأفلام التي يسجلها عن تاريخ الشعب اليهودي.

وفي أول زيارة لمنزله، تحدث معي الدكتور إيبان عن الحكم الذاتي الذي جاء في اتفاقات كامب ديفيد. وسألته عن رأيه فقال إنه يعتقد أن الحكم الذاتي لسكان الضفة وغزة يشمل كل شيء عدا الدفاع والسياسة الخارجية، إن هذا هو المفهوم المتفق عليه في القانون الدولي. وكان هذا هو الرأي السليم الذي ينادي به حزب العمل، في تناقض واضح مع الحكم الإداري المحدود الذي تمسك به الليكود طوال مدة المحادثات مع مصر حتى توقفت نهائياً سنة 1982!

وقد أعجبت بشخصية أبا إيبان كباحث ودارس ومؤلف، قرأت له

كتابه المعروف My People عن تاريخ شعبه اليهودي قبل سفري إلى إسرائيل بسنوات.. وقد عبَّر وزير خارجية إسرائيل الأسبق عن رأيه في موقف حكومة الليكود من محادثات الحكم الذاتي في مقال ممتع نشرته جريدة الجيروزاليم بوست المستقلة في اتجاهاتها، والتي تصدر في القدس باللغة الإنجليزية، واقتبس من المقال الذي نشرته الصحيفة يوم 4 يونيو 1982، ما ترجمته:

•إن الفرق بين كامب ديفيد وسياسة الليكود شاسع، فبينما تنص الاتفاقية على أن الوضع النهائي لا يمكن أن تقرره إسرائيل، وأنه لا بد من التفاوض عليه بين إسرائيل والوفود العربية الثلاثة.. فالمؤكد أن الوفد الفلسطيني هو الذي سيشترك في تحديد الوضع النهائي للأقاليم المحتلة، وله حق الاعتراض على أي اتفاق تصل إليه الدول الثلاث (مصر والأردن واسرائيل).

إن معاهدة كامب ديفيد تشير إلى الاتفاق على مواقع الحدود.. أي أن هناك حدوداً وأن الضفة وغزة جزءان منفصلان عن إسرائيل وعن الأردن وعن مصر، إلا إذا اختار الفلسطينيون الاندماج في إحدى هذه الدول.

•إن حكومة إسرائيل تريد التنصّل من التزاماتها، وحصلت من الكنيست على موافقته على إمكان إعلان سيادتها على الضفة وغزة.. إن هناك تناقضاً بين الالتزام الدولي لحكومة الليكود، وبين البيان السياسي الذي استصدرته من الكنيست والذي يلغي حق أي دولة عدا إسرائيل في تقرير مصير الضفة وغزة.

•إن حكومة الليكود تدعو مصر والأردن والفلسطينيين للانضمام إلى نظام حكم ذاتي يفسّره بيجن وشامير وشارون بأنه تمهيد لضم الأرض إلى إسرائيل.

ويختتم مقاله بسخرية لاذعة من موقف الليكود، فيشبهه بأنه مثل من يوجّه دعوة إلى حفل عشاء، مع تنبيه المدعو إلى «أن الطريق إلى الباب الأمامي يوجد به حقل ألغام، وأن الطعام مكوّن من الصبّار الذي لم تنزع أشواكه.. إن الضيف لا يشترط فيه أن يكون شديد الحرص على سلامته كيْ يجد أسباباً، في إطار المجاملة، للاعتذار عن قبول مثل هذه الدعوة»!

المستر إسحاق شامير

كان رئيساً للبرلمان الإسرائيلي - الكنيست - في سنة 1980 عندما بدأت مهمتي في إسرائيل، ولذلك كانت زيارتي الأولى له في مكتبه في الكنيست. وحرص المستر شامير على أن يذكر لي في بداية الحديث أنه استقبل الرئيس السادات عندما زار القدس وألقى خطابه التاريخي أمام الكنيست.

وبعد أن عين المستر شامير وزيراً للخارجية، اقتضى عملي أن أتصل به كثيراً، وأن التقى به في مكتبه في وزارة الخارجية الإسرائيلية في القدس، عدا اللقاءات العديدة التي اشتركت فيها خلال محادثات الحكم الذاتي أو عند اجتماعه بأحد أو ببعض المسؤولين المصريين.

ولم أتمكن خلال تلك الزيارات والمقابلات من أن أتعرف على شخصية المستر شامير أو أن أحدّد ملامحها، فقد كان دائماً شديد التحفظ في كلامه، يدقق في اختيار كل كلمة قبل أن ينطق بها، ولا يتبسط في الحديث.. وكان انطباعي عنه يختلف تماماً عن انطباعي عن المستر ديفيد كيميني الذي شغل منصب سكرتير عام الوزارة وهو الشخص الثاني في الوزارة، ذلك أن المستر كيميني كان ينطلق في حديثه ويدلي بوجهة نظره في إطار جذّاب حتى إذا كانت غير مقبولة سياسياً.

كان المستر شامير يتحرر صيفاً في ملبسه فيرتدي قميصاً بكم قصير وبدون ربطة العنق، ويعتذر عن عدم ارتداء الجاكته، وكان هذا كما أسلفت تقليداً متبعاً في وزارة الخارجية الإسرائيلية. وربما كانت طبيعة المستر شامير الكتومة تتمشى مع نشاطه الماضي حين كان يرأس جماعة «شترن» التي عرفت بأعمال الإرهاب والعنف والتصفية الجسدية لخصومها قبل إنشاء دولة إسرائيل.

لقد ذهب المستر شامير في تشدده إلى حد رفض اتفاقات كامب ديفيد في البداية، ولكنه ألزم باحترامها بعد أن أقرها الكنيست، وتطابقت وجهات نظره مع آراء المستر بيجن إزاء الضفة الغربية وقطاع غزه والحكم الإداري المحدود لسكانهما وحق إسرائيل في إقامة المستوطنات اليهودية في كل مكان في الأراضي العربية المحتلة.

وفي إحدى مقابلاتي مع المستر شامير، عقب صدور قانون ضم شرق القدس إلى إسرائيل، ورفض مصر لشرعية هذا القانون، سألت المستر شامير عن موقف إسرائيل ونواياها المقبلة نحو الضفة وغزة، فأكد لي بلهجة قاطعة أن إسرائيل لن تضم الضفة الغربية أو قطاع غزة إليها تحت أي ظرف. وكان المعني الظاهري لكلامه مطمئناً، لكنه كان يعني في الواقع أن حكومة الليكود تعتبر الأراضي العربية المحتلة في الضفة والقطاع جزءاً من إسرائيلو جزءاً من إقليمها، وبالتالي فهي ليست في حاجة لإصدار قانون بضمّها.. وهل تحتاج الدولة إلى ضم جزء من أملاكها؟ إنما هي لا تعلن سيادتها عليه حتى تتحاشى إثارة الرأي العام العربي والدولي!

كذلك استقبل الرئيس مبارك المستر شامير في قصر العروبة عندما حضر إلى القاهرة في محاولة لإقناع الرئيس المصري بزيارة

القدس خلال الزيارة التي كان الرئيس مبارك يعتزم القيام بها لإسرائيل. وقد تمسكت إسرائيل بوجوب زيارة القدس وإلا فإن الزيارة لن تتم، ولم تقبل مصر هذا التهديد وألغيت الزيارة.

وكان آخر لقاء لي مع المستر شامير في اليوم السابق على مغادرتي النهائية لإسرائيل حين أبلغته استياء مصر الشديد واحتجاجها على ما جرى من مذابح في معسكرات اللاجئين الفلسطينية في صبرا وشاتيلا، واعتبار إسرائيل مسؤولة عن تلك المجازر التي وقعت في منطقة تحتلها وتسيطر عليها القوات الإسرائيلية عقب غزو لبنان. ولقد نفى شامير مسؤولية إسرائيل عنها وأضاف إنهم لم يعلموا بأمر هذه المذابح إلا بعد نهايتها.. وقد أبلغته إن مصر قررت استدعائي للتشاور وانني سوف أغادر إسرائيل في اليوم التالي عائداً إلى القاهرة وأبدى شامير أسفه لهذا القرار وأمله في أن أعود سريعاً إلى إسرائيل.

### الجنرال شارون

ليس من السهل الحديث عن شخصية الجنرال شارون، لأنه من الشخصيات الإسرائيلية التي قامت بدور خطير خلال العدوان على لبنان، وقد يقوم بدور آخر أكثر أهمية إذا تمكن من السيطرة على حزب حيروت وانتزاع قيادته من المستر شامير.

ولقد قابلت الجنرال أرييل شارون في عدة مواقع، إذ عرفته عندما كان وزيراً للزراعة، وكان مسؤولاً عن المستوطنات التي تقيمها إسرائيل في الأراضي العربية المحتلة.. وكان شارون أو «أريك» كما يناديه المقربون إليه، قد وجّه دعوة إلى وزير الزراعة المصري الأسبق، الدكتور محمد داود، لزيارة إسرائيل. كما زار شارون بدوره القاهرة وكان من أهدافه

إرساء أسس التعاون بين البلدين في مجال من أهم المجالات بالنسبة لمصر وهو الزراعة. لقد كان شارون يعتقد أن إسرائيل وقد اكتسبت خبرة زراعية كبيرة، وخاصة في ميدان استصلاح الأراضي الصحراوية، يمكن أن تقدّم هذه الخبرة إلى مصر في ميدان حيوي[6].

كما عرفت الجنرال شارون كوزير للدفاع الإسرائيلي حين رأس الجانب الإسرائيلي في الاجتماعات التي تعقد على المستوى الزراعي للاتفاق مع الجانب المصري برئاسة الفريق كمال حسن علي، على الإجراءات التي تتخذ تنفيذاً للمرحلة النهائية لانسحاب القوات الإسرائيلية من سيناء، وهي المرحلة التي اقترنت بالخلاف على مواقع علاقات الحدود الدولية وخاصة عند منطقة طابا.

وعرفت الجنرال شارون كمضيف ممتاز عندما استقبل رئيس الأركان المصري الأسبق الفريق عبد رب النبي حافظ، الذي زار إسرائيل وأجرى مع الجانب الإسرائيلي محادثات للاتفاق على بعض الأوضاع العسكرية وبحث بعض المطالب الإسرائيلية في سيناء، مثل السماح بالبحث عن جثث الجنود الإسرائيليين التي لا زالت في مناطق انسحبت منها القوات الإسرائيلية بعد حرب اكتوبر سنة 1973 وبعد اتفاقات السلام، ومثل الاتفاق على مستقبل المطارات العسكرية التي كان على إسرائيل أن تنسحب منها في المرحلة الأخيرة من الجلاء عن سيناء.

والجنرال شارون شخصية تختلف الآراء بشأنها، فهو يحظى بإعجاب جنوده ويتمتع بتأييد المتطرفين الإسرائيليين، ولكن يعتبر من وجهة النظر

6 - إن بعض التصرفات الإسرائيلية في الأراضي العربية المحتلة (من إجراءات قمعية إلى الاستمرار في بناء المستوطنات اليهودية في الضفة وغزة) كانت تعرقل هذا التعاون. ولكن تدمير إسرائيل للمفاعل النووي العراقي في يونيو 1981 وضع نهاية مفاجئة لهذا الاتجاه

الأجنبية، بل ومن الكثيرين داخل إسرائيل. شخصية عدوانية طموحة. مثل الجرَّاف Bull dozer لا يتردد في اكتساح أي صعوبة يمكن أن تقف في سبيله. ولا يلتزم بالطرق التقليدية وانما يلجأ لكل وسيلة توصله إلى هدفه بما في ذلك الحيلة أو العنف..

إن شخصيته القوية ونشاطه الديناميكي المتجدد والمليء بالحيوية، تجعله يعرف ما يريد ولا يتردد في سبيل الحصول عليه من أي طريق، ويثق في نفسه وفي قدراته، ولا يحاول إخفاء طموحه. ويسير في طريقه للوصول إلى هدفه غير حافل باعتراض الآخرين.

ولقد سمعت عندما كنت في إسرائيل من أكثر من مصدر. أنه عثر في أوراق بن جوريون على رسالة يتساءل فيها رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق «هل ما زال أريك يكذب؟».

ويتمتع شارون بمقدرة على الإقناع، ومن الواضح أنه نجح في إقناع بيجن بكثير من خططه وأفكاره وكان محل ثقة لكفاءته العسكرية، وقيل إن ذلك أثار ضيقاً لدى بعض الوزراء الآخرين وخاصة المستر شامير وزير الخارجية، إذ كان شارون يقوم بأعمال تدخل أحياناً في حدود عمل وزارة الخارجية، مثل بعض المهام التي كان يتولاها لدى بعض الدول الأفريقية.. ولكن بيجن كان يعتقد أن استياء الآخرين يرجع «لغيرتهم» من شارون وقد يكون في ذلك جزء من الحقيقة ولكن الثابت أن مكانة شارون استمرت لدى رئيس الوزراء الأسبق حتى انتهى غزو لبنان إلى الواقع الأليم الذي نعرفه جميعاً، وفشلت إسرائيل في تحقيق أهدافها فضلاً عما تحمله من خسائر بشرية ومالية جسيمة[7].

---

7 - رغم إدانة شارون بمسؤوليته «غير المباشرة» عن مذابح الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا. كما جاء في تقرير لجنة التحقيق القضائية. فإن المستر بيجن أصرّ على إبقائه وزيراً بلا وزارة في حكومته

ويمتلك وزير الدفاع الإسرائيلي الأسبق، الذي يتولى الآن وزارة التجارة الخارجية، مزارع شاسعة المساحة إذا قورنت بالأراضي محدودة المساحة داخل إسرائيل. ويهوى شارون تربية الخيول. وقد دعا بعض الوفود الرسمية المصرية خلال زيارتها لإسرائيل إلى هذه المزرعة.

وعهد المستر بيجن إلى الجنرال شارون بإخلاء مستوطنة ياميت من المستوطنين اليهود في شمال غرب سيناء، ورغم محاولات المستوطنين من أنصار «جوش إيمونيم» وغيرهم للبقاء في ياميت، فقد تمكن شارون من إجلائهم عنها بالقوة . دون إطلاق النار . وقد ركزت وسائل الإعلام الإسرائيلية في تلك المرحلة على معاناة شعب إسرائيل النفسية Trauma, على نحو يجعل تكرار إخلاء أي مستوطنة أخرى أمراً عسيراً على أية حكومة إسرائيلية في المستقبل.

### موقف الجنرال ديان من الحكم الذاتي

في إسرائيل، عرفت الجنرال موشى ديان، القائد العسكري الذي حقق لبلاده أكبر نصر عسكري في تاريخها سنة 1967، في الحرب التي عرفت بحرب الأيام الستة، وأصبح بعدها وربما لأجيال طويلة، بطلاً شعبياً في نظر شعب إسرائيل، إذ قام كما وصفوه بدور «دافيد» الصغير الذي هزم العملاق «جوليات»!

وكان ديان وزيراً للدفاع في حكومة حزب العمل، ومع ذلك فقد قبل عرض رئيس الوزراء الأسبق، المستر بيجن، أن يتولى وزارة الخارجية في حكومة الليكود، وشارك في محادثات السلام منذ بدايتها حتى وقعت

اتفاقات كامب ديفيد ومعاهدة السلام، ولكنه قدَّم استقالته قبل بدء مهمتي في إسرائيل.. ولذلك فإن كل زياراتي له أو لقاءاتي معه لم يكن لها طابع رسمي.

ولقد حاول الجنرال العودة للحياة السياسية في انتخابات يونيو 1981، وشكَّل حزباً خاصاً به سمَّاه حزب «تِلِمْ» لكنه لم يحصل إلا على مقعدين في الكنيست وكان ذلك صدمة سياسية أصابت نفسيته وصحته بأضرار جسيمة.. وزرت الجنرال ديان عدة مرات في منزله في تاهالا المعروف بما كان يحتوي عليه من آثار قديمة، إذ أن ديان كان يهوي التنقيب عن الآثار ويقتني مجموعة كبيرة منها، بما في ذلك تابوت مومياء فرعونية، وقد اشترى بعض هذه الآثار، كما كشف واقتنى الكثير منها[8].

وفي أكثر من حديث مع ديان شرح لي وجهة نظره في التغلب على عقبة الخلافات حول تنفيذ الحكم الذاتي، فكان يرى أن تقوم إسرائيل بمنح سكان الأراضي المحتلة في الضفة وغزة، الحكم الذاتي دون أن تطلب التفاوض معهم أو الحصول منهم على أي توقيع.. إنهم يخشون إن وقعوا على اتفاق مع إسرائيل أن تلومهم منظمة التحرير الفلسطينية، أو أن يعتبر ذلك التوقيع قبولاً للأمر الواقع وتنازلاً عن مطالبهم الأخرى، مما يثير الخلافات فيما بينهم. كذلك يعتقد ديان أن على إسرائيل تسليم السلطة فعلاً من الجانب الإسرائيلي لهؤلاء السكان، في المناطق التي تقرر لإسرائيل الانسحاب منها، وفي هذه الحالة فإن السكان سوف يقبلون تحمل هذه المسؤولية لأنهم لا يلتزمون مقابلها بشيء[9].

---

8 - بعد وفاة ديان في أكتوبر 1981، اشترى أحد متاحف تل أبيب مجموعة التحف والآثار التي كان يمتلكها

9 - يوجد اتجاه جديد لدى حكومة المستر بيرين إلى محاولة اتباع هذا الرأي تدريجياً

ويدعو ديان إسرائيل ألا تبقى إلا في المستوطنات التي أقامتها في الضفة وغزة، «ربما تراه ضرورياً لأمنها»، وتسلّم ما عدا ذلك من أراض ومن مسؤولية إدارتها إلى السكان العرب، دون الخوض في تفاصيل من يملك الأرض وهل هي إسرائيل أم السكان الذين يتولون إدارتها..

ويعتقد ديان أن هذا الحل العملي ممكن وسيقبله العرب، وإن رفضوه تستمر إسرائيل في احتلال كافة الأراضي المحتلة ويكون المسؤول عن ذلك هم العرب! إن الجنرال الذي ولد في إسرائيل كان يعرف العربية ويستطيع التفاهم مع البدو من عرب فلسطين، وكان يعتقد أن خطته عملية أكثر من أي مشروع آخر، إذ إنها لا تتطلب محادثات أو اتفاقات أو أية توقيعات، وكان يرى فيها الوسيلة الوحيدة لتحريك الموقف الجامد الذي وصلت إليه محادثات الحكم الذاتي.

ولم تخرج هذه الفكرة إلى حيز التنفيذ لأن ديّان لم يكن يمثّل إلا نفسه والحزب الصغير الذي أنشأه. كما أن القاهرة لم تقبل بهذه النظرية ليس فقط لأنها تصدر عن شخصية غير رسمية، ولكن لأنها لا تحسم موضوع السيادة العربية على الأرض، وتترك لإسرائيل حرية الاحتفاظ بما تريده من أراض دون تحديد، كما أن ديان بدوره يرفض قيام الدولة الفلسطينية في الأرض التي يتولى سكانها العرب إدارتها. وهكذا تعتبر الفكرة مجرد مخرج عملي من المأزق القائم بدون ترتيب أية التزامات تعاقدية.

وقد التقيت على الغداء مرات عديدة مع الجنرال ديان وزوجته السيدة راحيل، بدعوة من صديقي المستر موريس بتيد، وكان ديان يتحدث دائماً بهدوء ولكن بحسم واقتناع.. وقد وجه الرئيس الراحل أنور السادات دعوة إلى موشي ديان ليزور مصر وقد تمت تلك الزيارة في مارس 1981، واستقبله الرئيس السادات وشخصيات مصرية أخرى. لكن هذه الزيارة

لم تسفر عن أي دعم لمركز ديان في الانتخابات التي جرت في 30 يونيو من ذلك العام، على خلاف ما كان يتوقعه بعض المسؤولين في مصر، والذين حاولوا إلغاء الزيارة خشية التأثير على مركز حزب العمل..

وكانت آخر مرة رأيت فيها ديان يوم 7 أكتوبر سنة 1981، حين حضر إلى السفارة المصرية في تل أبيب يتوكأ على ذراع ابنته يائيل، ليقدم العزاء بعد اغتيال الرئيس السادات، وقد توفي ديان بعد ذلك بعشرة أيام، وحضر من مصر وفد برئاسة الدكتور بطرس غالي للاشتراك في تشييع جثمانه إلى مثواه الأخير.

### السيدة جينولا كوهين والتطرف في إسرائيل

من صقور الكنيست المعروفين وعضو حزب هتحيا (النهضة) اليميني المتطرف، الذي يرأسه البروفيسور يوئيل نعمان. وقد اشتهرت وخاصة في مصر بعد أن لفتت الأنظار إليها عند عرض اتفاقات كامب ديفيد على الكنيست للحصول على موافقته، إذ وقفت السيدة كوهين معارضة للاتفاقات - التي تعيد سيناء كلها وخالية من المستوطنات الإسرائيلية إلى مصر - ووصفتها بأنها قصاصة ورق، ومزقتها أمام الكنيست، تأكيداً لرفضها لها.

وإذا كانت مصر تضم الكثيرين الذين عارضوا هذه الاتفاقات بوصفها استسلاماً لإسرائيل وتفريطاً في حقوق مصر وفي حق الشعب الفلسطيني، فإن إسرائيل كذلك تضم الذين يرغبون في الاحتفاظ بسيناء وخاصة بالمستوطنات التي أقيمت فيها، ويرون في التخلي عنها لمصر ثمناً غالياً للسلام..

والمتطرفون في إسرائيل من أمثال «جوش أيمونيم أي» كتلة الإيمان،

وحزب هتحيا، فضلاً عن الحاخام مائير كهانة المعروف بنداءاته «لطرد العرب» من إسرائيل ومن الأراضي العربية المحتلة. هؤلاء المتطرفون لا يمثلون الأغلبية، لكنهم يقومون بدور سياسي في ترجيح كفة إحدى الكتلتين الكبيرتين (الليكود والمعراخ) على الأخرى.

ومن المظاهر التي تدعو إلى القلق، تزايد شعبية هذه الاتجاهات المتطرفة، ذلك أن حزب هتحيا الذي حصل على ثلاثة مقاعد في انتخابات 1981، تمكن من الحصول على خمسة مقاعد في الكنيست الحالي الذي تم انتخابه سنة 1984 (أي أن أكثر من 83 ألف ناخب أدلوا بأصواتهم لصالحه وهو ما يساوي 4% من مجموع الناخبين) ونشرت بعض استطلاعات الرأي العام في إسرائيل أن مائير كهانة الذي حصل على مقعد واحد في انتخابات يوليو 1984، يمكن أن يحصل الآن على عدة مقاعد إذا أجريت الانتخابات البرلمانية في إسرائيل الآن! إن الاتجاه إلى التطرف في إسرائيل جزء من الاتجاه العام إلى التطرف في المنطقة، وهي ظاهرة مقلقة لم يصل الذين درسوها إلى نتائج عملية لمواجهتها أو لاحتوائها حتى الآن.

وقد التقيت بالسيدة كوهين بوصفها عضوا في الكنيست لأتعرف على المزيد من اتجاهاتها الفكرية، ووافقت على أن تكون المقابلة في بهو فندق دبلومات في تل أبيب، وليست في أحد «المكاتب»، حتى يكون اللقاء «تحت الأضواء وأمام الجميع»!

وأثرت موضوع قانون ضم شرق القدس إلى إسرائيل، الذي قدمت السيدة كوهين مشروعه إلى الكنيست ووافق عليه، فقلت إن إسرائيل استولت فعلاً على ذلك الجزء خلال حرب 1967، وأدارته فعلاً بمقتضى لوائح أصدرتها في تلك السنة، فلماذا إذن تهتم بإصدار قانون لا يحقق أي

مكسب عملي لإسرائيل. بل إنه أثار العرب والعالم أجمع وصدر قرار مجلس الأمن الإجماعي بإدانة هذا الضم، مع مطالبة الدول التي لها سفارات في القدس أن تنقلها إلى مكان آخر في إسرائيل. وهكذا انتقلت 12 سفارة من القدس إلى تل أبيب تنفيذاً لقرار مجلس الأمن.

وأجابت السيدة كوهين بأنها لا يهمها وجود سفارات أجنبية في القدس ولكن يهمها أن تصبح هذه المدينة «العاصمة الأبدية الموحدة لدولة إسرائيل». فأضفت حتى الولايات المتحدة الأمريكية، الدول الصديقة لإسرائيل والتي تقدم لها المساعدات، وافقت على قرار مجلس الأمن، وردت السيدة كوهين بلهجة حاسمة «أنا لا يهمني المساعدات المادية.. إنني أفضل أن أعيش في تقشف أو حتى في الخيام ولا نتنازل عن القدس الموحدة كعاصمة لإسرائيل».

وكان واضحاً أن السيدة كوهين تتحدث بإيمان ديني لا يمكن مناقشته ومع ذلك قلت لها إن آراءها بعيدة عن واقع السياسة. قالت «إنني لست سياسية على الإطلاق.. إنني أؤمن بما أقول ويقتنع من يسمعني، ويتبعونني وهذا هو المهم..».

إن المتطرفين في إسرائيل يستخدمون كل الحجج للتدليل على أن إعادة سيناء كلها إلى مصر كان «خطأ»، ويتساءلون عن الدولة التي انتصرت واحتلت أرضاً ثم أعادت كل الأراضي التي احتلتها بعد معاهدة السلام، ويضيفون أن إسرائيل كانت قادرة على فرض السلام بقوتها وسلاحها ولم تكن في حاجة لإخلاء 14 مستوطنة في سيناء. ومع ذلك فأين هو السلام. وأين التبادل التجاري بين مصر وإسرائيل وأين العلاقات الثقافية ولماذا يقاطع المصريون إسرائيل؟

وينسى هؤلاء المتطرفون أن إسرائيل لم تنفذ تعهداتها في كامب

ديفيد بمنح شعب فلسطين الحكم الذاتي تمهيداً لتقرير مستقبله بعد الفترة الانتقالية، وإذا واجهناهم بذلك قالوا ولماذا لم يحضر العرب إلى مائدة المفاوضات كما حضر الرئيس السادات؟

لماذا نعيد أرضاً وحقوقاً إلى قوم يرفضون وجود إسرائيل ويطالبون بتدميرها ويعتبرون أنفسهم في حالة حرب معها؟ إن الرئيس السادات «ضحك على المستر بيجن» فاسترد سيناء بكل ثرواتها المعدنية وأعطى إسرائيل سلاماً على الورق!

وظاهر أن هذه الحجج لا تستند إلى أي أساس قانوني، بل إنها تتعارض تماماً مع التزام إسرائيل بإعادة الأراضي المحتلة وفقاً لقرارات مجلس الأمن التي قبلتها إسرائيل سنة 1967 وسنة 1973، بل تعتمد على فرض الأمر الواقع بقوة السلاح، يدعمها الإيمان القائم على أسس تاريخية ودينية (من وجهة نظرهم) بحقهم المطلق على أرض فلسطين.. كل فلسطين!! إنهم يتناسون حقوق العرب الذين عاشوا مئات السنين على أرض فلسطين، ويردّون على كل حجة عربية بردود تاريخية ودينية تسندها «القوة»، وهكذا يستمر الجدل، وتضيع فرص السلام الواحدة تلو الأخرى..

تحدثت فيما تقدم عن عدد من أهم الشخصيات التي التقيت بها في إسرائيل، ولقد كانت هناك شخصيات هامة أخرى التقيت بها خلال مهمتي هناك، من أنصار حكومة الليكود ومن معارضيها. ولقد كانت اتصالاتي مستمرة برجال وزارة الخارجية الإسرائيلية وخاصة المستر ديفيد كيميني الذي يرأس الآن الفريق الإسرائيلي في المحادثات التي تدور مع مصر بشأن إقليم طابا.. كذلك عرفت عدداً من ضباط الجيش من بينهم الجنرال «أبراهام تاير» الذي يعمل الآن مديراً لمكتب رئيس الوزراء شيمون بيريز. وكان قريباً من الجنرال وايزمان. وشارك في

محادثات السلام منذ بدايتها، كما يشارك في محادثات وادي طابا..

إن هذا الكتاب لن يتسع للحديث عن جميع المسؤولين الذين التقيت بهم في إسرائيل، ولا كل رجال الأعمال الذين قابلتهم، أو الشخصيات التي تعرفت عليها في مجال الصحافة والإعلام. ولا شك إن إقامتي في إسرائيل كمبعوث للرئيس السادات بعد توقيع السلام كانت تتيح فرصاً عديدة لإقامة علاقات على الصعيد الاجتماعي كذلك، ولا زال بعض من عرفتهم كأصدقاء، يحافظون على اتصالاتهم بي على الصعيد الشخصي..

ولقد اعتقد البعض أن حسن علاقاتي مع الإسرائيليين يتعارض مع مهمتي كسفير لمصر في إسرائيل، وربما كان التقدير الذي أحسست به في ذلك البلد ينبع من شعورهم بأنني مؤمن حقيقة بالسلام الذي عقد بين البلدين، وبأنني رغم خلافاتي معهم في كثير من المواضيع السياسية لم أكن أسمح لهذه الخلافات أن تجعل مني عدواً للشعب الإسرائيلي. كنت أفرّق بين وجهات النظر السياسية، وليس كل إسرائيل متطرف أو حتى من الليكود، فهناك المعارضة (المعراخ) التي يتولى الآن زعيمها بيريز حكم إسرائيل، وهناك اليساريون والماركسيون.. إنهم يختلفون فيما بينهم لكن إسرائيل لها في النهاية موقف موحَّد تحدده الأغلبية البرلمانية.

ولكم تمنيت أن تتحد مواقف الدول العربية، وأن تنتهي القطيعة الدبلوماسية التي فرضتها غالبية هذه الدول على مصر، ولكنني أعلم أن هذه الخلافات من العسير أن تنتهي، لأن النزاع العربي الإسرائيلي ليس السبب الوحيد لها، بل إن بعض تلك الخلافات يخدم أهدافاً أخرى... ولذلك فإن مبادرات الحل السلمي تتعثر على نحو يجعل الوصول إلى حل شامل وعادل للقضية الفلسطينية، أمراً بعيد الاحتمال في المستقبل المنظور..

«كنّا في إسرائيل» هو الجزء الأول من سلسلة «نحن وإسرائيل» ونقدم فيه صورة إسرائيل في مرآة مصرية من خلال مختارات من أدب الرحلة في الخمسين سنة الماضية.

تم نشر عشرات الكتب والمقالات حول تاريخ العلاقات المصرية-الإسرائيلية وتناولت النواحي الدبلوماسية والسياسية والعسكرية ولكن من المؤسف أننا لا نجد شيئاً مفصلاً يقدم الصورة المصرية لإسرائيل في أدب الرحلات في مصر في الخمسين سنة الماضية. وهو يعرض لأول مرة مونتاج للآراء المصرية لإسرائيل والمستقاة من كتب لمجموعة متنوعة من هؤلاء الكتاب المصريين:

**1 - كنت في إسرائيل، عزت ابراهيم (1957).**

**2 - هكذا رأيت إسرائيل، محمد مصطفى (1995).**

**3 - رحلة إلى إسرائيل، علي سالم (1996).**

**4 - في انتظار المخلص، رؤوف سعد (2000).**

**5 - مهمتي في إسرائيل: مذكرات أول سفير مصري في تل أبيب، سعد مرتضى (2008).**

صورة إسرائيل في هذه المختارات تتراوح بين أسرائيل بوصفها آخر ثابت لا يتغير نقيض للذات العربية مروراً بصورة إسرائيل بوصفها أنثى مغرية ووصولاً إلى إسرائيل بوصفها كياناً يتسم بالكثير من العناصر الذميمة المرفوضة وعدد من المزايا التي يجدر بالعرب محاكاتها ولو على مضض.

**كمال عبد الملك ومنى الكحلة**

**دبي يناير /كانون الثاني 2011**

ISBN 978-9953-566-37-5

9 789953 566375

مـــدارك Madarek

إبداع، نشر، ترجمة وتعريب Creating, Publishing, Translating & Arabizing